رياض كامل كبها

ضفّتا الوادي:
سيرة حياتي

המרכז היהודי-ערבי
ألمركز أليهودي-العربي
The Jewish-Arab Center

אוניברסיטת חיפה
University of Haifa
جامعة حيفا

رياض كامل كبها

ضفّتا الوادي:

سيرة حياتي

رياض كامل كبها

ضفّتا الوادي: سيرة حياتي

رياض كامل كبها

الرقم الدولي المعياري: ISBN: 978-965-92351-9-3

2017 ЬмЯҮ с НЮцҒшЛЋНЮ

шДмҮв ФмНсНЙтт©

ҒҮс шЈвҒт ˍ с ҙЛНЮ р рмлтНЮСЬвНЮ рҒНЬϖ

كلمة المركز

تصنع حياة المجتمعات من خلال ЬвКм þпт افراد رياديين يؤدون ادوار ووظائف متعددة خلال سيرة حياتهم المستمرة. كما ان مكانة، وضع، سياق والظرفية الزمنكانية تشكل عوامل مؤثرة على اداء الشخص وسلوكه. وان قدرة الشخص على التكيف من جهة، وانتاج ادوات لتغيير الواقع والحضور فيه من جهة اخرى، لخلق بيئة اخرى تلبي احتياجاته الشخصية، الاسرية والمجتمعية، هي تحديات كُثر هم الذين لا يتمكنون من مواجهتها وتحويلها الي فرص. كما ان قصص وسرديات الشعوب هي تراكم لقصص وسرديات تراكمية لأفراد المجتمع. لذا فان القصة والرواية المعروضة بين دفتي هذا الكتاب ترصد بإيجاز محطات من حياة الاستاذ رياض كبها، الذي يشغل الان مدير المركز اليهودي العربي في جبيعات حبيبة. قبل ذلك شغل ادوار ووظائف متعددة وله دور فعال على المستوى المحلي، المنطقي والقطري. لذا يعرض هذا الكتاب رواية شخص فعال في مجتمعة وعامل على خلق روابط وجسور التفاهم، المشاركة والتسويات بين شعبين بينهما يوجد صراعات وتصدعات كثيره. وان منطلق الاستاذ رياض في المشاركة، لا يقف عند واقع وخطاب صراع البقاء والرباط، بل يتعامل معها ويتبناها كقيمة وطريقة حياة تربط بين الافراد والمجتمعات، ومنها بين السلطات المحلية والمجتمعات المتنوعة والمتعددة بها. قراءة هذا الكتاب يكشف لنا حالة تحولات نفسية، اجتماعية، اقتصادية في مجتمعنا العربي الفلسطيني في اسرائيل وعلاقاته مع المجتمع اليهودي والدولة. رصد ووصف التحولات التي جرت في مجتمعات تعيش على طرفي "ضفتا الوادي" بعد تقسيم قرية برطعه، مكان ولادة الاستاذ رياض كبها ومركز حياته على الضفة الغربية للوادي، بها عاش وعايش النمط الوظائفي الليبرالي المدني الغربي ممزوجا ومتكيفا مع العيش والمعايشة في بيئة قروية تقليدية شرقية محافظه. هكذا فان ما يرصده الاستاذ رياض في كتابة هذا هو أحد النماذج

التي يعيشها ويتعايش معها عدد كبير من ابناء المجتمع العربي الفلسطيني القرويين والمتمدنين في اسرائيل. نظرا لذلك فان اصدار الكتاب باللغة العربية موجها للقارئ العربي، بعد ان صدر باللغة العبرية من قبل دار نشر هكيبوتس همئوحد وجبعات حبيبة موجها للقارئ العبري، لكي تتم عملية تيسير قراءة الكتاب والاطلاع علية من قبل أكبر عدد ممكن من القراء العرب، لما يحوي الكتاب من رسائل منصوصه بشكل مباشر ومعلن، واخرى استرشاديه ومستنبطة. يسر المركز اليهودي العربي في جامعة حيفا ان يصدر هذا الكتاب باللغة العربية كجزء من نشاط المركز البحثي والمجتمعي لخلق حياة مشتركة وتوافقات في الحيز العام لدعم وتمكين الافراد والمجموعات العاملة الهادفة إلى خلق وعي ومعرفه ومناقشة مجدية ومثمرة بين السياسيين وقادة المجتمع المدني اليهود والعرب في إسرائيل، وفي الجدال الدائر بين الإسرائيليين والفلسطينيين والعالم العربي. نتمنى ان يكون هذا الكتاب مصدر ايحاء لإصدار كتب تتناول مواضيع مشابه تناولها هذا الكتاب. كما اننا على ثقة ان الكتاب له قيمه معرفية وقيمة تطبيقية تمكن الحفر أعمق لفهم واقع التحولات في المجتمع العربي من خلال حالات تناولها الاستاذ رياض في كتابة وسيرة حياته. نتمنى للأخ رياض مزيد من العطاء والاستمرار في بناء الجسور بين الافراد، البلدات، المجتمعات والشعوب من احيال واقع ومستقبل أفضل لنا ولأبنائنا. ويستمر المركز اجراء، انتاج ونشر دراسات تزيد المعرفة وتساهم في خلق مجتمع متنوع ومتعدد يعيش في واقع متساوي دون ظلم او اعتداء. كما اننا نقدم شكرنا لكل من ساهم في اصدار هذا الكتاب الى النور.

باحترام وتقدير

بروفيسور راسم خمايسي
رئيس المركز اليهودي العربي

المحتويات

كلمة المركز 3

تقديم – ضفتا الوادي – عن قصة حياة رياض كبها 6

شكر 10

استهلال 13

أبي وأمي: 18

[illegible] 19، [illegible] 22 [illegible] 25 [illegible] 31 [illegible] 32 [illegible] 37 [illegible] 40.

برطعة: 44

[illegible] 46 [illegible] 49 [illegible] 51 [illegible] 54 [illegible] 56 [illegible] 1948 [illegible] 58 1956- 1967 [illegible] 63 [illegible] 1967 [illegible] 67 [illegible] 1987- 1991 72 [illegible] 77

طفولتي: 81 [illegible] 81 [illegible] 84 [illegible] 87

التعليم والسياسة :93: [illegible] 93 [illegible] 97 [illegible] 99 [illegible] 104

معلم المدنيات : 106 [illegible] 108 [illegible] 113 [illegible] 115 [illegible]

جبعات حبيبة بيتي الثاني: 117

[illegible] 117 [illegible] 119 [illegible] 123 [illegible] 126 [illegible] 128 [illegible] 130 [illegible] 133 [illegible] 133 [illegible] 139 [illegible] 143 [illegible]

رئيس المجلس: 2005- 2009 : 145

[illegible] 148 [illegible] 150 [illegible] 153 [illegible] 154 [illegible] 162 [illegible] 153 [illegible] 165 [illegible] 169 [illegible]

من برطعة إلى العالم الكبير: 171: [illegible] 173 [illegible]

أسرتي: زوجتي، أولادي وأحفادي: 180: [illegible] 180 [illegible] 183 [illegible]

تلخيص مرحلي : 188: [illegible] 2015 [illegible] 188 [illegible] 190 [illegible] 191 [illegible] 195 [illegible] 198 [illegible]

سيرة ذاتية: رياض كامل كبها: برطعة 200

تقديم

ضفّتا الوادي: عن قصّة حياة رياض كبها

يجمع هذا الكتاب بين دفّتيه ثلاث دوائر متداخلة تشكّل قصّة حياة مثيرة، حياة شخص فريد، وقرية متميّزة وعائلة كبيرة وفريدة في نوعها.

رياض شخص مريح، ومرن، ومتواضع يملك قدرات رائعة للتواصل مع الناس على مختلف أنواعهم وآرائهم وميولهم السياسيّة والاجتماعيّة. ولديه قدرة استثنائيّة على تحريك الأمور بهدوء وحكمة. بدأت معرفتي الطويلة به عندما درس مع شقيقيّ الكبيرين في صفّ واحد، في ثانويّة "الطيرة"، التي كانت المدرسة الثانوية الرائدة في منطقة المثلّث إذّاك، وواحدة من أفضل المدارس الثانويّة في المجتمع العربيّ في إسرائيل. كنتُ وقتذاك طفلًا صغيرًا في المرحلة الابتدائيّة، وهم شبّان مراهقون أغرار في مرحلتهم الثانويّة. بوصفهم من أبناء الجيل الذي وُلِد بعد النكبة ببضع سنوات، اختبروا الحكم العسكريّ، والحدود، والإذلال والضائقة الاقتصاديّة التي أثقلت كواهل عائلاتهم. شاهدوا بأمّ عينهم تمزُّق عائلتهم الكبيرة بين دولتين: الأردنّ وإسرائيل، على كلّ ما يعينه الأمر. يروي رياض في كتابه كيف تفتّحت عيناه على هذا الواقع المعقّد في سنّ مبكرة، خلال مرحلة المدرسة الابتدائيّة. ويحكي كيف كان يطرح الأسئلة ولم يجرؤ أيّ من أفراد العائلة أو أبناء القرية على التفوُّه بإجابة. لم يحصل رياض على الإجابات إلّا في وقت لاحق، وذلك من معلّميه أعضاء الحزب الشيوعيّ الذين جاءوا من خارج القرية.

ترعرع رياض في قرية برطعة في وادي عارة. برطعة هي إحدى سبع قرى تعيش فيها عائلة كبها. وهي واحدة من بين القرى الثلاث التي كانت ممزّقة بين إسرائيل والأردنّ في الفترة الواقعة بين العامين 1949–1967 (القريتان الأخريان: باقة وبيت صفافا). كانت هذه القرية، بشطريها، في وضعيّة فريدة: ففي الأعوام 1949–1956 كان الشطران تحت إدارة مختار واحد، هو

محفوظ حاجّ أحمد كبها، عمّ رياض. لم يشهد تاريخ البلاد حالة كهذه: أن يكون مختار واحد مسؤولًا عن قرية مقسومة بين دولتين. والد رياض، كامل حاجّ أحمد كبها، كان مختار الجزء الإسرائيليّ من قرية برطعة منذ العام 1956 حتّى وفاته. ورث رياض هذا المنصب عن والده –وكان لفترةٍ ما أصغر مختار في الدولة.

يروي رياض في هذا الكتاب الوضع المعقّد والفريد الذي اتّصفت به قريته برطعة، الوضع الذي فيه "حتّى زوجة المختار في الشطر الشرقيّ لم يُسمح لها بالمشاركة في جنازة والدها في الشطر الغربيّ"، ورغم ذلك "استطاع الناس التواصل عبر الصرخات المنبعثة من شطرَيْ ضفّتَي الوادي، وشاهدوا من فوق السطوح المناسبات المختلفة مثل الأعراس والجنازات، وساعد المهرّبون على نقل أخبار العائلات". رغم العلاقات الوثيقة والقربى العائليّة، خلق تقسيم قرية برطعة الواحدة برطعتين مختلفتين، كلّ قرية تطوّرت في اتّجاه آخر. مورِسَ التمييز ضدّ برطعة الغربيّة القريبة من الحدود وإهمالها من قِبل إسرائيل، أمّا في "القسم الشرقيّ [...] فقد حظيت القرية بالمساعدة من الحكومة الأردنيّة، وجرى ربط القرية بشبكة الهواتف، وبناء مدرسة جديدة ومركز للشرطة المحلّيّة. تعبيد الشارع الجديد عام 1965 ربط بينها وبين قرية يعبد ومدينتي نابلس وجنين، وهو ما حسّن الأوضاع الاقتصاديّة للسكّان. شركة الباصات التي أقيمت هناك [...] اسمها "شركة الخطوط الأماميّة"، وفي هذه التسمية إشارة إلى نيّة المملكة الأردنيّة تطوير القرى القريبة من الحدود وعدم إهمالها". فرض هذا الواقع المشطور على "كلتا" القريتين التعايشَ جنبًا إلى جنب في حالة توتّر دائم بين القرب والابتعاد – وهو التوتّر الذي يصفه رياض في كتابه بصورة حيّة ومن خلال التجارب اليوميّة.

الدائرة الثالثة التي يتناولها الكتاب هي دائرة العائلة الموسّعة ("الحَمولة"). عائلة كبها هي إحدى أكبر العائلات في فلسطين التاريخيّة. تعود أصولها إلى قبيلة ثقيف التي سكن أبناؤها بالقرب من مدينة الطائف في بلاد الحجاز. جاءوا إلى

البلاد في القرن السابع، واستقرّوا في سفوح جبال الخليل الغربيّة. في القرن السادس عشر، نقلهم العثمانيّون إلى طرف جبال نابلس الشماليّ، تلك الجبال التي يسمّيها السكّان المحلّيون جبال "الخطّاف"، وتمتدّ من يعبد في الشرق إلى أمّ القطف في الغرب. منذ مجيئهم إلى هذه المنطقة، أصبحوا جزءاً من الائتلاف الذي تشكّل في محيط عائلة عبد الهادي، التي امتدّ نفوذها على ثلاثة أقضية: جنين؛ حيفا؛ طولكرم. يبلغ تعداد أبناء عائلة كبها اليوم نحو 40,000 نسمة، يعيشون في القرى السبع التي سكنها أجدادهم، وكذلك في قرى أخرى في وادي عارة مثل كفر قرع، وعارة وعرعرة، وفي مدينة الناصرة، وكلاجئين في الأردنّ. ثمّة وزن كبير للأهمّيّة العائليّة على جميع التزاماتها. فجدّ رياض وعمّه ووالده كانوا من قيادات العائلة، كلّ في فترته، ورياض نفسه واصل هذه التقاليد؛ إذ كان لفترة قصيرة –كما أسلفنا الذكْر– مختارَ قرية برطعة الغربيّة ثمّ الرئيسَ المنتخَب لمجلس بسمة المحلّيّ، الذي يشمل القرى برطعة ومعاوية وعين السهلة. حتّى بعد انتهائه من تأدية مناصبه التمثيليّة، ما زال رياض شخصيّة بارزة لها تأثيرها على قريته وسائر قرى حَمولة كبها الأخرى.

قامت د. سارة أوستسكي ليزر بتحرير الكتاب، وهي التي كانت شاهدة وشريكة مع رياض في نشاطاته لسنوات عديدة في المركز اليهوديّ العربيّ للسلام في جبعات حبيبة. النشاط الذي يجري على ضوء مقولة النائب السابق المرحوم عبد العزيز الزعبي المعروفة، والتي وصف من خلالها وضع المواطنين العرب الخاصّ في إسرائيل: "**شعبي في حالة حرب مع دولتي**". عبر إدراك مغزى هذه العبارة، يحاول رياض، مع شركاء العمل في جبعات حبيبة، خلق أجواء الشراكة والسلام بين الشعبين اللذين يتقاسمان قطعة البلاد هذه. رغم المعوّقات والصعوبات المتشكّلة في السنوات الأخيرة، ما زال يؤمن أنّه بمقدورنا العمل من أجل رأب الصدع العميق المتشكّل بين المواطنين العرب والأغلبيّة اليهوديّة في الدولة.

إنّه كتاب جذّاب، مَصوغ بلغة سهلة وسلِسة، ويفتح أمام القارئ نافذة لمراجعة التاريخ كما هو منعكس في سيرة حياة شخص واحد، مثير ومتعدّد النشاطات.

بروفيسور مصطفى كبها، رئيس معهد العلاقات بين اليهود والمسلمين والمسيحيّين، الجامعة المفتوحة

أمّ القطف، آب 2015

شكر

العديد من الأشخاص يرافقونني حياتي ولم أتمكّن من ذكْرهم جميعًا في هذا الكتاب. مجتمعنا العربيّ التقليديّ هو مجتمع يحتضن أبناءه، تسوده المودّة، وهو مثل عائلة واحدة، على العكس من المجتمع الغربيّ الذي أصبح فرديًا يضع الفرد في المركز. في مجتمعنا، ثمّة أهمّيّة خاصّة للأسئلة التي على غرار التالية: "إلى مَن تنتمي؟ من أيّ عائلة أنت؟ في أيّة بلدة تربّيت؟ إلى أيّ دوائر اجتماعيّة تنتمي"؟ أنا واحد من الناس، من المجتمع، وعلى الأخصّ، وقبل هذا كلّه، أنا أنتمي إلى عائلتي الكبيرة الموسّعة وإلى عائلتي الصغيرة: أمّي وإخوتي وأخواتي وزوجتي سلمى وبناتي وأولادي وأزواجهنّ وزوجاتهم وأحفادي المحبَّبين. والدي المرحوم كان مرشدي الروحيّ والفعليّ، وحياتي وكلّ ما أنا عليه متأثّر به. وأنا أفتقده في كلّ يوم خلال الثلاثين سنة التي مضت منذ فارقَنا، وأنا أُهديه هذا الكتاب، ولا شكّ لديّ أنّه فخور بي.

وأنا مَدين بالشكر لأسرتي، ولكلّ من شجّعوني على الكتابة، وللذين دعموني طيلة حياتي وفي السنة الأخيرة، عندما كنت مستغرقًا في كتابة قصّة حياتي، قصّة حياتهم.

خلال مسيرتي تعرّفت على آلاف الأشخاص –ولست أغالي في هذا–. من مُعلّميَّ الأوائل، الذين غرسوا بي الفضول ومنحوني معرفة واسعة، مروراً بزملاء الدراسة في جميع مراحلها، وانتهاءً بزملائي المعلّمين المتفانين الذين عملت معهم لسنوات طويلة في المدرسة، ومعهم وضعنا على رأس أولويّاتنا تربية أجيال المستقبل في مجتمعنا. واليوم هنالك آلاف التلاميذ في منطقة المثلّث وفي أنحاء البلاد، يعملون في مهن مختلفة ويتبوّأون مناصب مختلفة. وغالبيّتهم الساحقة مواطنون واعون يتطلّعون إلى الإسهام في خدمة مجتمعهم.

في جبعات حبيبة، عملت مع جميع المديرين خلال الأربعين عامًا الأخيرة، وإلى جانب عشرات الزملاء والأصدقاء، العرب واليهود، الذين يؤمنون مثلي

بضرورة وإمكانيّة الحياة المشتركة في وطننا المشترك والحبيب؛ هؤلاء الذين يسبحون دائمًا ضدّ تيّار الكراهيَة البغيض، وضدّ العنصريّة والعنف، ولا يكفّون عن الإيمان والعمل قدر استطاعتهم في سبيل إيجاد طرق بديلة. حافظت على علاقات عمل طيّبة مع جميعهم وعلى صداقتنا، حتّى حين لم نتّفق على كلّ شيء؛ إذ بطبيعة الحال كانت هناك جدالات كثيرة. فما يميّز مركز جبعات حبيبة هو حلّ الخلافات بطرق وفاقيّة، وهذا ما حاولت عمله دائمًا. خلال سنوات عمل في هذا المكان، تعرّفت واستضفت في بيتي وفي قريتي شخصيّات من أنحاء العالم ممّن آمنوا بعملنا ودعمونا، والذين أرادوا التعلُّم عن الأوضاع المعقَّدة التي نعيشها وفهمها على نحو أفضل. كنت قد زرت بعضهم واستقبلوني بسعادة واحترام.

أشكر موظّفي السلطة المحلّيّة الذين عملت معهم خلال أربع سنوات من رئاستي لمجلس بسمة، وأعتذر إذا كنت قد تصرّفت على نحوٍ صارم معهم أحيانًا، أو قد أثقلت عليهم بطلباتي، وإن فعلت ذلك فإنّما كان ذاك لمصلحة السكّان ومنفعتهم.

العديد من الأصدقاء والزملاء يرافقونني في هذه المسيرة، وأنا على يقين أنّهم سيبقَوْن إلى جانبي دائمًا في الأفراح والأحزان، في الحياة اليوميّة ووقت الحاجة.

بغية إصدار هذا الكتاب، ساعدني الكثير من الأصدقاء الطيّبين، من عرب ويهود، إذ تجنّدوا لتقديم المساعدة المادّيّة أيضًا. كما أشكر مؤسّسة "حَفتْسِيلِت" وجبعات حبيبة، ومؤسّسة فردريخ إبرت ومؤسّسة هنري أوسبرج على المساهمة التي لولاها ما كان لهذا الكتاب أن يرى النور. أشكر چيورا روزن وديبي أيلون من دار النشر "الكيبوتس الموحّد" على النصائح المُجْدية. شكرًا لصديقتي سارة أوستسكي ليزر، التي عملتُ معها لسنوات عدّة، والتي أعتبرها هي وأسرتها جزءًا من عائلتي. فمنذ شاركتها في فكرة هذا الكتاب، كانت سارة شديدة الحماسة وشجّعتني، إذ جلست معي ساعاتٍ طِوالًا كي نقرّر بشأن مبنى

الكتاب ومضمونه، ثمّ عملت على تحرير أقوالي ووضْعها في هذا الكتاب. بعض الأصدقاء والأكاديميّين قرأوا مسوَّدة الكتاب وأسهموا بملاحظاتهم الهامّة التي أثْرت الكتابَ. الشكر لهم. أقدّم شكرًا خاصًا لصديقي البروفيسور مصطفى كبها، الذي كتب التقديم لهذا الكتاب وأثراني بمعلوماته عن تاريخ العائلة، وكذلك لينيف سچي المدير العامّ لجبعات حبيبة.

طيلة حياتي كنت ولا زلت مؤمنًا بالتعارف الشخصيّ بين بني البشر وبالقدرة على ملامسة القلوب عبر القصص الشخصيّة. آمل عبر هذا الكتاب أن أُفلح في الوصول إلى أشخاص لا يعرفونني ولا يعرفون الكثير عن حياة العرب في إسرائيل.

رياض كبها

برطعة 2016

استهلال

بُعَيْدَ بلوغي الستّين، في يوم الجمعة في ساعات بعد الظهر، جلسنا سلمى وأنا كعادتنا في شرفة المنزل الخلفيّة الكبيرة، التي غطّينا سقفها منذ فترة قصيرة بألواح الخشب. نسائم ريح خفيفة هبّت من الغرب، وجلبت معها حُبَيْبات غبار المحجر القريب، وللحظات ساد صمت مطبق. احتسينا شاي الأعشاب، جالسَيْن باسترخاء، نرتاح من تعب الأسبوع. لم تكن ثمّة حاجة إلى الكلمات.

جاء أحفادنا الواحد تلو الآخر، فملأوا المكان بضحكاتهم وبهجة الطفولة. جلستْ نور في أحضان جدّتها، وأسرع آدم نحوي ليفاخر بتمكّنه من كتابة شيء جديد في ذاك اليوم في دفتر المدرسة. ثمّ جاء أولادنا: ليلى وزوجها حسني وابناهما أمير ورامي؛ محمود وزوجته شيماء وابنهما أحمد؛ أحمد وزوجته بشرى وأولادهما عليّ ومريم وإبراهيم؛ وأمير ابننا الشابّ. ذهب الأولاد يلعبون معًا ليتحوّل الحديث إلى كلام الكبار. قدّمت لنا سلمى جولة ثانية من الشاي. لم نستطع أن نضع في أفواهنا المزيد من الطعام بعد الوجبة الدسمة التي تناولناها لدى أمّي قبل ذلك بنحو ساعتين. كلّ يوم جمعة بعد الصلاة، نجتمع في بيت أمّي، نحن الإخوة والأخوات والأحفاد. نتناول معًا وجبة عائليّة بين العصر والمغرب، مأكولات تملأك دائمًا حدّ التخمة. هكذا جرت العادة على مدار السنين. والدتي، رغم بلوغها الثانية والثمانين، لا تتنازل عن هذا اللقاء الأسبوعيّ. تسأل عن صحّة الجميع، تهتمّ بكلّ واحد وواحدة، تمنحنا نصائحها وتتحدّث معنا.

في ذلك المساء فكّرت في هذا الأمر. خلال سنوات عمري الستّين اختبرت العديد من التجارب. عندي أربعة أولاد وثمانية أحفاد، أسرة أفتخر بها هي امتداد لأسرة والدي التي لا تقلّ إثارة للاعتزاز والفخر، وهي جزء من حمولة الكبها التي تعد عشرات الآلاف، وجزء من قريتي الفريدة التي لا مثيل لها في العالم: برطعة. شاهدت الكثير وعملت الكثير، التقيت آلاف الأشخاص، استضفت في بيتي ضيوفًا من أنحاء العالم، سافرت وتحدّثت أمام مجموعات

متنوّعة وفي أماكن مختلفة، من المدارس الإصلاحيّة في الولايات المتّحدة حتّى مخيّمات اللاجئين في غزّة. كتبت، وجمعت القصص، وعقدت الصلحات، كنت مختاراً ورئيس سلطة محلّيّة، ومنذ نحو أربعين سنة أعمل في جبعات حبيبة، المؤسّسة الأولى في البلاد التي تحاول بكلّ قوّتها خلق الشراكة بين اليهود والعرب ولم تيأس. كنت مدرّساً للغة العربيّة والمدنيّات لمئات عديدة من تلاميذ كفر قرع، علّمتهم الحفاظ على هُويّتهم، على مواطَنتهم، وإيجاد دربهم بين هذه وتلك. ناضلت، وما زلت، من أجل حياة أفضل لأبناء عائلتي، لشعبي ولجميع سكّان هذه البلاد.

جالت هذه الأفكار في مخيّلتي، فقلت لنفسي: لديكَ قصّة ترويها! صحيح أن ستّين سنة هي منتصف العمر، ولكن من يدري ما يحمله لنا الغد؟! أريد أن يقرأ أولادي وأحفادي سيرتي، أن يتعلّموا ويستدخلوا عِبَرها، أن يتعلّموا منّي ويسيروا في دربي. أريد لهذا الجمهور والشارع اليهوديّ الذي لا يأتي إلى هنا: إلى برطعة، وإلى وادي عارة، وإلى جبعات حبيبة، الجمهور الذي لا ألتقي به في حياتي اليوميّة، أريده أن يسمع ويقرأ ويتعلّم أنْ ثمّة طريق آخر، أنّه يمكننا العيش معًا بانسجام وسلام، أنّه يمكننا التغلّب على الخلافات العميقة بيننا. أريد من الجماهير العربيّة، التي لا تسير كلّها على نهجي، والتي تضمّ تيّارات وآراء متنوّعة، أن تقرأ كتابي وأن يثير لديهم النقاش والحِوار حول علاقاتها مع الدولة ومع اليهود، وحول كيفيّة بناء مستقبلنا في الدولة. وأريد أن تصل قصّتي إلى المجتمع الدوليّ، إلى كلّ من يهتمّ بصراعنا غير المنتهي، أولئك الذين لا يعرفون –في المعتاد– الكثير عن المواطنين العرب الفلسطينيّين في إسرائيل.

لذا قرّرت أن أقوم بذلك عبر سيرتي الذاتيّة، وأن أحاول الولوج إلى القلوب، لا بواسطة محاضرات وخطابات، ولا عبر الكليشيهات الخاوية، ولا عبر التصريحات السياسيّة الناريّة، بل من صميم القلب، من صُلب الحياة نفسها. هذا ما راودني في يوم الجمعة ذاك بعد العصر ونحن على شرفة بيتي.

استهوتني الفكرة، فقلّبتها في رأسي، وتحدّثت مع أفراد أسرتي بشأنها، فشجّعوني وتجنّدوا جميعًا لمساعدتي. شاركت في الأمر بعض الأصدقاء المقرّبين، وبعد ذلك زملائي في العمل، ثمّ جلست لأكتب.

* * *

أنظر حولي، إلى أترابي وإلى الأكبر سنًا منّي، فألحظ أنّ معظمهم لم يختبروا ما اختبرته أنا. أودّ أن أروي قصّة حياتي الشخصيّة كشابّ عربيّ اختبر فترات عاصفة وتقلّبات: الحكم العسكريّ، حين لم يكن لدينا كهرباء ولا مياه في البيوت، وحين كان يسوء الحال بنا كان علينا طلب تصريح خاصّ للخروج من القرية والتنقّل من مكان إلى مكان؛ وسنوات دراستي الثانويّة في الطيرة؛ وفترة دراستي في جامعة تل أبيب، تلك الفترة التي شكّلت وعيي السياسيّ؛ وقراري الانضمام إلى القوى التي تناضل في سبيل "التعايش"، ذلك المفهوم الذي أكل عليه الدهر وشرب، بل أصبح بغيضًا في نظر الكثيرين واستُبدل بمفهوم "الحياة المشتركة"؛ والامتحان الصعب خلال الانتفاضة الأولى وشرخ أحداث هبّة أكتوبر عام 2000؛ وأيّامنا الحاليّة التي تشهد ارتفاعًا ملحوظًا في مستويات دراستنا الأكاديميّة ومستوى وعينا المدنيّ، نحن العرب في إسرائيل، حيث يلاحظ ارتفاع مستوى الحياة، ورغم ذلك لم ننجح بعد في ترسيخ مكانتنا داخل المجتمع الإسرائيليّ، وما زلنا نعاني التمييز في جميع مجالات الحياة وتتواصل محاولات تهميشنا، بالرغم من أنّني شخصيًا، ومثلي في ذلك كمثل الكثيرين من العرب، أشعر أنّني جزء عضويّ من المجتمع الإسرائيليّ. أشعر أنّني أسهم بالكثير وإن كنت أنا وأولادي لا نخدم في الجيش، وهو ما أصبح للأسف المقياس للمواطَنة الصالحة أو "الولاء". فبوصفي مواطنًا، أنا مُطّلع على ما يجري في إسرائيل، أتكلّم اللغة العبريّة بطلاقة، ومنخرط في الحياة السياسيّة والثقافيّة والاجتماعيّة في الدولة، ولي العديد من الأصدقاء اليهود. وفي الوقت نفسه، أنا فلسطينيّ من حيث قوميّتي ومنخرط في كلّ ما يجري في الطرف الآخر من برطعة، في الجانب الفلسطينيّ، والمجتمع الفلسطينيّ ككلّ. هناك لي أقارب وأصدقاء، نحترم بعضنا بعضًا، ومتفاهمون، ورغم أنّنا

شعب واحد فطريقانا السياسيّتان مختلفتان؛ هم يناضلون من أجل التحرّر من الاحتلال وإقامة دولة مستقلّة، ونحن ندعم تطلّعاتهم، ونناضل هنا داخل إسرائيل بطرق قانونيّة بغية تحقيق المساواة المدنيّة.

أنا لا أخجل من استخدام الكلمات الكبيرة فأقول إنّني أرغب عبْر هذا الكتاب في نقل رسالة؛ رسالة عن أهمّيّة الحياة المشتركة لجميع الفئات السكّانيّة، رسالة كلّها سلام وتعايش. هذه ليست مجرّد كلمات، بل هي نهج حياة. هذا هو نهج حياتي، وأنا أعتقد به وأتمسّك به بكلّ عزمي رغم الضربات العديدة التي تلقّيتها، ورغم الأصوات النشاز من كلّ صوب التي تحاول تقويض هذا النهج. بعضها أصوات يهود لا يقبلون بي كإسرائيليّ –وبضمنهم قيادات بارزة في الحكومة–، يعتبرونني عدوًا ويريدون نقلي أنا وعائلتي إلى الدولة الفلسطينيّة وهُم في الأصل لا يؤمنون مطلَقًا بإقامتها، وحتّى آخر الزعران الذين يصرخون "الموت للعرب" في ملاعب كرة القدم وفي الوقت نفسه يصفّقون للّاعب العربيّ الذي يحسم المباراة بهدف يحرزه هو. وهي أيضًا أصوات عرب ينتقدونني ويقولون إنّني "أتنازل" أكثر من اللزوم، ولست قوميًا بما فيه الكفاية، ولست مخلصًا كفاية للشعب الفلسطينيّ وأنّني أتملّق اليهود.

بودّي القول هنا بصريح العبارة إنّني أنا رياض كامل كبها، "أبو محمود"، لست خائفًا لا من هؤلاء ولا من أولئك. فأنا مؤمن بنهجي، النهج الذي تعلّمته من والدي المرحوم، وهو ما أُكسِبه لأولادي. أنا أومن أنّ هذه البلاد هي وطننا المشترك وعلينا إيجاد الطريق للعيش معًا بشراكة حقيقيّة ومساواة كاملة، ووضع حدّ للاحتلال الإسرائيليّ في المناطق الفلسطينيّة، وإقامة دولة فلسطينيّة مستقلّة وحرّة لإخوتنا، والسعي من أجل مواطَنة كاملة وحقيقيّة لنا هنا، نحن العرب الفلسطينيّين الذين يعيشون داخل دولة إسرائيل منذ 69 سنة. علينا أن نبني شراكة حقيقيّة، لا أن يكون الأمر مجرّد شعار، بل أن يكون واقعًا يوميًا حتّى أصغر التفاصيل: الشراكة في الموارد، والشراكة في الحكْم، وفي

الاقتصاد، والثقافة وصَوْغ المستقبل. ينبغي أن نعمل معًا للقضاء على العنف والكراهيَة والعنصريّة التي تنهش بنا جميعًا، يهودَ وعربًا على حدّ سواء، وأن نخلق رؤية جديدة متفائلة للشعبين، تقوم على أساس السلام العادل، والمساواة، والشراكة التامّة والحيّز العامّ المشترك للجميع. وأنا، كإسرائيليّ كامل وكفلسطينيّ كامل، أرى أنّني قادر على تعبيد طريق جديدة. هذا ما أفعله منذ أربعة عقود، وهذا ما سوف أواصل فعله ما دام الدم يجري في عروقي والهواء في رئتيّ. كذا أنا، إيجابًا وسلبًا، ولن أتغيّر.

والآن، أدعوكم إلى الجلوس باسترخاء والإصغاء لسيرة حياتي، لعلّكم تقتنعون بالانضمام إليّ في مسيرتي الشاقّة هذه؛ إذ فقط معًا، وبقوى متضافرة، تتوافر لنا فرص النجاح.

أبي وأمّي

أبي، كامل أحمد إبراهيم كبها، كان مختار القرية، إلّا أنّه ندم لاحقًا على ذلك ندمًا شديدًا. لقد ندم أبي على أنّه لم يصبح مُدرّسًا مثلًا أو موظّفًا حكوميًا. في اللغة العربيّة، هنالك مطلع قصيدة غنّاها عبد الوهّاب ومن شعر أحمد شوقي كان أبي كثيرًا ما يردّدها على مسامعنا ألا وهي "خدعوها بقولهم حسناءُ"، أي إنّها لم تكن حقًا جميلة، وكان قولهم ذلك مجرّد تضليل وخداع. إذًا، هذا ما قالوه لأبي: "مختار! مختار!" وكأنّ هذا المنصب شأن عظيم جدًا. فقد اتّضح لأبي في ما بعد أنّ وظيفة المختار لا تستحقّ تلك المبالغة أو ذلك التعظيم، كما أنّها بالطبع لم تكن مصدرًا جيّدًا للرزق. لذا، عندما رأى أبي أنّ العائلة قد كبرت وتوسّعت وأنّ العبء المادّيّ قد تضاعف، قرّر أن يعمل تاجرًا يقوم ببيع الحليب والجبنة، وذلك إلى جانب منصبه كمختار. لقد كان في قريتنا وفي القرى المجاورة قطعان من المواشي وأغنام كثيرة، ولذا اعتاد أبي شراء الحليب من أصحاب المواشي، وقام بإرسال الحليب لشركة تنوفا. وأحيانًا، كان يرتّب أمر صنع الأجبان من هذا الحليب لكي يقوم لاحقًا ببيعه في أسواق الناصرة وحيفا وتل أبيب. وهكذا أمضينا أيّامنا. وكان لدينا حمار، اعتدنا على ركوبه للتجوّل بين العزبات، وتلك العزبات كانت عبارة عن أحراش صغيرة أقامها أصحاب المواشي في التلال المجاورة. آنذاك، لم تكن في قريتنا سيارات قَطّ، بل كان لكلّ عائلة حمار، لنقل الماء من النبع (أو البئر) الذي كان يبعد عن القرية مسافة كيلومترين اثنين أو ثلاثة كيلومترات. وقد استخدموا الحمير أيضًا من أجل الوصول إلى الحقول وإلى الأراضي التي غُرست فيها أشجار الزيتون. أمّا حمارنا، فقد استخدمناه لجمع الحليب والجبنة من العزبات المجاورة، ومن التلال والوديان. وعلى الرغم من أنّ عمليّة الجمع لم تكن سهلة ألبتّة، كنت أجد فيها متعة فائقة، ولا سيّما عندما كنت أذهب مع والدي إلى شتّى الأماكن والمناطق وكنّا نلتقي هناك بكثير من الأشخاص، وكنت أحبّ ذلك حبًا جمًا.

عائلته

عندما كان والدي صغير السنّ، كانت البلاد تحت سيطرة الانتداب البريطانيّ. أبي من مواليد عام 1926، وهو الابن الذكَر الثالث في عائلته، من بين عشرة أبناء وُلدوا لجدّي من ثلاث زوجات. الابن الأوّل هو محفوظ، والثاني محمّد، والثالث والدي كامل. بعد أبي، وُلِد إبراهيم ورجا وحسني وسليم وطالب، وابنتان هما نجيّة ورابعة. جدّي أحمد كان الولد الوحيد لوالده، وكان أحد مختاري برطعة. وقد عيّنه الحكم العثمانيّ. وما زلت أحتفظ بجواز سفره الفلسطينيّ. هو وأمّه كانا قد شاركا مع الوفد الأوّل الذي غادر القرية إلى مكّة المكرمّة لأداء فريضة الحجّ في فترة الانتداب البريطانيّ. وبما أنّه كان وحيد أبيه إبراهيم الذي هو كذلك كان وحيد أهله، فإنّ نصف الأراضي في برطعة كانت ملْكًا له لأنّه لم يكن لديه إخوة يشاركونه في الميراث. كان يربّي الأغنام ويزرع الفاكهة، وكان يمتلك مساحات واسعة مغروسة بأشجار الزيتون الكبيرة. تزوّج جدّي من ثلاث نساء أنجبن له ثمانية أبناء ذكور وابنتين. والأراضي التي تبّقت، والتي صادرت دولةُ إسرائيل في وقت لاحقٍ ما يقارب ثلثها عام 1948، قسّمها بينهم جميعًا. يحكى أنّ زوجة جدّي الأولى قد توفّيت مع أربعة من أبنائها حين تهدّم البيت ووقع السقف فوق رؤوسهم من جرّاء الأمطار، ولم ينجُ منهم سوى ابن واحد هو عمّي محفوظ. لذا تزوّج جدّي ثانيةً، وكانت زوجته هذه المرّة من بلدة شويكة، وأنجبت له الزوجة الثانية ولدين وبنتًا، وهم إبراهيم ورجا ونجيّة. والعمّ إبراهيم –أبو يوسف– كان يحارب في صفوف الجيش العراقيّ. كان يسكن في برطعة الشرقيّة وكمثل جدّي كان إمامَ المسجد هناك. العمة نجيّة (أمّ يحيى) وزوجها يوسف كانا من بين جيراننا، وقد كنّا جميعًا نفخر بها لأنّها كانت تعرف القراءة والكتابة.

توفّي عمّي رجا وهو في الخامسة والعشرين. أمّا ابنه أحمد فاعتبرناه واحدًا منّا وأحببناه جدًا. أنا شخصيًا أمضيت معه معظم أيّام طفولتي. وبِرْتا عمّي رجا، ماريًا ومنيرة، هما كذلك كنّا نتعامل معهما كتعاملنا مع أخواتي. كانتا تساعدان

أمّي في أعمال المنزل، ولا سيّما عندما كانت تخرج أمّي للعمل في الحقول أو عندما كانت تخرج لقطف الزيتون في كتسير. كانت أمّي تعمل بجِدّ ونشاط في المنزل وفي الحقول، كما أنّها كانت تذهب لإحضار الماء من النبع أو من البئر، وكانت تحمل جرار الماء على رأسها. آنذاك لم تكن البيوت موصولة بشبكة الكهرباء، كما أنّ غاز الطبخ لم يكن متوافرًا في البيوت. لذا كانت كلّ هذه المهامّ ملقاة على عاتق أمّي.

وزوجة جَدّي الثالثة هي جدّتي. وُلِدت جدّتي في قرية عين السهلة، وأنجبت لجَدّي خمسة أبناء وابنة واحدة. أكبر الأبناء هو محمّد (أبو مازن) الذي عمل في الزراعة وبعد ذلك في البناء في تل أبيب. بعده وُلِد أبي. والابن الثالث هو حسني، أبو قُصَيّ، الذي كان هو أيضًا مزارعًا وكان يملك جَمَلًا رغم أنّ معظم الناس آنذاك كانوا يمتلكون حميرًا. كان حسني ذا بنْية قويّة وجسم قويّ وكان مولعًا بي بصورة خاصّة. والابن الرابع هو سليم (أبو ياسر) الذي كان معاقًا، غير أنّه كان عصاميًا ومستقلًا جدًا. عندما سئم من عمله في الزراعة، افتتح بقالة في القرية قضيت فيها وقتًا طويلًا، إذ كنت أساعده في العمل. أحيانًا كنت أذهب معه بصحبة حمارَيْهِ إلى مدينة باقة لإحضار البضاعة للحانوت، وقد اعتدنا أن نسلك طرق الجبال. أمّا الابن الأصغر، واسمه طالب –أبو إيهاب–، فقد كان يدلّلني كثيرًا. ذات مرّة، اصطحبني معه إلى كلّيّة المعلّمين في يافا واقتنى لي كتبًا. وفي نهاية كلّ أسبوع كان يعود إلينا محمَّلًا بالهدايا. كان عمّي طالب يعمل لمدّة سنوات طويلة مدرّسًا في أمّ الفحم، وفي وقت لاحق عُيّن مديرًا لمدرسة في قرية أمّ القطَف. لقد حافظنا على علاقة طيّبة بيننا حتّى آخر أيّام حياته.

وعمّتي رابعة هي أوّل معلّمة روضة أطفال في القرية. بعث بها أبي لتتعلّم في كلّيّة لإعداد معلّمات رياض الأطفال في يافا. كانت عمّتي رابعة طالبة شديدة الاجتهاد. عملت عمّتي في الروضة بإخلاص وشغف شديد حتّى لحظة خروجها للتقاعد. كانت تنفق راتبها الشهريّ علينا وتساعد كثيرًا في تحمُّل

الأعباء الماديّة ونفقة العائلة. لم تتزوّج عمّتي رابعة، ولذا كانت تساعد جميع أفراد العائلة في دروسهم ودراستهم. وكانت تمتلك موهبة خاصّة في السرد، ولذا كنت أستمتع جدًا عند الجلوس إلى جانبها للاستماع إلى قصصها وأحاديثها العذبة عن تاريخ العائلة، وتاريخ قرية برطعة، ومنها أيضًا سمعت القصص الشعبيّة والمأثورة التي تناقلتها الأجيال شفويًا.

عمّي محفوظ (أبو الوليد)، الذي كان الابن البكر لدى جدّي، درس في مدرسة الجزّار في عكّا. كان عمّي عميق الثقافة، وكانت لديه موهبة خاصّة ألا وهي الخطابة. كثيرًا ما كان يتباهى بأنّه ذات مرّة ألقى خطابًا أمام الملك عبد الله وآخرين من كبار القادة والسياسيّين في زمن الانتداب البريطانيّ، وبعدها ألقى خطابًا آخر في الأردنّ. وفي فترة الحكم العسكريّ في البلاد، مثّل عمّي المواطنين وتحدّث بلسانهم، وكان محبوبًا ومقبولًا لدى الجميع. كان محبوبًا جدًا لدى أعمامي جميعهم. وفي عام 1949 عُيّن مختارًا للقرية، وكان مسؤولًا عن شِقَّي القرية؛ الشرقيّ والغربيّ. وقد بقي في منصبه مختارًا حتّى عام 1955، وبعد ذلك أُرغِم على الاختيار بين الشقّيْن، فاختار الشقّ الشرقيّ التابع للأردنّ. وعندما اختار القسم التابع للأردنّ تنحّى عن منصبه، ليأتي بعده أبي –كامل– مختارًا للقرية. لم يكن أبي يسعى لهذا المنصب، كما أنّه لم يرغب فيه قَطّ، فقد كان أبي يودّ لو يصبح مدرّسًا، إلّا أنّ أخاه محفوظ قد نجح في إقناعه بقبول هذا المنصب. وفي تلك الفترة، لم يكن مقبولًا أن يعمل المختار عملًا إضافيًا، فكان السكّان يتوقّعون أن يخصّص المختار كلّ وقته وجهوده من أجلهم فقط، والنتيجة هي أنّ أبي ندم على قراره هذا طيلة حياته.

لم يصلني الشيء الكثير عن طفولة أبي. ما أعلمه هو أنّ والدي قد درس في الكتّاب حتّى الصفّ الرابع، وفيه لم يدرسوا سوى القرآن واللغة العربيّة. بعدئذٍ انتقل والدي للدراسة في المرحلة الإعداديّة في قرية يعبد المجاورة، ثمّ أكمل دراسته لمدّة ثلاث سنوات إضافيّة للحصول على الشهادة التوجيهيّة في مدرسة النجاح في نابلس. كان والدي من أوائل الأشخاص في برطعة ممّن حصلوا

على الشهادة التوجيهيّة تلك، وكان ذلك في عام 1945 أو في عام 1946. كان طالبًا لامعًا وموهوبًا، إلّا أنّه من الناحية الجسديّة كان نحيلًا وضعيفًا. كما أنّه عانى من مشكلة بصريّة لازمته مذ كان طفلًا، ورغم زياراته المتتابعة لعيادات الأطبّاء لازمته مشكلة بصره هذه طيلة أيّام حياته.

في الطريق بصحبة والدي

ازدهرت في برطعة صناعة الفحم المحلّيّ، وعُرفت "مصانعها" بالمفاحم. تتطلّب صناعة هذا الفحم قَطْع أشجار الخرّوب والبلّوط. كانوا يضعون الجذوع والأغصان التي جرى قطعها في أكوام، ويقومون بتغطيتها بالقشّ والرمل ويشعلون فيها النيران لمدّة يومين أو ثلاثة أيّام. بعد ذلك كانوا يجمعون الرماد الذي تبقّى ويطفئون النار والجمرات، ثمّ يبيعون الفحم الذي نتج عن هذه العمليّة. في أيّامنا هذه، معروف أنّ عمليّة كهذه تسبّب تلوّثًا للبيئة، لكن هذه الصناعة كانت سائدة قديمًا وكانت بمثابة مصدر رزق لا بأس به لدى بعض الناس. كان الناس يستخدمون هذه العمليّة لإنتاج الطاقة من أجل التدفئة مثلًا، إلّا أنّ عيبها أنّها كانت تتسبّب في قطع أشجار كثيرة من الأحراش والغابات. وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ قسمًا لا بأس به من أشجار هذه الغابات قد قطعها الأتراك عندما أرادوا إنشاء السكّة الحديديّة الحجازيّة، وذلك في بداية القرن العشرين. وفي القرن العشرين كذلك، تعرّضت هذه الغابات لعمليّة قطع واسعة أخرى خاصّة إبّان نزوح اللاجئين في حرب عام 48 عندما أوى الناس إلى الغابة، وكانوا يقطعون الأشجار من أجل البقاء على قيد الحياة بصناعة الفحم لبيعه. وقد تبقّى فقط حرش واحد هو حرش الريحان الذي تبلغ مساحته 500 دونم، والذي نجح الإنجليز في الحفاظ عليه منذ أيّام الانتداب البريطانيّ في البلاد.

افتتح عمّي محفوظ حانوتًا لبيع الفحم في يافا. كان يشتري الفحم من برطعة ويسافر به إلى يافا لبيعه هناك؛ ففي يافا كان الطلب كبيرًا على الفحم. إلّا أنّ أحوال الطرقات آنذاك كانت قاسية والتنقّل لم يكن سهلًا قَطّ. لم تكن هناك

طريق من برطعة إلى وادي عارة –على سبيل المثال– الذي يبعد نحو سبعة كيلومترات عن برطعة. لذا كان الناس يستخدمون الحمير للتنقّل، وأحيانًا الجِمال كذلك، وكانوا يحمّلون على ظهورها الفحم لبيعه. وقد ساعد والدي عمّي محفوظ في بيع الفحم، وذلك قبل أن يبدأ بتجارة الحليب والجبنة.

لا أعلم كيف مرّ أبي بتجربة حرب عام 48. ما أعلمه هو أنّ الجيش العراقي كان يرابط في منطقتنا، حيث كان له مركز في بلدة عارة. وأعلم أنّه حدّثت معارك في منطقتنا بين الحين والآخر. في كفر قرع، على سبيل المثال، وقعت معركة خلال يوم واحد، وفي شمال وادي عارة في منطقة تدعى كنّير وقع اقتتال. وفي المناطق الأبعد من ذلك أيضًا حدثت معارك في منطقة اللجّون (مجدّو)، ووقع اقتتال في منطقة أبو شوشة بجانب مشمار هعيمق. لكن في برطعة ذاتها والمنطقة المجاورة لها لم تكن ثمّة المعارك. لا أظنّ أنّ أبي أو أيًّا من أقاربه قد شارك في المعارك تلك، كما أنّني لا أذكر إطلاقًا أنّه حدّثني عنها؛ إلّا أنّ الأمر الذي ترك أثرًا كبيرًا عند والدي وأقاربه هو قرار تقسيم القرية إلى شقّين– الشقّ الأوّل تحت تصرّف دولة إسرائيل، بينما الشقّ الثاني تحت تصرّف الأردّن، وحدث ذلك عام 1949 إبّان إصدار قرار وقف إطلاق النار. لاحقًا سوف أتطرّق إلى الحكم العسكريّ في المنطقة الذي ألغي عام 1966.

بعد انتهاء الحرب، ذهب الكثيرون، ومن بينهم أعمامي، للعمل في تل أبيب. كان أعمامي يتلقّوْن رواتب جيّدة، لكنّ والدي بقي في القرية. ولمّا عُيّن مختارًا في ما بعد، كان يخجل أن يعمل عملًا جسمانيًا، ولذا لم يكن لديه المال الكافي معظم الوقت. لم يجد أبي مفرًا، عندما توسّعت العائلة، سوى أن يتاجر ببيع الحليب والجبن.

أذكر صنع الجبنة جيّدًا. كنّا في البداية نسخّن الحليب (حليب الماعز والغنم)، ومن ثَمّ نقوم بإدخال الحليب في أكياس حِيكَتْ من قماش أبيض، وبالإضافة إلى هذا، كنّا نضع داخل هذه الأكياس القماشيّة البيضاء كرات من حليب

الماعز الطازج والذي مرّ بعمليّة تجفيف، وذلك لكي يروب الحليب فيتحوّل إلى لبن رائب. بعدذاك، كنّا نقوم بتقسيمه إلى قطع صغيرة على شكل مربّعات، وفوق هذه المربّعات كان يوضع لوح خشبيّ ثقيل بغية إخراج السوائل من الحليب، وهكذا كانت تتكوّن الجبنة.

كان والدي يبيع الجبنة في المدن المختلفة؛ في الناصرة وعكّا ويافا وحيفا وغيرها. كذلك كان اليهود الشرقيّون يشترون منه هذه الجبنة. كان يبيع والدي الجبنة في سوق بيتح تكفا. مذ كنت في الصفّ الأوّل، كان أبي يصطحبني معه في الساعة الخامسة صباحًا إلى وادي عارة على حماره، وكان الحمار محمَّلًا بالأجبان. كنّا نقف هناك بانتظار الباص الذي يقلّ الراكبين إلى الناصرة. كان أبي يذهب بالباص، أمّا أنا فقد كنت أعود أدراجي مع الحمار إلى برطعة، لأنّه كان عليّ الذهاب إلى المدرسة. وفي الساعة الرابعة عصرًا كنت أذهب مرّة أخرى على الحمار إلى وادي عارة لإحضار والدي. كنت أسير قرابة أربعة كيلومترات. كنّا نسير معًا أنا ووالدي بصحبة الحمار، أحدنا يركب على الحمار والآخر يمشي على الأقدام؛ تمامًا على نحو ما جاء في قصّة جحا المعروفة: كان جحا يسير مع والده ومعهما حمار. قال الأب لابنه: أنت ولد صغير. اركب أنت على الحمار. أمّا أنا فسوف أسير. وأثناء السير، قال جحا لأبيه: اركب أنت يا أبي لأنّك رجل كبير، ولا شكّ أنّك تعبت من السير. إلّا أنّ والده قرّر أن يركبا معًا على الحمار. وعندما واصلا السير، لاحظا أنّ الحمار يتصبّب عرقًا وأدركا شدّة إعيائه، فقرّرا أن يحملا الحمار على كتفيهما ويواصلا المسير.

أمّا في حكايتي أنا، فقد كان أبي يركب الحمار وكنت أنا أمشي بجانبه. ما كنت أركب إلى جانب أبي على الحمار إلّا عندما كنت أتعب تعبًا شديدًا. أثناء طريقنا، كان أبي يخبرني بأسماء النباتات والعصافير، كما كان يلقي على مسمعي أشعار وأناشيد الشعراء الفلسطينيّين أمثال عبد الرحيم محمود،

وإبراهيم طوقان[1]. كان يحدّثني عن التاريخ والسياسة، وكذلك قصّ عليّ القصص والأحاديث الدينيّة. وكان أحيانًا يحدّثني باللغة الإنجليزيّة، رغم أنّني لم أحبّ هذه اللغة قَطّ ولم أتعلّم كيف أتحدّث بها مثل والدي. كان أبي يحدّثني عن الأشخاص الذين يقابلهم، وكان كثيرًا ما يذكر أمامي صفات وخصال هؤلاء الأشخاص، ولا سيّما الإيجابيّة والطيّبة منها، ومن خلال هذه المحادثات معه تعلّمت العديد من الأمور والمعلومات عن أسلوب الحياة الصحيح. كان والدي يُكثر من ذكر أبناء عائلته وأقاربه الذين تُوُفّوا، وبالرغم من أنّني لم أقابلهم ولم أعرفهم، كنت أتخيّلهم يقفون أمامي لتحدُّثِهِ الدائم عنهم. وعندما كان يرافقنا أحد رجال القرية في الطريق، كنت من خلال الحديث الذي يدور بينه وبين والدي أحصل على أخبار شتّى خاصّة في شؤون القرية السياسيّة، والشؤون السياسيّة العامّة أيضًا. كان أبي ذا طبع هادئ، ولذا كان محبوبًا ومقبولًا لدى كبار الشخصيّات في القرية، وقد كوّن علاقات وثيقة مع من هم أكبر منه سنًا، وكذلك كان له أصدقاء يصغرونه سنًا.

عندما كبرت، اشتريت سيّارة من نوع جيب، وكنت لا أزال أعمل مع والدي في تجارة الأجبان. وبالرغم من أنّ التنقّل بات أسهل من ذي قبل، فإنّه لم يعد شائقًا كما كان.

والدتي

تزوّج أبي أمّي عام 1951. تتحدّر أمي من عائلة كبها من القرية نفسها (برطعة)، وقد ترعرعتْ في بيت محترم. لم تكن أمّي من أقارب أبي من الدرجة الأولى. كان أبي دائمًا يردّد على مسامعنا أنّ والدتي كانت الأجمل بين

ЬЩИ ҒЭК ШрЦс ТрНМ (1913-1948) рмвсв атсрНФрЗК Ꮡ рцҒаЯвмрКҒІ НЮ -1905) ÈЯЖс ТрНМдҒШИА атКҒрЭ ЩгТНЮШрЦс Т1948 аҒК Ꮡ рс сТ -1917) дҒШИА омрТЩКҒІ НФТЧІ мдҒжАТЯЮ ҒрЛ НҒрҒЗьдв (1941 .(2003

نساء القرية، ولذا قرّر الاقتران بها. عندما تزوّجا، كانت أمّي في التاسعة عشرة بينما كان أبي في الخامسة والعشرين. آنذاك، لم يكن من المألوف أن تذهب الفتيات إلى المدارس، حتّى إنّ المدرسة الابتدائيّة التي أقيمت في القرية آنذاك خُصّصت للبنين فقط. أمّي لا تعرف القراءة والكتابة، إلّا أنّها ذات تجربة وفلسفة حياتيّين خاصّتين بها. كان جدّي حسين، والد أمّي، فلّاحًا مُزارعًا. أذكر أنّه كان يدلّلني كثيرًا، وكنتُ متعلّقًا به إلى أبعد الحدود. ذات مرّة، عندما كان يعمل في أحد الحقول، أُصيب نتيجة لإطلاق نار خلال التدريبات التي كان جنود الجيش الإسرائيليّ يقومون بها غربيّ القرية، ومنذ ذلك الحين، حُظر علينا فلاحة أرضنا تلك. أذكر أنّني آنذاك ذرفت الدموع بغزارة. أذكر أيضًا كيف أتى كلّ أهل القرية لزيارة جدّي للاطمئنان على صحّته بعد إصابته تلك. كما أنّني كنت مولعًا بجدّتي عفيفة –زوجته– ولا سيّما أنّ بيت جدّي كان يقع في المنطقة أو الحارة التي تفصل بيتنا عن المدرسة. كنت يوميًّا، أثناء عودتي من المدرسة، أدخل إلى هناك وأتناول الغداء عند جدّتي، وكانت تهتمّ بي على نحوٍ خاصّ، وتهتمّ بكلّ الأمور التي تخصّني. حينذاك كنت أعود إلى البيت مسرورًا بعد استراحتي اليوميّة في بيت جدّي. لقد كانت جدّتي بارعة في ذلك، كانت قادرة على إعطاء كلّ واحد من أحفادها الشعور بالتفرّد والتميّز؛ إذ كان الجميع يشعرون في حضرتها أنّهم المفضَّلون عندها بل المحبَّبون إلى قلبها.

اسم والدتي شمسة. وُلدتْ عام 1932، وقد نشأت في عائلة طيّبة مكوَّنة من أربعة إخوة وأخت واحدة. كان معظم أفراد عائلتها من المزارعين، كما أنّهم تخصّصوا في زراعة التبغ. كانوا يزرعون التبغ بجانب نبعة الماء، وعندما كانت الشتلات تكبر قليلًا كان عليهم غرسها كلّها في آنٍ واحد في الحقول، ولذا كانوا يعملون على شكل أسراب، حيث عمل في كلّ سرب ثلاثة عمّال، الأوّل كان يحفر حفرة صغيرة داخل الأرض المحروثة، بينما كان الثاني يضع الشتلة، والثالث يرويها بالماء بواسطة إبريق كان يحمله في يده. اشتركت النساء والأطفال في عمليّة الزراعة هذه. كانوا يغرسون الشتلات في نهاية

الشتاء، وكانوا يقطفون التبغ في الصيف. كانوا يعلّقون الأوراق الكبيرة على حبل ومن ثَمّ يقومون بنشر الحبل بين الأشجار في الساحة. عندما تجفّ الأوراق ويصبح لونها ذهبيًا مائلًا إلى الحُمرة، كانوا يضعونها على بطّانيّة ويقطعونها قِطَعًا صغيرة جدًا بواسطة سكاكين ضخمة.

كانت عائلة أمّي تمتلك أيضًا قطيعًا من الأغنام. خالي حسن، أبو عامر، كان يعمل في التجارة وكان يملك حانوتًا في وسط البلدة. كنت مُعجبًا به أيّما إعجاب؛ فقد كانت شخصيّته قويّة جدًا، وكنت معجبًا بابنه عامر الذي يكبرني بسنوات. أمّا خالي الكبير أحمد –أبو ضرار– فقد أصيب بمرض عضال وتوفّي شابًا مخلّفًا وراءه ولدين وابنتين. خالي محمّد (وهو الثالث وَفق ترتيبه في العائلة) عمل في الزراعة مدّة، ثمّ انتقل إلى تل أبيب للعمل فيها. خالي الرابع، محمود، درس في مدرسة "عَمَال" في الخضيرة، وبعد هذه المرحلة انضمّ إلى منظّمة الشبيبة العربيّة التابعة لحزب "مپام"، وتلك كانت حركة شبيبيّة عربيّة وكانت هي الحركة الطلائعيّة الأولى للشباب العربيّ في البلاد. إذًا، أصبح خالي محمود ناشطًا في هذه الحركة، وافتتح ناديًا ثقافيًا تابعًا لها في برطعة، وفي النادي كانت هناك مكتبة وألعاب طاولة، وأُجْريتْ محاضرات ولقاءات اجتماعيّة. خلال سنوات طويلة عمل خالي محمود موظّفًا بمكانة رفيعة في وزارة الصحّة، وكان مسؤولًا عن القرى العربيّة وعن المستوطنات اليهوديّة إلى أن أحيل إلى التقاعد. أذكر أنّه كان شخصًا محبوبًا مثقّفًا، وكان يحظى باحترام الجميع. ما زلنا حتّى اليوم نحافظ على علاقة جيّدة بيننا، فهو جارنا وأنا أذهب لزيارته كلّما سنحت لي الفرصة. وخالتي آمنة، كنت أحبّها وأحترمها جدًا، وكنت أكنّ المودّة لزوجها محمّد –أبو غسّان– رحمه الله. من حسن حظّي أنّ جميع أعمامي وأخوالي كانوا يسكنون قريبًا منّا، ولذا كنت أقضي أجمل أيّام طفولتي لديهم، كما أنّنا تمكّنّا من الحفاظ على علاقة وثيقة بفضل هذا القرب الجغرافيّ. كنّا وما زلنا نتساعد عند الضيق، كما أنّنا كنّا وما زلنا نتشارك الأفراح والأتراح. أنا لا أرى أيّ بديل لهذا التلاحم العائليّ؛ وذلك أنّ هذه الأواصر الأسريّة تقوّينا وتمنحنا الأمان.

بعد سنة من زواج أبي وأمي، وَلِدت المولودة روضة، إلّا أنّها كانت لا تزال في سنّ الثلاثة شهور عندما مرضت وتوفّيت. لم تنسَ أمّي هذه الطفلة، وكثيرًا ما تذكرها وتتحدّث عنها. وفي عام 1953، وُلِدتُ أنا –رياض– الابن البكر. حين وُلدتُ، جاء كلّ أهالي القرية ليباركوا لأمّي لأنّني ابن المختار. ومع مرور السنين، كبرت العائلة؛ فبعد ولادتي، وُلدت ابنة أخرى أسمتها أمّي روضة وكانت تعمل مدرّسة لسنوات طويلة. بعدها وُلد عصام الذي يعمل اليوم في الخضيرة. عبلة أختي متزوّجة وتعمل مدرّسة في قريتنا. أختي وداد تسكن مع أمّي في الحارة ذاتها، وأختاي انتصار وافتخار متزوّجتان وتسكنان في الحارة ذاتها أيضًا. وهنالك أختي ازدهار، وهي مُدرّسة ومتزوّجة أيضًا. أخي حسام هو صغيرنا المدلّل، متزوّج من سهير وهي ابنة عمّي قُصَيّ، وأخي حسام يعمل في المجلس المحلّيّ. إذًا، نحن ثلاثة أبناء وستّ بنات. نحن جميعًا متعاضدون ونتساعد في المصاريف والنفقات.

قضت أمّي حياتها وهي تحاول أن تجعل منّا الأفضل في الدراسة وفي السلوك. إلى يومنا هذا، ما زالت أمّي تسعد لمعرفة تفاصيل حياتنا، تريد أن تعرف كلّ شيء عنّا في مختلف الشؤون؛ الصحّة والعمل والأبناء. كانت دائمًا تحدّثنا عن نفسها أنّها كانت جميلة، مدلّلة مجتهدة وذكيّة. وعلى الرغم من أنّ الحالة الماديّة لم تكن جيّدة، حاولت جاهدة أن توفّر لنا كلّ ما نحتاجه. وكنّا فعلًا نوفّر في كلّ شأن. لم نكن نجرؤ قَطّ على الإسراف والتبذير، فعلى سبيل المثال كنّا نلبس الملابس ذاتها متناقلين إيّاها من أخ لأخ، وكنّا نربّي الدجاج للحصول على البيض والطعام. وكانت لدينا بقرة واحدة، كانت أمّي تعتني بها وتجلب منها الحليب وتصنع اللبنة والجبنة. كنت أنا وأخي نخرج إلى المراعي مع البقرة، بعد الرجوع من المدرسة. ومن حسن الحظّ أنّنا كنّا جميعًا تلاميذ جيّدين وكنّا نحبّ العلم والدراسة. لكن بما أنّنا كنّا بحاجة ماسّة إلى المال، فقد ألقى والدي على كاهلي مسؤوليّة مساعدته. حين كان والدي لا يزال على قيد الحياة، كانت أمّي قويّة جدًا وكان لها نفوذ خاصّ في البيت. وعلى الرغم من الفكرة المغلوطة بشأن النساء العربيّات، التي مُفادُها أنّهنّ يخضعن لأزواجهنّ

وليس لهنّ أيّ تأثير أو أيّ ضلع في اتّخاذ القرارات، فإنّ الواقع يحكي غير ذلك. في الواقع، النساء العربيّات هنّ نساء قويّات، ولا سيّما في بيوتهنّ وداخل منازلهنّ؛ ففي داخل البيت، نجد المرأة قويّة ومسيطرة في نواحٍ عديدة، ومع ذلك، خارجها فقط، يظنّها البعض ضعيفة ومثيرة للشفقة ولا تتمتّع بشخصيّة قويّة مقارَنةً بالرجال. كانت أمّي تشعر بالضيق لأنّها لم تكن قادرة على مساعدتنا في أداء واجباتنا البيتيّة، لأنّها لا تقرأ ولا تكتب، إلّا أنّها كانت المسؤولة عن العلاقات العامّة، ولا سيّما مع أقاربنا، كما كانت دومًا تقرّب المسافات بين الإخوة وتحافظ على السلام بيننا. كثيرًا ما كانت تشجّع أبي على استقبال الضيوف في بيتنا، وقد شجّعت والدي كما شجّعتْني أنا كذلك بأن أحيا بسلام مع الآخرين. في الواقع، مزايا والدتي عديدة، وأهمّها أنّها واعية ومدركة جدًا لِما يدور حولها، كما أنّها كريمة، مُحبّة وطبّاخة من الطراز الأوّل. كانت أمّي تعاني من تدهور في البصر، إلّا أنّها لم تكن تشتكي قَطّ، بل حاولت أن تتدبّر أمورها وأمورنا على أكمل وجه. لكن في نهاية المطاف، ساء حالها بالنسبة للمشاكل البصريّة كثيرًا، حتّى قرّرنا أن نعالجها بالرغم من أنّها تجاوزت سنّ الثمانين الآن. في السنة الماضية، أجريتْ لها عمليّة جراحيّة في عينيها، وقد تحسّن بصرها كثيرًا. لقد فرحنا كثيرًا عندما عادت لها نعمة البصر على نحوٍ أفضل، لأنّ ذلك أتاح لها أن تعود إلى الأعمال المنزليّة – وخاصّة الطهي الذي تحبّه جدًا.

لا يمرّ عليّ يوم لا أرى فيه أمّي. أزورها يوميًا وإنْ لبرهة قصيرة. المهمّ أن أراها كلّ يوم. أحيانًا أُضطَرّ إلى العودة إلى المنزل متأخّرًا من العمل، عندها أُجري اتّصالًا هاتفيًا معها. بالطبع لست الوحيد الذي يفعل ذلك؛ فكلّ إخوتي وأخواتي يفعلون فعلي. في كلّ يوم جمعة، بعد صلاة الجمعة، نجتمع كلّنا في بيت والدتي، نتناول معًا وجبة الغداء. لا أحد منّا يتنازل عن هذا اللقاء الأسبوعيّ، وفي كلّ سنة تكبر العائلة وينضمّ إلينا أحفاد جدد، وكلّهم يجتمعون يوم الجمعة عند والدتي. والجيّد في الأمر أنّنا جيران؛ لذلك يسهل علينا الحفاظ على علاقة قريبة جدًا ومواكبة ما يجري مع كلّ منّا على نحوٍ مستمرّ. هناك

من يعتقد أنّ العيش إلى جانب الأقارب هو أمر ينطوي على مساوئ ومصاعب، لأنّه يسلب منك الخصوصيّة فتُضطرّ دائمًا إلى تغيير برامجك من أجل أحدهم، فقد يأتون لزيارتك بلا سابق إبلاغ، أو قد يزورك أحدهم بغتة فيسبّب لك البلبلة والفوضى. من جهتي أنا، لست مستعدًا بتاتًا أن أتنازل عن بيتي وحارتي في برطعة، حتّى لو عُرض عليّ العيش في أحد القصور خارجها. بالطبع لن أقبل. لقد تركنا العمل في الزراعة، ومن الناحية الاقتصاديّة أصبح كلّ بيت مستقلًا ماديًا، إلّا أنّ نمط الحياة القرويّ التقليديّ ما زال سائدًا. تمنح العائلة الكبيرة، من أبناء وبنات وإخوة وأخوات، قوّةً وشعورًا بالأمان، مَهْما حصل في الخارج، وكما تعلمون الكثيرُ يحدث في الخارج ومن حولنا، إلّا أنّنا متواصلون ومتلاحمون على نحوٍ فائق، وهذا يمنحنا شعورًا بالمتعة والسعادة. آمل ألّا يتغيّر كلّ ذلك في هذا العصر الذي يتّسم بالحداثة والتحوُّل إلى نمط العيش الغربيّ. إنّني أنظر إلى هذه القيم العائليّة والاجتماعيّة باعتبارها كنزًا لا بديل له، ومن هذه القيم –على سبيل المثال–: احترام وتبجيل كبار السنّ؛ مساعدة الآخرين، ولا سيّما الإخوة والأقارب؛ المحافظة على علاقة تلامسيّة مع الأهل وبخاصّة عندما يكبرون ويتقدّمون في السنّ؛ السلوك الحميد في المنزل وخارج المنزل؛ اكتساب العلم والثقافة وغيرها. أحيانًا أستمع إلى بعض القادة السياسيّين الأمريكان أثناء حديثهم عن القيم العائليّة، لكنّي أعلم بأنّه هناك –في الولايات المتّحدة– يسكن الأبناء متباعدين بمنأى عن والديهم ولا يلتقون إلّا في الأعياد، وقد لا يلتقون. لا أستطيع أبدًا أن أتخيّل أبنائي يعيشون بعيدًا عنّي؛ فالذكور في قريتنا لا يخرجون للسكن خارج القرية. البنت التي تتزوّج تنتقل إلى بيت زوجها، لكن الرجل يبقى هنا في القرية. حتّى الفتيات اللاتي يتزوّجن خارج القرية، لا ينقطعن إطلاقًا عن زيارة الوالدين والأهل في برطعة.

جدّي

وُلدت في بيت جدّي القديم. كان بجانب أول بيت في القرية والذي بناه والده. كان هناك صفًا من البيوت المتلاصقة ببعضها، وبيتنا كان في الطرف الشرقيّ؛ من خلفه كانت المقبرة. أذكر هذا البيت جيدًا. الشباك الوحيد في البيت كان يطلّ على المقبرة. في ركن واحد كان المطبخ وفي الركن الآخر كان جرار الماء. كان فيه سرير لأبي وأمي، وفراش لجميع أفراد العائلة. البيت الثاني من الصف كان بيت عمي محمود، والثالث كان "البيت الكبير"، وكان أول بيت حجر في القرية (حتى تلك الفترة كانت معظم البيوت من الطين والقش). كان هذا البيت يطل على منظر خلّاب. هناك ترعرع والدي، وأنا تربيت فيه في صغري ولدي ذكريات رائعة فيه.

جدي كان طويلًا وله ذقن صغير ووقار. عيناه خضراء ونظراته ثاقبة. كان يسير في شوارع القرية منتصب القامة ويبهر الجميع. دائمًا كان يضع الكوفية والعقال، ويلبس عباءة بيضاء طويلة، ويحمل عكازًا. لقد أثر فيّ كثيرًا من الناحية الدينيّة. كان يقرأ القرآن ويكثر من الصلاة. لأن والدي كان المختار وأنا أبنه البكر، كنت أجلس في المضافة، وكنت الحفيد الوحيد الذي سُمح له الجلوس إلى جانب جدّي والإصغاء إليه. منذ الطفولة كنت شديد الفضول، وكنت اسأل كثيرًا ودائمًا كان يرد على بصبر. لأن جدّي ووالدي كان كل منهم مختارًا، كان يأتي إلينا الكثير من الضيوف. كل من كان يزور القرية كان يأتي إلى بيت جدّي. كان أيضًا إمام المسجد، يحترمه ويحبه الجميع.

في عام 1964 وقعت لجدّي حادثة على الحدود أخافتنا. كان ذاهبًا إلى النبع كعادته في كل يوم، وكان هناك جنديين أردنيين طلبا منه الاقتراب منهما. لم يكن في حينه جدار بين شقي القرية (لاحقًا، وفي الفصل عن برطعة سوف أتحدث عن تقسيم القرية وآثاره). طلبا منه مرافقتهما إلى مركز الشرطة في برطعة الشرقيّة فذهب معهما دون جدال. في الشق الثاني من القرية صرخ بعض أقاربنا أن أهرب منهما، لا تذهب معهما! لكنه لم يستمع إليهم واستمر إلى أن وصلوا مشارف

بيوت برطعة الشرقيّة. أفراد من عائلتنا في القسم الشرقيّ أحاطوا به، ومن بينهم عمي إبراهيم وعمي محفوظ. وفي الطرف الآخر، في برطعة الغربيّة بدأنا نتجمع؛ رأينا جدّي يدخل بيت إبراهيم ولم ندري ماذا سيكون مصيره. قلقنا كثيراً عليه، فأحياناً يكون الجنود الأردنيون قاسون مع كل من يجتاز الحدود. قبل الغروب رأينا جدّي يجتاز الوادي ويعود إلينا. الجميع احتضنه وأردنا أن نعرف ماذا حدث، فقال لما بهدوء: أردت رؤية أولادي وأقاربي، وكنت واثقاً أن سكان برطعة الشرقيّة سوف يضغطون على الجنود ليطلقوا سراحي.

في عام 1963 بنى والدي بمساعدة أخوته له بيتاً على قطعة أرض يملكها جدّي، غربيّ البيت القديم. البيت الجديد كان من طابقين وفيه غرف كثيرة، شرفة ومطبخاً. كان هذا أول بيت يبنى بمحاذاة الحدود. العامود الذي وضع لتأشير الحدود كان يخدم والدتي لربط حبل الغسيل. كان بيتاً جميلاً وأمامه نحو مئتين أو ثلاث مئة متر مربع من الأرض الخصبة. كانت والدتي تزرع هناك الخضار والتوابل. في الفترات الصعبة من سنوات الخمسينيات والستينيات، حين ساد الحكم العسكريّ، ولم يتوافر العمل للجميع، لم نجع، لأن والدتي كانت تعرف كيف تصنع الطعام اللذيذ من كل ما وقع تحت يديها.

المختار

عُيّن المختار لوظيفته رئيساً للسلطة بعد المشاورة مع كبار البلدة، وكان من الواجب الموافقة عليه من قِبل الجميع. القرية برمّتها كانت تتّفق على تعيين إنسان معيّن مختاراً، لا بالتصويت والانتخاب بل بالموافقة (موافقة الرجال بالطبع)، وكان على مَن يُعيَّن مختاراً أن يتمتّع بمزايا وخصال حميدة، وأن تجمعه مع مَن حوله علاقات طيّبة. عليه كذلك أن يكون شخصاً لا يُغضب الآخرين ولا يتنصّل من المسؤوليّة إذا طلب منه أيّ شخص مدّ يد العون. عليه أن يكون الشخص الذي يحاول تقديم المساعدة دائماً. شكّل المختار حلقة

وصل بين الحكومة وسكّان القرية. انتظر الناس منه أن يقوم بمساعدتهم قَدْر المستطاع، وكان عليه أن يبقي بابه مفتوحًا في وجه الجميع، ليلًا ونهارًا.

كان والدي مختار القرية أثناء فترة الحكم العسكريّ، هذا الحكم الذي قد ساد المجتمعات العربيّة في إسرائيل في الفترة الواقعة بين العام 1949 والعام 1966، وسوف أتوسّع في الشرح عن ذلك لاحقًا. اعتاد والدي استقبال يهود في بيتنا في تلك الفترة، لأنّ بيتنا يقع على الخطّ الأخضر بالضبط، وكذلك كنّا نستضيف أشخاصًا من الأردنّ أتوا عبر الحدود، كان والدي يستمع لمطالبهم، محاولًا مساعدتهم أيضًا، ولا سيّما الجنود الأردنيّين؛ فقد كانوا مساكين لكونهم في منطقة نائية حيث لم يكن لديهم أيّ طعام أحيانًا.

ليس ثمّة للمختار مكتب، ولا مساعدون، وليس هنالك تخطيط يوميّ ثابت. كانت إحدى وظائفه الرسميّة تسجيل الولادات والوفيات في سجلّ خاصّ للسلطات. لم يكن المختار يسجّل عقود الزواج، لأنّ ذلك كان شأنًا دينيًا، لكن هو من كان يمنح شهادة إثبات العزوبيّة لكلّ من أراد الزواج. وعندما كان يريد أحدهم بناء بيت، كان عليه أن يأخذ موافقة المختار، وأن يحصل على أوراق ثبوتيّة تثبت كون البيت في منطقة الأراضي التي يمتلكها ذلك الشخص؛ والأمر مَرَدّه أنّه حتّى ذلك الحين لم تكن هنالك خطّة رئيسيّة لتقسيم الأراضي في المنطقة السكنيّة. كذلك كان مسؤولًا عن جمع الأموال من أجل إقامة مشاريع في القرية. على سبيل المثال، عندما أرادوا توسيع المدرسة في الستّينيّات (وآنذاك كانت المدرسة عبارة عن صفّين لا غير)، جمَعَ السكّان أموالًا لهذا الغرض، وتطوّعوا بالعمل على إنشاء صفّين آخرَيْن بدون إسهام من وزارة التربية والتعليم. كان أبي ممّن جمعوا التبرّعات، إلى جانب أعضاء لجنة التعليم في القرية ومدير المدرسة، الذين اختيروا من أجل إقامة المشروع. عندما حان الوقت من أجل صبّ الباطون، قاموا باستدعاء جميع سكّان القرية للمشاركة في الاحتفال الذي ترأّسه والدي. أذكر أنّ أمي وكلّ نساء القرية وقتذاك حضّرن للعمّال كمّيّات هائلة من الأرزّ والطعام.

لكونه مُختارًا، كان والدي أيضًا مُصلحًا بين الناس، كما أنّه كان يتدخّل من أجل إطلاق سراح أبناء القرية ممّن جرى اعتقالهم نتيجة خروجهم من القرية بلا استصدار تصريح خروج من إدارة الحكم العسكريّ. في تلك الفترة، كان والدي مشغولًا جدًا، لأنّ الناس فتّشوا عن العمل خارج القرية أو سافروا لكي يزوروا أقاربهم؛ لذا كانوا عرضة للاعتقال عندما خرجوا من القرية بلا تصاريح، وكان والدي يرافقهم إلى المكاتب الحكوميّة أو إلى مراكز الشرطة في عارة، ويوقّع على الضمان لكي يُطلق سراحهم. كان لديه ختم رسميّ خاصّ به حصل عليه من الحكومة. هذه كانت وظائفه وواجباته التي لم يكتسب منها المال من أيٍّ كان.

كان والدي يُكثر من استضافة الناس في بيتنا. فعلى سبيل المثال، عندما كان يصل القريةَ مبعوثٌ من قِبل السلطات، كان يأتي هذا المبعوث إلى بيتنا. كما اعتاد ممثّلو وزارة الصحّة أن يجمعوا أطفال القرية في بيتنا من أجل إجراء التطعيمات اللازمة لهم جميعًا، ومن ثَمّ أُجْرِيَت التطعيمات للأطفال في مدرسة القرية. كان السياسيّون يأتون الى قريتنا لتمثيل الأحزاب المختلفة خلال الانتخابات، كما هو الحال في جميع القرى والمستوطنات. لقد حصل العرب الذين صمدوا في إسرائيل على المواطَنة والتي بموجبها يحقّ لهم التصويت في انتخابات الكنيست. بَيْدَ أنّ معظم العرب لم يكونوا على معرفة أو دراية سياسيّة، ولذا –على وجه العموم– كان غالبيّتهم يصوّتون وَفق تعليمات كبير العائلة. من هنا، حاولت الأحزاب اليهوديّة كسب الأصوات العربيّة، وعلى رأسها حزب المباي وحزب المبام ايضًا، والصهيونيّون على وجه العموم، وكذلك الأحزاب المُتديّنة. لقد أدركوا أنّ الطريقة الأسهل كانت التأثير على المختار، من خلال التعهّد بمساعدة القرية، ومنح الوعود بصدد تحسين القرية، كشقّ طريق جديدة أو إضافة صفوف للمدرسة، وبذلك يكون إقناع السكّان بالتصويت لهم. حاول العديد منهم إقناع والدي بالتصويت لأحزابهم وإقناع الآخرين بفعل ذلك، ولكنّه لم يفعل ذلك مطلقًا. هو نفسه كان يدعم حزب المباي، والذي كان حزب الحكومة، ربما نتيجة منصبه أو وظيفته، ولكنّه لم

يكن ناشطًا سياسيًا قَطّ. شكّل حزب المباي في السنوات الأولى "قوائم الأقلّيّات" وتضمّنت تمثيلًا لكلّ القِطاعات العربيّة– المسلمين، المسيحيّين، البدو، الدروز، سكّان الشمال والمثلّث، وقد شملت القائمة بصورة عامّة رؤساء الطوائف والعائلات. ولكن كما ذكرت آنفًا، أبي لم ينخرط في ذلك المجال، وهذا ليس أمرًا غريبًا؛ إذ إنّ برطعة كانت قرية صغيرة ولم يكن فيها عدد كبير من المصوّتين.

حين كنّا أطفالًا، كنّا نسعد جدًا عند استضافة والدي للضيوف في بيتنا، وأحيانًا كانوا يبيتون عندنا، وفرحتنا القصوى كانت عندما كان الزمّارون أو منشدو الأعراس يبيتون عندنا في البيت، وذلك لأنّنا كنّا نأكل أشهى أصناف الطعام. للأعراس كان يُدعى الحَدّاء، وهو مطرب يغنّي بدون عزف موسيقيّ، وكان يرتجل كلمات الثناء والمدح للعريس وأهله وعياله، وكان يتغنّى بحُسْن العروس وجمالها متمنّيًا للعروسين السعادة في حياتهما معًا، في حين يحيط هذا الحَدّاءَ أسرابٌ من الرجال يصفّقون ويغنّون معه ويردّدون وراءه بعض الكلمات. في الأعراس التقليديّة، كان كلّ أهالي البلدة يشاركون في العرس، وكانت النساء يجتمعن لطهي الطعام وتقديمه للضيوف والمهنّئين. في حياتنا اليوميّة، لم نكن نأكل اللحم كثيرًا، لكن عندما كان يأتي ضيف للزيارة، كانت النساء يُعْددنَ من أجله اللحم، وكانت الجارات يتساعدن في الطهي وإعداد الطعام. إذا حدث أن جاءنا ضيف ولم نكن نمتلك الدجاج، كان أحد الجيران يرسل لنا الدجاج من أجل الضيوف، وكذلك الأمر بشأن الخضار والبيض. كان هذا متبادلًا وعاديًا؛ فكلّنا أقارب، وكذلك لكون والدي كبير العائلة والمختار كانت الحارة برمتّها تسهم في واجبات الضيافة لأنّ الضيف يخصّهم جميعًا، فقد كانوا يعبّرون بذلك عن احترامهم لوالدي المختار، وللضيف أيضًا.

أحاسيسي كانت مختلطة بل متناقضة إزاء منصب والدي كمختار. من جهة، كان رفاقي مستغربين أنّ والدي لا يعمل، وأحيانًا كانوا يسمعون ما يقال عنه في بيت الضيافة من انتقاد فيأتون لاستعمال ما سمعوه ضدّي. ومن جهة

ثانية، كان الأمر نافعًا جدًا بالنسبة لي؛ فقد كنت أوّل من يعلم بالأمور التي كانت تحدث في برطعة. على سبيل المثال، أولئك المعنيّون بالارتباط والزواج كانوا يقصدون والدي من أجل الحصول على أوراق ثبوتيّة العزوبيّة، كما أنّهم كانوا يقصدونه لتسجيل المواليد الجدد، وحين كان أحدهم يتعرّض للاعتقال أو الأسر، كانوا يُعْلِمون أبي أوّلًا. أوكلتْه السلطات بكلّ هذه السجلّات، وبذلك كان والدي بمثابة الفرع المحلّيّ لوزارة الداخليّة. ومن هنا حصلت أنا على الكثير من المعلومات الداخليّة، والتي كنت أستخدمها أحيانًا ضدّ الأولاد الآخرين. لا شكّ أنّ السينما كوّنت لديّ مصدرًا كبيرًا من التسلّط والقوّة أمام رفاقي، أفلام السينما التي عرضناها في القرية. السينما كانت حدثًا كبيرًا، وأنا كنت أعلم سلفًا منذ البداية بموعد عروضها في برطعة؛ إذ جرت العادة أن يحيط ذوو الشأن والدي علمًا بذلك عبر الرسائل.

عندما تطلّب الأمر القتال، لم يتردّد والدي قَطّ. ففي بداية السبعينيّات، كان غربيّ القرية –حيث تقع اليوم "كسّارة ليرد"– معسكر تدريبيّ للجيش، وقد منعَنا هذا المعسكر من العمل في أراضينا والتحكّم بالمراعي –هناك حيث تلقّى جدّي رصاصة في رجله– ممّا أسفر عن بيع الناس لقطعان الغنم. وقد جرى تبليغ السكّان بوجود خطّة لتوسيع مساحة أرض الجيش حتّى مدرسة برطعة. أحضر الجيش آنذاك تراكتورًا، وشرعَ في بناء جدار قد وصل حتّى بيوت القرية والمدرسة، بغية تحويل الأراضي الموجودة من الغرب حتّى برطعة إلى أرض مغلقة للجيش. أقام والدي مع سكّان برطعة من جهتيها مظاهرات واحتجاجات من أجل منع جرّافات الجيش من العمل. أذكر كيف كان يعود في الليل مسرورًا ومتفاخرًا بأنّهم استطاعوا توقيف عمل الجيش بأجسادهم. بعد مرور أيّام معدودة، دعاهم وزير الدفاع موشي ديان إليه. ذهبوا للقائه فسألهم: إلى أين توافقون على أن نبني جدارًا؟ قالوا له: كلّ هذه الأراضي هي خاصّتنا. نحن لا نريد أن يكون الجيش في أراضينا. يكفينا ما خسرناه من أراضٍ في العام 48. فقدَمَ ديان على متن مروحيّة إلى الأرض المتنازَع عليها، والتقى بوالدي وبكبارَ القرية. وكما يبدو قد اقتنع، فقد جرى إلغاء الخطّة. شعر

الجميع بالرضى كونهم تمكّنوا من منع استيلاء الجيش على أراضٍ أخرى من برطعة.

العائلة الموسّعة

أكمل أبي عمله في بيع وشراء الجبن. لم يستمرّ هذا العمل طيلة أيّام السنة، بل كان موسميًا، فقط في الموسم الذي كانت فيه الأبقار والخراف تدرّ الحليب. في أيّامنا هذه، غدا الحليب صناعيًا، لكن في ذلك الحين عملوا وفقًا لموسم الحلْب الطبيعيّ للحيوانات. عملنا أربعة أو خمسة شهور ممّا أدّى إلى تمويل كلّ العائلة إلى حدّ ما. الحياة كانت بالغة الصعوبة على الصعيد المادّيّ. لم نكن أغنياء البتّة. لكنّ عمّتي رابعة كانت تعمل مُدرّسة، فكانت تساعدنا قليلًا حتّى استقرّ الحال.

المساعدة في العائلة هي ميزة اجتماعيّة أفخر وأعتزّ بها كثيرًا. ساعد كلّ منا الآخر بشكل يوميّ. على سبيل المثال، أنا أذكر أنّه حتّى آخر الأيّام قبل انتقالنا إلى بيتنا الجديد، اعتدنا أن نأكل معًا كلّ يوم –كلّ الأعمام، وأولاد الأعمام–. كنّا نجلس كلّ مساء حول الطاولة ونأكل معًا. كانت النساء يطبخن للجميع –جدّتي كانت تطبخ، أو أمّي، أو واحدة من زوجات أعمامي، وبالأخصّ مسعدة، أمّ مازن، زوجة عمّي محمّد.

الحليب كان مشتركًا، اللبن كان مشتركًا، الدجاج، البيض، والأهمّ: إضاءة مصابيح الزيت في المساء؛ كلّ شيء كان مشتركًا. لم يقوموا بإجراء الحسابات. العائلة اشترت عدسًا، على سبيل المثال، لكلّ السنة. كما كانوا يقتنون البامية في موسمها، من أجل تجفيفها وتخزينها. لم تكن البيوت موصولة بالكهرباء؛ ولذا اعتادوا تخزين المُجفّفات على وجه الخصوص. بالطبع عملتْ في تلك الورشة نساء، كانت مسؤوليّة إعداد الأكل وتخزينه وتجفيفه تقع على عاتق النساء، وقد كنّ يعملنَ أشياء مُعجِبة هائلة من أقلّ ما توافَرَ من موارد. عمّي محمّد، الذي عمل في تل أبيب وربح ربحًا جيّدًا قياسًا

إلى الآخرين، كان يعود في أيّام الخميس من المدينة الكبيرة مع صناديق من الخضروات والفواكه وكلّ ما كان تحتاجه القرية.

أنا سعيد بأنّه، بالرغم من الحداثة الكبيرة التي مررنا بها منذ ذاك الحين، لا تزال هذه المساعدة قائمة حتّى اليوم، لكن بشكل أساسيّ بين الإخوة والعائلات لا بين الأعمام وأولاد الأعمام. قبل سنوات، عندما أراد أخي بناء بيت، قمنا أنا وأخي الثاني بمساعدته وبنينا معًا البيت له. والآن الأمر ذاته يجري بين أولادي: محمود وأحمد الكبيران يساعدان أمير، أخاهم الصغير، في بناء بيته. أحدهما يشتري مستلزمات الأرضيّة، والآخر يدفع ثمن الطلاء. هكذا تجري الأمور لدى العديد من العائلات.

المساعدة المتبادلة كانت متّبَعة أيضًا خارج نطاق العائلة، لا داخلها فقط. كان لوالدي العديد من الأصدقاء في الناصرة وحيفا تعرّف عليهم من خلال تجارة الجبن، وكان لديه أصدقاء يهود من أماكن مختلفة في البلاد. أحدهم كان "أبو يوسف" من حارة هتكفا في تل أبيب. عندما كنت طالبًا جامعيًا، وإذّاك كان أبي عاطلًا عن العمل، كنت أعود إلى القرية مرّة واحدة في الشهر. لم أكن أملك المال، وكنت أذهب إلى "أبو يوسف" في حارة هتكفا في تل أبيب، وهو الذي كان يمنحني المال بدون أن يطرح أسئلة. وعندنا، كان بيتنا الخاصّ مفتوحًا للعرب واليهود، حتّى أثناء الفترات العصيبة. عانينا جدًا من فترة الحكم العسكريّ أكثر من أيّ بلدة أخرى في المنطقة. لم يكن هنالك شارع يربط برطعة بالشارع الرئيسيّ لوادي عارة. لم نكن متّصلين بأيّ قرية أخرى، وفي سبيل أيّ شأن أو أمر كان علينا الذهاب إلى وادي عارة مشيًا على الأقدام، ومن هناك نكمل سفرنا بالحافلات. ذات فترة، اضطُرّ أبي إلى الذهاب يوميًا لمدّة أسبوع كي يطلب من القائد العسكريّ تصريحًا لأخذي إلى الطبيب، لكنّه لم يمنحه التصريح المطلوب، حتّى قام أحدهم بحمايتنا سياسيًا وأعطانا تصريحًا. لقد عانينا عندما قام الجنود ورجال الشرطة بالتفتيش عن التهريب

والمهرّبين وبمضايقة سكّان القرية ليلًا ونهارًا، وأحيانًا كانوا معتقلين أيضًا. وبالرغم من ذلك، كان بيتنا دائمًا مفتوحًا للجميع.

علّمَنا والدي أن نحبّ الجميع ونحترمهم. الطريق التي اختارها كانت سهلة سلسة: لم يتجادل مع الناس، وكان يعرف كيف يحلّ المشاكل بهدوء. لم يكن كالمختارين الآخرين، الذين طلبوا جِنْيَ فوائد من الحكومة ومن سكّان القرية واكترثوا لأنفسهم ولأقربائهم فقط. ربما كانت هذه هي طريق النجاة في تلك الفترة، لكنّه لم يخضع لها وحافظ على استقامته. أبي كان مستقيمًا بالفعل؛ أحبّ قريته، أحبّ أهل القرية، ساعد الجميع. أنا لا أقول ذلك لأنّه والدي، بل لقد كان كذلك بالفعل. هذه هي الحقيقة. على ما يبدو، ذاك يتعلّق بجوهر والدي أكثر من كونه أمرًا عقائديًا. أنا أستطيع أن أقول بلساني إنّي ورثتُ الجوهر هذا. في بداية طريقي في جماعات حقيقا، كان لا يزال على قيد الحياة ودعمني لتصرّفي مثله. لقد أعجبه أنّني سرت على نفس خطاه.

لدينا في العائلات العربيّة، غالبًا لا يُتاح للمشاعر الدافئة أو الحميميّة بين الرجل والمرأة أن تتكشّف للعيان بصورة عامّة. أنا لا أذكر أنّني رأيت أبي وأمي يتلامسان أمامنا. ولكن هنالك صورة كهذه عالقة في ذاكرتي. كان لديّ خال يُدعى أحمد. مرض بالسرطان، وتوفّي عام 1964 وهو في الثالثة والأربعين من العمر. كنت طفلًا ورأيت أمّي تبكي –لربّما للمرّة الأولى–. بكاؤها وحسّاسيّتها أوجعاني إلى أبعد حدود الإيجاع. فجأة رأيت مشهدًا لم أرَهُ من قبل: أبي يعانق أمّي ويلاطفها ويحاول تهدئتها، وهي في حضنه منهمرة بالبكاء. الصورة هذه لا تزال محفوظة في مخيّلتي. وأمّي حتّى اليوم ما زالت تذكر أخاها هذا، ودائمًا تخبرنا عنه بكلّ محبّة.

في غضون ما يقارب عشر سنوات بعد ذلك الموقف، أي وفاة خالي، تحديدًا عام 1973، تكرّرت المأساة ذاتها. أخوها حسن، الذي كان آنذاك في الخامسة والأربعين، عمل في حراسة حقول الأفوكادو في كيبوتس بركاي. رافق أصحابه من الكيبوتس في رحلة إلى سيناء والبحر الأحمر. على ما يبدو، لم يكن يتقن

السباحة. في منتصف الليل، جاءت الشرطة إلى بيتنا، بيت المختار. أبي كان نائمًا، لكن أمي استيقظت وذهبت لتفتح الباب. سأل الشرطيُّ –وكان من كفر قرع ولم يعرف عائلتنا– عن المختار، فأجابته أمّي قائلة إنّه نائم، فقال لها: "إذًا أخبريه أنّ هنالك رجلًا من القرية اسمه حسن حسين قد غرق في البحر وتوفّي، ونحن نطلب منه أن يُعْلم العائلة بذلك". الشرطيّ لم يعرف أنّ الرجل هو أخوها. أنا استيقظت من صراخها. نزلت لأرى ما يحدث، فوجدتها في انذهال.

لقد تبقّى لأمّي أخوان اثنان. أحدهما، محمّد، توفّي قبل سنوات. الثاني، خالي محمود، الذي عمل سنينًا طِوالًا في وزارة الصحّة، يسكن بجانبنا وأتمنّى له دوام الصحّة والعافية والعمر المديد.

تراث

في نادي حزب مپام (حزب العمّال الموحّد)، الذي كان خالي محمّد مسؤولًا عنه، كانت هنالك مكتبة صغيرة أتيح لكلّ واحد أن يدخلها من أجل القراءة. أنا شخصيًا لطالما أحببت القراءة وأكثرت من زياراتي للمكتبة. لقد تشرّبت حبّ القراءة من أبي.

كذلك في البيت كانت لدينا مكتبة صغيرة، وهو أحبّ القراءة. كان لديه كتاب اسمه "سرّ النكبة"، من تأليف محمّد نمر الهوّاري (من الناصرة) الذي كان قاضيًا في إسرائيل؛ قرأته عندما كنت طفلًا لكن آنذاك لم أفهم ما يعنيه لحياتنا. الكتاب، الذي صدر عام 1950، ناقش ما حصل في العام 1948 من وجهة نظر الفلسطينيّين، وكان أيضًا هنالك انتقادات للعالَم العربيّ الذي تخلّى عنّا. وفيه كذلك قصص هجرة من القرى وصور بالأبيض والأسود، كلّها علقت بذاكرتي، صور لقوافل اللاجئين يحملون حمولات ثقيلة بعدما رُحّلوا عن قراهم.

والدي دائماً تفاخر بنفسه أمامنا لإتقانه الإنجليزيّة، التي اكتسبها في ثانويّة النجاح في نابلس. هو بالفعل تحدّث بلغة إنجليزيّة جيّدة، ولكنّه لم يتعلّم أو يتكلّم العبريّة أبداً. كانت لديه كتب بالإنجليزيّة استخدمها في المدرسة. في سنوات الستّين، بدأ بشراء كتب وصلت من دول عربيّة في كلّ فرصة سنحت له. قرأ الصحف يوميًا تقريباً: في البداية صحيفة "اليوم"، التي كانت الصحيفة الرسميّة بالعربيّة وكانت تصدر عن المؤسّسة الإسرائيليّة، وبعدها "الأنباء". كان عمّي يُحْضر صحيفة حزب ميام "المرصاد". صحيفة "الاتّحاد" (الناطقة باسم الحزب الشيوعيّ الإسرائيليّ) كانت تصل للقرية بعدما أتى إلى قريتنا معلّمون ناشطون في هذا الحزب. حتّى 'هعولام هزيه' كانت تصدر بالعربيّة لفترة ما. كلّها قرأتها وكنت على اطّلاع على المستجدّات مثل أبي تماماً، في مضمار السياسة وكذلك في الأحداث اليوميّة في الدولة والعالم. كان لدينا أيضًا مذياع (في القرية كان هنالك مذياعان أو ثلاثة، وكان أحدها لدينا نحن). أحببت الاستماع لكبار السنّ الذين أتوا وجلسوا، ولا سيّما في الشتاء، حول الموقد، على الفراش، الفِراش العربيّ. جلسوا وتحدثوا. استمعوا للمذياع، سردوا قصصاً وسمعتُ عن بعض الفضائح مراراً وتكراراً.

توفّي والدي، عام 1985 في سنّ التاسعة والخمسين، بسبب تلف في الكبد. لم يشرب الكحول البتّة. لقد دخّن بالأنبوب والتبغ وأحيانًا كان يُدخِل إلى فمه سيجارة دون أن يشعلها. لا شيء في نهج حياته هيّأنا لمرضه. لقد كان شخصًا محافظًا، اعتاد أن يصلّي خمس مرّات في اليوم وأن يصوم رمضان. لم يتمكّن من الحجّ إلى مكّة. بعد أن جرى توقيع اتّفاقيّة السلام مع إسرائيل ومصر، استَصدر جوازَ سفر مصريًا لكي يسافر إلى مصر، وقد خطّط أيضًا للذهاب إلى الحجّ، لكنّه لم يتمكّن من ذلك. جواز سفره بقي نظيفًا، خِلْوًا من أيّ توقيع.

بعد سنة من وفاته ورثنا أرضه. للبنات كان نصيب منها كذلك، لا للأولاد فقط. قسمها بيننا بالتساوي، وهو ما كان غير مقبول وَفق العادات والتقاليد. لقد

كنت معلّمًا في ذاك الوقت، وأخي عصام كان مسؤول ضريبة الدخل. لكلّ واحد منّا كانت سيّارة وراتبٌ يعيله. قال والدي: "الآن يمكنني أن أموت بسلام؛ أنا أرى أنّ وضعكم الاقتصادي جيّد". هو طلب منّا أن نساعد أخانا الصغير الذي سيبقى في البيت. أوصاني قائلًا: "لا تكن مختاراً من بعدي". للأسف لم أحقّق مطلب أبي، إذ أصبحت مختاراً بسبب ضغط سكّان القرية الذين أرادوا أن أتابع طريقه. كان لموته بالغ الأثر علينا جميعًا، لأنّه كان صغير السنّ، ولأنّه كان المحورَ المركزيّ لدى العائلة وللبلد. لقد أحسست بمدى ثقل المسؤوليّة التي أُلقِيتْ على عاتقي.

في نادي حزب مبام، الذي كان خالي محمود مسؤول عنه، كانت مكتبة صغيرة، كل من أراد استطاع الدخول والقراءة. كنت أحب القراءة كثيراً، وكنت أزور المكتبة كثيراً. ورثت حبي للقراءة من والدي. كانت في بيتنا مكتبة صغيرة وأحب والدي القراءة. كان لدينا كتاب سر النكبة، لمحمد نمر الهوّاري من الناصرة، والذي أصبح فيما بعد قاضيًا؛ قرأته حينما كنت صغيراً، لكنني لم أفهم مغزاه بالنسبة لحياتنا. صدر هذا الكتاب عام 1950، وتناول أحداث 1948 من وجهة نظر الفلسطينيين، وتضمن انتقادات على قيادات الدول العربيّة التي تخلت عنا. وكانت فيه قصص عن طرد السكان من قراهم وصوّر بالأسود والأبيض نقشت في ذاكرتي. صوّر قوافل لاجئين يحملون متاعًا ثقيلًا بعد طردهم من قراهم.

كان والدي فاخر كثيراً بمعرفته اللغة الإنكليزيّة، التي اكتسبها من ثانوية النجاح في نابلس. كانت يتحدث الإنكليزية بطلاقة، لكنه لم يتعلم اللغة العربيّة. كان لديه كتبًا باللغة الإنكليزيّة، كتب تعليم من المدرسة. في سنوات الستينيات بدأت تصلنا كتب من الدول العربيّة، فكان والدي يشتري كلما سنحت له الفرصة. كان يقرأ الصحف بشكل شبه يوميّ. بداية كان يقرأ الأيام، وهي صحيفة رسمية بالعربيّة أصدرتها المؤسسة الإسرائيليّة، ثم صحيفة الأنباء. خالي كان يحضر صحيفة مبام المرصاد، وصحيفة التحاد الشيوعيّة التي

بدأت تصل القرية بعد أن تم طرد نشطاء الحزب الشيوعيّ من المعلمين إلى القرية. حتى صحيفة "هعولام هزيه" بالعبريّة كان تصلنا احيانًا. كنت أقرأها جميعها وأنقل لوالدي ما جاء فيها عن السياسة والأحداث اليوميّة في البلاد والعالم. كان لدينا مذياع. في تلك الفترة كان في القرية كلها جهازين أو ثلاثة فقط، واحد منها كنا عندنا. كنت أحب الاستماع إلى كبار السّن عندنا كانوا يأتون إلينا، وخاصة في الشتاء، حيث كانوا يجلسون على الفراش قرب النار ويتبادلون الحديث. كانوا يستمعون للمذياع، ويروون القصص والنكت.

توفي والدي عام 1985 عن عمر خمسة وتسعين سنة، بمرض التليف الكبديّ. لم يشرب والدي الكحول أبدًا. كان يدخن الغليون والتبغ، وأحيانًا كان يضع في فمه سيجارة لم يشعلها. لم يكن أمرًا في أسلوب حياته ينذرنا بمرضه. كان والدي شخصًا تقليديًا، يصلي خمس مرات في اليوم ويصوم شهر رمضان. لم يتنسى له الحج إلى مكة. بعد توقيع اتفاقية السلام مع مصر استصدر جواز سفر للسفر إلى مصر، وكان يخطط لتأدية فريضة الحج، لكن لم يتسنى له. بقي جواز السفر نظيفًا بدون أي ختم.

قبل وفاته بسنة أورثنا أرضه، لبناته أيضًا وليس للأولاد فقط. قسّم الأرض بالتساوي بيننا، الأمر الذي لم يكن مقبولًا وفق العادات والتقاليد. كنت في حينه معلمًا، وشقيقي عصام كان موظفًا في دائرة الضريبة. كل واحد كانت لديه سيارة وراتبًا يعيله. قال والدي: الآن أستطيع أن أموت مطمئنًا، فوضعكم الاقتصاديّ جيد. طلب منا أن نساعد شقيقنا الأصغر. قال لي: لا تكن مختارًا من بعدي. للأسف لم أنفّذ وصيّته، وأصبحت مختارًا بسبب ضغوطان سكان القرية، الذين أرادوا أن أواصل دربه. موته كان فاجعة لنا، لأنه كان صغير السن، وكان المحور الرئيسيّ في العائلة وفي القرية. شعرت بثقل المسؤولية الملقاة على عاتقي.

برطعة

وُلِدتُ في برطعة ولم أسكن في مكان آخر غيرها قطّ، كما أنّ أبنائي وأحفادي وُلِدوا فيها أيضًا، وآمُل أن أبقى فيها وألّا أتركها حتّى نهاية عمري. كنت مختارًا ابن مختار، ومن ثَمّ رئيسًا للمجلس في برطعة. لقد أُجرِيَتْ معي مقابلات عديدة من قِبَل أولئك الذين أرادوا أن يوثّقوا الواقع غير الاعتياديّ في برطعة، وقد توجّهوا إليّ لكوني مصدرًا للمعرفة، ولا سيّما في الأحداث والحكايات التي حصلت في قريتي. والآن سوف أتحدّث عن قريتي برطعة كما هي في ذاكرتي ومعرفتي، ووَفق الواقع الذي أحياه أنا فيها، ووَفق ما حدّثني والدي وكذلك كبار السنّ من أبناء قريتي برطعة. سَوف أروي كلّ هذا من خلال تناولي لحياتي التي أحياها يوميًا، ومِن خلال ما مرَّ بي فيها إبّان ستّين عامًا.

يُطْلَق على المنطقة التي تقع فيها قرية برطعة منطقة الخطّاف. من الناحية الجغرافيّة، تمتدّ هذه المنطقة من قرية يعبد ومدينة أمّ الفحم شمالًا، حتّى باقة الغربيّة جنوبًا، وتبلغ مساحتها نحو أربعين كيلومترًا مربّعًا. يقال إنّ تسمية الخطّاف مشتقّة من الجذر "خ.ط.ف"، وذلك لأنّ برطعة كانت ذاتَ مرّة عبارة عن غابات، وفي هذه الغابات عاشت حيوانات مفترسة عديدة اعتادت أن تخطف الماعز والخراف من بين القطعان. في أيّامنا هذه، لم يتبقّ من هذه الغابات سوى غابة العمرة وغابة الريحان وتقع إلى الشرق من قرية برطعة. أثناء الحكم العثمانيّ، قُطِعت معظم أشجار تلك الغابات؛ وذلك أنّ السلطات آنذاك استخدمت الأشجار في سبيل إنشاء سكّة الحديد الحجازيّة التي كانت تُفضي إلى مكّة المكرّمة. كذلك قُطعت أشجار الغابات أثناء الحرب عام 1948 وبعد الحرب، عندما نَزَح اللاجئون الذين أُخرِجوا من ديارهِم إلى الغابات، وشرعوا يقطعون الأشجار لصناعة الفحم المحلّيّ لِكسب لقمة العيش والبقاء على قيد الحياة. كلّ ذاك أدّى إلى تآكل شديد في الغابات إلى حدّ الاختفاء. ما زالت صناعة الفحم قائمة، وهي بالطبع تُسبّب تلوُّثًا للبيئة، وقد

أعرب الكثير من المواطنين عن استيائهم العارم من ذلك، ولا سيّما أولئك الذين يسكنون على ضفّتَيِ الخطّ الأخضر، وبخاصّة السكّان اليهود. غابة الريحان صودرت وأُعلِن عنها محميّةً طبيعيّة؛ ولذا لا يستطيع تجّار الفحم قطع أشجارها، فبقِيَ شاهداً على ما كان هنا ذات يوم.

تُحيط بقريتي برطعة مواقعُ أثريّة تشهد على التاريخ القديم للمنطقة وعلى ساكنيها. من أشهَر تلك الآثار تلّ الأسوار، الذي يبعد عن برطعة نحو سبعة كيلو مترات من الجهة الغربيّة، وذلك شمال كيبوتس بركاي. وهذه هي نقطة انطلاق معركة تحتمس الثالث عام 1458 ق.م.. في هذه النقطة بالتحديد حَشَدَ جيشه، وذلك قبل الغزو الموفّق على مَجِدّو، المدينة التي نجح في احتلالها بعد سبعة شهور من الحصار. وفي منطقة برطعة أيضًا اتّخذ بيبرس قاعدة عسكريّة له ولجيشه؛ وذلك عندما حارب الصليبيّين. إلى الشرق من برطعة، بإمكاننا مشاهدة آثار تبقّت من مستوطنة كبيرة تعود للفترة البيزنطيّة. تبعد هذه الآثار البيزنطيّة ما يقارب ثلاثة كيلو مترات، في خربة الريحان. وإلى أيّامنا هذه، ما زالت هناك مبانٍ وشوارع تبلغ مساحتها نحو ثلاثين دونمًا. وجود كلّ هذا يُعْزى إلى الموقع الإستراتيجيّ؛ إذ إنّ منطقة برطعة هي مدخل وادي عارة الذّي كان يربط بين مركز البلاد وشمالها، والسبب الآخر هو وجود عين الماء التي استخدمها المحاربون في كلّ الحقبات والفترات. جفّت عين الماء، لشديد الأسف، وحالها في هذا كحال معظم الوِديان والينابيع في البلاد التي يجري ضخّ مياهها وإحالتها للجريان عَبر أنابيب المياه.

في الموقع الذي تقع فيه مستوطنة كتسير حاليًا، على بعد كيلومترين إلى الشرق من برطعة، وعلى علوّ 400 متر فوق سطح البحر، كانت هناك قرية تدعى "قصر الفيض"، وذلك على اسم عين الماء الكبيرة والغزيرة التي كانت هناك. جذبتْ قصر الفيض في العصور القديمة قبائلَ عديدة. يمكننا العثور على بقايا لبعض المباني الّتي بُنِيتْ باستخدام الحجارة البيزنطيّة الصغيرة

المدوّرة. أمّا منطقة الحوّاط، فهي منطقة خلّابة جدًا وتقع إلى الغرب من مستوطنة كتسير. يُعتقَد أنّه كان هناك ضريح. وكذلك الأمر في قرية زبيدة، الّتي تقع على بعد خمسة كيلومترات إلى الجنوب من برطعة، وهي في أيّامنا هذه فيما وراء الخطّ الأخضر، في الضفّة الغربيّة، ثمّة كانت آثار بيزنطيّة تشهد على وجود مستوطنة كبيرة هناك. وباختصار نحن في قلب منطقة تاريخيّة يسعى العديد من السكّان لاستكشافها بواسطة الحفر آملين في العثور على الذهب أو على اكتشافات أثريّة، ومن حين إلى آخر تُلقي الشرطة القبض على هؤلاء بتهمة الحفر غير القانونيّ. لم يبلغ أسماعي يومًا قَطّ أنّ هناك مَن عثر على ذهب في المنطقة، كما أنّني لا أعرف ما إذا كان الظنّ يمتّ إلى الحقيقة بِصلة، إلّا أنّ بعضهم يصرّون على مواصلة البحث ولذا يخرجون للحفر –ومَن مِنّا يعلم؟ ربّما كان الأمر صحيحًا!

عائلة كبها

بخصوص تاريخ القرية خلال فترة الانتداب والاسم "برطعة" واسم عائلة كبها، هناك عدة روايات. كنت أسمع في طفولتي أن عشيرة كبها جاءت إلى البلاد في القرن السادس من اليمن، بعد تدمير سد مأرب، الذي كان المصدر الأساسي للمياه لجميع سكان اليمن. أدى تدمير السد إلى هجرة جماعية نحو الشمال. في البداية إلى شبه الجزيرة العربية ومن هناك إلى مناطق أخرى مثل الخليل. لاحقا نزحت عشيرة كبها إلى ثلاث مناطق: منطقة يعبد، وغزة وقرية الطّرة شمال الأردن. اليوم لا توجد أية علاقة مع الجزء المتواجد في غزة بسبب انقطاعهم عن العائلة، بينما جرى الحفاظ على علاقات عائلية مع أهالي قرية الطّرة في الأردن.

المؤرخ بروفيسور مصطفى كبها من أم القطف، وهو من أفراد عائلة كبها، الذي بحث في تاريخ العائلة ووثقه، كان قد حدثني عن تاريخ العائلة:

تعود جذور العائلة إلى بلاد الحجاز في منطقة مدينة الطائف. هناك رواية أخرى تقول إن أصول العائلة من تهامة جنوب الحجاز، قريبًا من اليمن. اعتادت القبائل في تلك المنطقة إقامة تحالفات بغية الدفاع عن نفسها والسيطرة على المنطقة والموارد. ومن المعلوم أن عائلة كبها كانت مرتبطة بتحالف "سيف رفادة" والطائف مع غيرهم من القبائل. أول من وصل البلاد من عائلة كبها في القرن السابع كان محمد كبهاوي دعجان سيف رفادة، إشارة إلى انتمائه إلى ذلك الحلف. ولقد جاء مع جيوش الخليفة أبو بكر التي احتلت البلاد خلال الفتوحات الإسلاميّة، وسكن في جبل الخليل. وما زالت عائلته تسكن حتى اليوم في قرية يطا قرب الخليل واسمها عائلة دعجان.

في القرن السادس عشر، وبعد فترة وجيزة من احتلال البلاد من المماليك. عملت السلطات العثمانيّة على نقل مكان تلك القبائل بسب النزاعات بين التحالفات، التي زعزعت الأمن العام في المنطقة. قرر العثمانيون الفصل بين المعسكرات المتقاتلة التي عاشت في شبه الجزيرة العربية وفي الشرق الأوسط، قيس واليمن، خدمة لسياسة استعادة الأمن في الطرقات وتحسين ظروف معيشة السكان. اعتبرت عائلة كبها والتحالف الذي تنتمي إليه من القيسيين، وفي جبل الخليل كان يسكن جماعة من اليمن، لذلك قررت السلطات العثمانية نقل القيسيين شمالًا وتوطينهم في جبل الخطاف. لم تكن عملية ترانسفير فرضت على القبائل، بل عمليات انتقال طوعية بعد أن وعدوا بالحصول على أراضٍ ومساعدتهم على الاستقرار هناك. سند الملكيّة الممنوح لفرد من عائلة كبها عام 1528 في منطقة الخطاف، بعد عشر سنوات فقط من قدوم العثمانيون إلى البلاد، هو شهادة تاريخيّة على ذلك. سكن بعض أفراد عائلة كبها في كفر قليل بجانب طولكرم. غيرهم سكن في يعبد

وأقاموا لاحقًا قرى صغيرة. في بداية القرن السابع عشر أصبحت برطعة مركزًا لعائلة كبها. القرية كانت قائمة قبل ذلك، لكن عائلة كبها وصلت القرية في تلك الفترة، وبدأت بشراء المزيد من الأراضي في المنطقة وإقامة قرى جديدة في الجوار. حيث أقيمت سبع قرى كان سكانها من الفلاحين: بيدوس (عائلة بيادسة التي تعيش اليوم في باقة الغربيّة)؛ أم القطف التي سميت على اسم نبتة صحراوية، يعتقد أنهم أحضروها من بلاد الحجاز وصنعوا منها شجرة فاخرة للنجارة؛ خربة وادي عارة (حيث يقع اليوم كيبوتس برقائي)؛ طورا؛ عين السهلة؛ خور صقر؛ العريان. لجميع هذة القرى كان مختاراً واحداً حتى سنة 1927، شيخ الناحية، وفق التقسيم العثمانيّ الإداري.

بعد قدوم أبناء العائلة إلى يعبد شاركوا في الصراع بين عائلتي جرار وطوقان وعائلة عبد الهادي، وهو الصراع المعروف باسم "حرب الصفوف". دعم أبناء كبها عائلة عبد الهادي، وفي المقابل منحهم زعيم العائلة الذي كان يسكن خربة وادي عارة المزيد من الأراضي في المنطقة.

تقسم عائلة كبها إلى سبعة بطون. وفق بعض التقديرات تعد عائلة كبها اليوم نحو 28 ألف نسمة يحملون أسم العائلة، ونحو 14 ألف نسمة لا يحملون أسم العائلة لكنهم ينتمون إليها. أي أنها تعد نحو 42 ألف نسمة.

لم تحصر عائلة كبها الزواج ضمن العائلة، وهي ميزة رئيسية في العائلة، فلا توجد عائلة واحدة في منطقة المثلث لم ترتبط بعلاقات زواج من عائلة كبها. فنحن عائلة كبيرة ولا تخشى الانصهار أو التشتت. وهنالك عائلات ارتبط مع كبها بعلاقات زواج وأصبحت تعرف نفسها بأنها من عائلة كبها. وكانت عائلة

كبها أول من حطم طابو الزواج مع البدو أو المسيحيين. كما ارتبط بعض أفراد العائلة بعلاقات زواج من التركمان من عائلة بشناق التي سكنت في منطقة وادي الحوارث، ويسكن أحفادهم اليوم في قرية كفرقرع.

في الأردن وفي بعض بلدات الضفة الغربيّة يكتبون أسم العائلة بحرف "ق"، وذلك لأسباب تقنيّة وليست جوهريّة. الموظفون في الأردن الذين سجلوا أسماء السكان استخدموا الحرف "ق"، بينما استخدم الموظف الإسرائيليّ المسؤول عن تسجيل السكان بعد العام 1948 الحرف "ك".

المياه والبساتين

على مر العصور، وخاصة في المناطق التي تعاني شحة الأمطار، هنا أيضًا استوطن السكان بجانب مصادر المياه. يروي كبار السن في برطعة عن نبع مياه كان مختفيًا بين الأشجار والنباتات بعيدًا عن الأنظار. في أحد الأيام شاهد أحد الرعاة قطرات مياه على فم عنزة فاستغرب من أين شربت. فكل شيء ناشف هنا. بدأ يبحث في أسفل التلة إلى أن وجد نبع المياه، فأخبر أقاربه وأصدقائه الذي قاموا بتنظيف المنطقة، وإزالة الأعشاب لتخرج المياه الصافية. قاموا بحفر قناة لتصل المياه إلى مركز القرية. زرعوا البساتين الجميلة على جانبي القناة، أشجار الفاكهة وكروم العنب. أذكر أشجار الفاكهة هذه منذ طفولتي: البرتقال، والموز، والمشمش، والعنب الحلو، التي كنا نأكل منها في المواسم.

انتقل أفراد العائلة للسكن في محيط نبع المياه، وبدأوا يعملون في الزراعة. في البداية زرعوا الزيتون، لاحقًا أضافوا أشجار الفاكهة والمحاصيل الزراعيّة، الحواكير. كان كل واحد يزرع ما يأكل، يبيعون المحاصيل الزراعيّة ومنتجات الحليب في المدن القريبة، طولكرم، وجنين ونابلس، وفي المنطقة التي أطلق عليها منذ الانتداب الإنكليزي "المثلث". عاش سكان المنطقة في ظروف صعبة، فخرج بعض السكان للبحث عن مواقع أخرى قرب ينابيع المياه،

وسكنوا في "عزب" تطورت لاحقًا إلى قرى، مثل عين السهلة، وطورا، وخور صقر وأم القطف. وبقيت برطعة القرية المركزيّة.

في عام 1856 فرضت السلطات العثمانيّة ضريبة الأرض على الفلاحين. بغية التهرب من دفع الضرائب لجأ العديد منهم إلى تسجيل الأرض باسم عائلات غنية. ومثلما يحدث اليوم، وجدت تلك العائلات الغنية طرقًا للتهرب من دفع الضرائب، بينما رزح الفلاح الصغير تحت عبء الضرائب. أيضًا عائلة كبها سجلت بعض أراضيها على أسم عائلة عبد الهادي عبر اتفاق شفوي بدون عقد، وفقط بواسطة المصافحة. بعد عدة سنوات استعادت عائلة كبها ملكيتها على تلك الأراضي، كما حصلت على أراضٍ أخرى من عائلة عبد الهادي مقابل الوقوف معهم ضد منافسيهم.

كنت قد قرأت شهادة قديمة عن المناظر الطبيعيّة، والغابة والأشخاص في برطعة في موسوعة "أريئيل"، اقتباسًا ليوئيل موشيه سلومون، الذي زار القرية عام 1878 لشراء الترنج. الوصف لا ينصفنا ولكنه مثير جدًا:

ضللنا الطريق إلى بستان بارطا [هكذا في الأصل]. فدخلنا غابة كثيفة الأشجار، أشجار البطم والبلوط التي ستكبر أغصانها وتنمو كبيرة جدًا [...] كم هو فظيع منظر هذه البلاد الحارّة. مكان لا زرع فيه ولا حصاد، صخور مخيفة حرقتها الشمس في طريق وعرة ملتوية مليئة بالحجارة، وحين بدأت الشمس تغيب تجلى أمامنا منظر بستان بارطا [...] من فتحة ضيقة دخلنا إلى البستان كثير الإهمال، لم تلمسه يد إنسان تقريبًا. استقبلنا الغرباء أصحاب بستان بارطا بالتحية وأكثروا من التحية. يلقون الرعب بقلب من لا يعرفهم، يشبهون الذئاب التي تطارد فريستها، وعيونهم تخترق القلب والكلى. (ي . م سلومون، يهودا والقدس أ، 15–19)

جرفت تلك البساتين في شتاء شديد الأمطار عام 1962، حيث جرف الفيضان الوادي ومعه البساتين. جف الوادي وامتلأت القناة بالقمامة التي يلقون بها من السوق الكبير الذي أقيم على ضفتي الوادي، ولم يعد أي ذكر لذلك المنظر الجميل الذي رافق طفولتي.

حكايات الوادي

يروي المسنون في القرية عن نبع المياه قصصاً تشبه الأساطير. في المنطقة كانت نمورًا أرعبت السكان. كان رعاة الماشية يخافون دخول المنطقة، وحتى أنهم عارضوا فكرة تطوير القرية وإقامة بيوت سكن دائمة. عندما كان يخرج الرعاة مع مواشيهم، كانت النمور تنتظرهم وتفترس الماعز وصغارها. ظل السكان عاجزون لا حول لهم ولا قوة. في ليلة ما قرر بعضهم، وما زال السكان يذكرونهم: الحاج أحمد إبراهيم، والحاج أسعد مصطفى، والحاج إسماعيل موسى وغيرهم – قرروا نصب كمين للنمور في الجبال. بعد انتظار طويل استطاعوا إصابة النمر الذكر وقتله، لكن النمرة قفزت على أحدهم وكسرت بندقيته. فزع الرجل وقفز من ارتفاع عشرة أمتار إلى الوادي ظانًا أنه نجا، لكن النمرة كانت أسرع منه، فقفزت هي الأخرى، ووصلت قبله، فهاجمته وهو يسقط. من حسن حظه أن النمرة كسرت قدمها لدى سقوطها، ولم تكن بكامل قواها، فنجح بالهروب منها. لم ييأس الرجال، فخرجوا في الليالي يتربصون بالنمرة، حتى نجحوا من قتلها. وظلوا يفاخرون بمغامراتهم وبطولاتهم، يكشفون للناس أثار أنياب النمرة على أجسادهم. هكذا جرى إنقاذ نبع المياه، والرعاة والماشية، وساد الهدوء في القرية. وظلت هذه الحكاية تنتقل بين أفراد العائلة من جيل إلى جيل، وكل يضيف عليها بعض التفاصيل، قصة يعرفها جميع أطفال القرية.

في سياق القصص والحكايات، أتذكر صديقي المرحوم يورام ميرون، حيث عملنا معًا في جبعات حبيبة سنوات عديدة، إلى أن رحل عنا فجأة بعمر صغير. قمنا يورام وأنا بالعديد من الأمور، وأحد تلك الأمور التي أفتخر بها،

جمع حكايات شعبية من منطقة وادي عارة. تنتشر في العالم والعربي، وعندنا أيضًا، تقاليد رواية الحكايات الشعبيّة التي تنتقل من جيل إلى جيل. تعود هذه التقاليد إلى حقيقة أن العديد من الناس لم يعرفوا القراءة والكتابة، فقاموا بنقل الحكيات شفهيًا؛ كما تعود إلى تقاليد تجمع الناس في الديوان والاستماع إلى حكايات كبار السّن. في بداية التسعينيات خرجنا أنا ويورام ومعنا مسجّل كبير، وكاميرا وأوراقًا للكتابة. التقينا مع المسنين في المنطقة وحاولنا الاستماع إلى حكاياتهم، قبل أن يطغى التلفزيون والحياة العصريّة وينسى الناس هذه التقاليد الجميلة، وقبل أن تضيع هذه الحكايات وتفنى. كانت تلك فترة مثيرة. شعرت أنني أقوم بعمل هام للحفاظ على ثقافة محليّة وعلى تراثي وتراث أبناء شعبي. كان يورام شديد الحرص، فاهتم بكل كلمة. ترجمنا الحكايات إلى اللغة العبرية، وفي عام 1993 أصدرنا كتابًا ثنائيّ اللغة، كان الأول ضمن سلسلة أوسع، هو **حكايات الوادي**. يشمل الكتاب صور الرواة وشرحًا للمصطلحات والكلمات غير المفهومة للقرّاء العصريين. لاقى الكتاب نجاحًا كبيرًا وأنتشر بآلاف النسخ. وما زال العديد من المعلمين يستخدمونه حتى يومنا.

أنقل لكم من هذا الكتاب حكايتين عن أفراد من عائلتي من قرية برطعة. الحكاية الأولى سمعناها من عمي الحاج محفوظ الحاج أحمد كبها، أبو الوليد، والذي أذكره في الفصول القادمة، والذي كان هو وأسرته عزيزين على والدي. يتحدث الحاج محفوظ عن معجزات الشيخ محمود البرطعاوي، الذي سميت قريتنا على أسمه، وقبره موجود على قمة عالية تطل على القرية. تعبر الحكاية عن ثقة أهل القرية بالشيخ وقدرته على حمايتهم بواسطة المعجزات:

> يروي أهل القرية إنّه في جماعة من البلد قرّروا إنهم يسرقوا بقرات ختيارة، بيتها جنب قبر الشيخ البرطعاوي في خربة برطعة. وفعلًا، في نص الليل راحوا السّرّاقين الحراميّة لسرقة الخيتارة إم البقرات. لما وصلوا صيرة البقرات لقيوها محوّطة بالصّبر من كل الجهات.

حاولوا يفوتوا من كلّ مطرح وما قدروش، لأنها محوّطة بالصّبر. وفي الصباح أجو لمحلّ البقر وما وجدوش صبر ولا أثر للصّبر، فقالوا لصاحبة البقرات: "إحنا جينا الليلة عشان نسرق بقراتك، ولقينا الصّيرة محوّطة بالصّبر من كل النواحي". لما سمعت الختيارة هالحكي، فطّرتهم بالزّبدة والحليب وقالت لهم: إحنا في جوار الشيخ البرطعاوي، والله حامينا"[2].

يحكى عن الشيخ محمد أنه كان قائداً في جيوش صلاح الدين، وعمل كاستطلاعيّ. عندما انتصرت جيوش صلاح الدين على الصليبيين في المعارك كان يعود من موقعه راكضاً، يقفز بفرح وكان الناس يرددون "برطع الشيخ"، وهكذا لصق به لقب الشيخ البرطعاوي، وأصبح فيما بعد اسماً للقرية. قصة أخرى عن هذا الشيخ المحبوب يرويها الحاج محمد حسين رشيد كبها، أبو غسان، زوج خالتي أمنة، وأحد رواة القصص المعروفين والمحترمين في القرية. كان صديقاً لوالدي، ونحن نحترمه ونقدره هو وأسرته. وهكذا قال:

الدنيا كانت مطر والبرد كثير، ما شفناش زي هذا من قبل، ورواق عنزات الاخوة محمود ومحمد ولاد الحاج أحمد اللّي ساكنين بجوار الشيخ البرطعاوي صار يدلف. محمود خاف إنه بكرة يهيل عالعنزات، وسأل أخوه محمد: "شو رأيك، شو نعمل، الرواق بدلف وبكرة يهيل". قال له محمد: "فوتهن لمغارة الشيخ البرطعاوي". قال له محمود: "ول يا زلمة، وين نفوتهن للمغارة؟ المغارة مقدّسة وإلها حرمة، وطول عمرنا واحنا نخاف نفوت عليها إشي". قال له محمد: "هاي خراريف فاضية". محمود قام وفوّت العنزات للمغارة وراح ينام. والله صارت الدنيا نص ليل، والّا محمود داشع على أخوه محمد. محمد فز من النوم وقال له: "ولك شو صار؟" رد عليه

---

[2] **حكايات الوادي: حكايات شعبية مختارة من وادي عارة** [illegible] 1993 [illegible] 139-140.

محمود: "والله أنا نايم وبأمان الله، وإلّا زلمة لابس أبيض بقعد في، محمود، محمود!...". قلت: "نعم". قال: "قوم طلّع العنزات من المغارة". أول مرة، ثاني مرة، تعوّذت من الشيطان ورجعت ونمت. قام رجع مرة ثانية وقال: "طلّع عنزاتك وإلّا بردم المغارة عالعنزات". وأنا خيا جيت عندك إجر تقدم وإجر بتأخر، لإني خايف ما تصدقنيش". قال له محمد: "سمي وارجع نام. لا في شيخ ولا في شي". محمود رجع وصار يفكّر: "طيّب، أنا شفت ورأيت وسمعت..." وأجت في باله خراريف الختيارة عن الشيخ البرطعاوي، وقال: "والله لاطلّع العنزات". راح وطلّع العنزات، وأقسم بالله وقال: "ما طلّعت آخر عنزة، وإلّا سقف المغارة هايل وسد الباب". لمّن شاف هالشوفة، ركض لأخوه وقال له: تعال شوف". وقفوا الإخوة الثنين ومع بعض وتشاهدوا. ومن هذاك اليوم ولاد الحاج أحمد اللّي قاعدين جنب في خربة برطعة جنب قبر ومغارة الشيخ، بحافظوا على المغارة وبخرفوا الخرفية لولادهم وولاد ولادهم[3].

أحن إلى فترة الطفولة تلك، حين كنت أجلس مع كبار السّن، أستمع إلى أحاديثهم وقصصهم. كنت الطفل الوحيد في العائلة الذي سمحوا له بدخول الديوان مع والدي. لم أفهم كل شيء، لكن جدّي الحاج أحمد كان يجلسني إلى جانبه واستمع اليهم. عبر جمع تلك الحكايات، توثيقها ونشرها للقراءة والتعلم بين العرب واليهود أشعر أنني أعدت بذلك دينًا لجدي ولأبناء جيله.

البيت الكبير

عاش أهالي برطعة لعدة سنين في المُغر القريبة أو بيوت الطين. بيت الحجر الأول الذي بني هناك كان عام 1870، فوق مغارة استخدمت للماشية. حيث

[3] [illegible] J 130-133.

قام الأخوان إبراهيم ومحمد مدلج ببناء البيت أعالي الجبل، ليطل على الوادي. أطلق على البيت أسم البيت الكبير، كان يحيط به الحوش، وهو ساحة كبيرة جداً محاطة بجدار من الحجر لهدف الحماية. بني البيت الكبير من الحجارة والطين المخلوط بالقش، وغُطي السقف بالخشب وفوقه الطين. ما زال هذا البيت صامداً منذ أكثر من مائة وأربعين سنة. فلا مطر يتسرب، ولا الرياح تسقطه، ويلاحظ عليه آثار الزمن، لكنه ما زال صامداً هناك. شبابيك البيت الصغيرة على شكل أقواس وباب المدخل واسع. السقف مرتفع يقف على ثلاثة قناطر كبيرة حسب تقاليد البناء العربيّة. عاشت في هذا البيت عدة عائلات، ومن ضمنها عائلة جدّي. كما أسلفت، أذكر هذا البيت الكبير منذ الصغر، وكنت أقيم فيه كثيراً حين أزور جدّتي وجدّي. يطل البيت الكبير القائم على المنحدر الجنوبيّ نحو الشرق، إلى نبع المياه، وجنوباً إلى البساتين والوادي والجدول الجميل، وإلى الغرب حتى البحر المتوسط. مدخل البيت واسع كي يتيح لقطيع البقر الدخول. وكان باب خلفي صغير للطوارئ، وكان مغلقاً دائماً، وفي بعض الأحيان لاختصار الطريق كانوا يفتحونه ويخرجون منه. البيت كان من ثلاثة أقسام، القسم الأسفل التسوية، أو المصطبة، وهو معد للماشية وفيه معلف كبير، وهناك كان مكان للتخزين للمؤن، والذي بني من الطين داخل الجدران وكانوا يخزنون فيه حبوب القمح والشعير، أنواع الطعام، الزيت والفحم. في الطابق الثاني كانت غرفة معيشة كبيرة ومطبخ صغير. هناك كان ينام أفراد العائلة على فرشات توضع على الأرض كل ليلة وفي كل صباح توضع فوق بعضها بشكلها الملون بجانب الحائط. في هذا الطابق غرفتان داخليتان، واحدة لوالدي وفيها ولدت، والثانية لعمي محمد، الابن البكر. أما بقية الأخوة فقد غادروا البيت عند زواجهم. القسم الثالث من البيت هو ما يسمى العقدة، غرفة مع أقواس، هناك كان جدي ينام، وهناك يقرأ القرآن يومياً ويعقد جلساته مع السكان. في هذه الغرفة كان شباكاً يطل على كل ما يحدث في الخارج ومشاهدة كل من يقترب. كنا نسمي هذا الشباك منظرة، فمنهم كان بالإمكان رؤية كل شيء تقريباً. عندما كان عمري ثلاث أو أربع

سنوات كنت أنام هناك مع جدّي. هناك سمعت الكثير من القصص وتعلمت الكثير من أحاديث كبار السن، وبعد عدة سنوات استضفت هناك زعماء القرية.

بعد بناء البيت الأول، بدأ الناس يبنون بيوتهم بالقرب منه، من الجهة الغربية، بيوتاً أخرى من الصلصال والطين. فجاء المزيد من أفراد العائلة من عزبهم القريبة من القرية، وبدأت القرية تنمو. إضافة إلى الزراعة، اعتاش أهل القرية من صناعة الفحم، بجانب كل بيت كانت مشحرة. بعضهم أقام محلات لبيع الفحم في يافا وحيفا. لم تكن في القرية طرق معبدة، ولم تصل المياه إلى البيوت. كان الناس يجلبون المياه من النبع في الجرار، وفي عام 1910 حفرت أول قناة وكذلك بركة لتجميع المياه. كنا نسمي البركة "حنّانة"، وهي التسمية التي علقت ببرطعة أيضًا فكانت تسمى قرية وادي المية. فقط في عام 1924 قرر الإنكليز ترسيخ استخدام اسم برطعة كاسم رسميّ للقرية.

الانتداب البريطاني والثورة العربية

لم تحدث تغييرات تذكر في فترة الانتداب البريطانيّ. فظلت القرية نائية، وبعيدة ومهملة. بعيدة عن المراكز التجارية في المدن، ضعيفة اقتصاديًا وهامشية استراتجيًا. في القسم الشرقيّ من القرية، بالقرب من الحنّانة، في عام 1930 بني أول مسجد؛ أما المسجد في برطعة الشرقية فقد بني بعد عدة سنوات في عام 1960. الحدث الأهم وقع عام 1921، حين أقيمت أول مدرسة تحت السماء، تحت شجرة خروب كبيرة. تم تعيين أول معلم من قبل السكان وليس من قبل السلطات الانتدابية، وهو الشيخ سليم زيد من يعبد. بعد عدة سنين، وفي عام 1937 بني أول صف بمبادرة السكان وتمويلهم. كان الأمر استثنائيًا في تلك الفترة، مما دعا صحيفة فلسطين لتخصيص مقال يحكي عن إقامة مدرسة مستقلة في قرية صغيرة مثل برطعة، وبدون مساعدة

البريطانيين. تعلم في المدرسة الأطفال الذكور بالطبع. وعندما أراد البالغون مواصلة تعليمهم في المرحلة الثانوية، كانوا يسافرون إلى نابلس، ووصل بعضهم إلى مدرسة الجزار الدينية في عكا. وفقط في عام 1953، تم بناء صفيين آخرين، وفي عام 1978 استكمل بناء المدرسة. حول هذا الموضوع سوف أتحدث لاحقًا.

الثورة العربيّة (1936–1939) كانت حاضرة في برطعة أيضًا. فالغابات القريبة كانت ملجأ للثوار، وكان سكان القرية يزودوهم بالطعام ويوفرون لهم الملجأ. بعض شبان القرية انضموا إلى صفوف الثوار، وسقط بعضهم في المعارك. كان في الثورة فصيلًا من عائلة كبها، ومن هذه المنطقة كان ينطلق الثوار ويهاجمون المستوطنات اليهوديّة والجيش البريطانيّ. قبل ذلك، وفي تشرين أول 1935، خلال معركة بالقرب من يعبد، قامت قوة بريطانية كبيرة بقتل الشيخ عز الدين القسام، أحد قيادات الثورة العربيّة، ودفن في مقبرة الاستقلال في حيفا، وتخليدًا له أقيمت تنظيمات عسكريّة في قطاع غزة تحمل أسمه. قائد آخر كان قد زار برطعة ومكث فيها خلال الثورة العربيّة الكبرى في السنوات 1936–1939، هو فوزي القاقوجي الذي كان من قيادات الثورة وشخصيّة مؤثرة في تاريخ نكبة 1948.

في فترة الحرب العالميّة الثانية، أقام البريطانيون معسكرًا للجيش في غابة ريحان، ومعسكر آخر على بعد نحو عشرين كيلومترًا غربيّ برطعة، حيث تقع جبعات حبيبة اليوم. ربما بسبب وجود أهمية أمنية خاصة لهذه المنطقة. في تلك الفترة جرى التخطيط لأعمال تطوير من قبل السلطات البريطانية، حيث شقت الطرق وتم تنظيم إمدادات المياه إلى البيوت، لكن برطعة لم تحظى بهذا التطور. في عام 1947 دفع سكان القرية 30 ليرة فلسطينيّة للحكومة من أجل تطوير القرية، لكنهم لم يحصلوا على أي شيء بالمقابل: فبعد الحرب ترك البريطانيون البلاد وهم مدينون لأهل القرية.

1948 وتقسيم القرية

في حرب 1948 تمركزت قوات الجيش العراقيّ في منطقة المثلث. مقر القيادة برئاسة خليل القاسم كان في قرية عرعرة، وفي قرية برطعة كانت سرية عسكرية صغيرة. كما هو معلوم لم يشارك الجيش العراقي في المعارك تقريباً، وبعد اتفاقية الهدنة سحب قواته إلى الوراء. وهنا تبدأ قصة برطعة المعروفة والفريدة التي تميزها عن جميع القرى الأخرى في المنطقة.

برطعة كانت قرية صغيرة على ضفتي الوادي، وكان عدد سكانها نحو سبعمئة نسمة، وبسبب صغرها لم تظهر على خرائط المتفاوضين في رودوس خلال ترسيم الحدود بين إسرائيل والأردن. لم تكن هناك معارك كبيرة في منطقة وادي عارة، لذلك لم يتم ترسيم الحدود الجديدة وفق حالة الاحتلال والسيطرة على البلدات في المنطقة؛ كما تعلمت بعد عدة سنوات، فإن المتفاوضين في رودوس شاهدوا على الخارطة وادٍ واعتقدوا أنه مناسب كحد طبيعيّ ومريح لترسيم الحدود على الخارطة. هكذا تم ترسيم الخط الأخضر، بقلم أخضر ثخين الذي حدد مصير القرية ومصير أبناء عائلة كبها، وهكذا حصل الخط على تسميته الرسميّة. اسم برطعة لا يظهر في اتفاقيات الهدنة، وكأنها لم تكن قائمة.

هكذا أفاق سكان برطعة في الصباح ليجدوا أنه تم تقسيم القرية إلى شطرين، بدون تفسير. حتى تلك الفترة لم يكن هناك جدار بين القريتين على طرفي الوادي، وخلال فترة الانتداب البريطاني قام جنود الفيلق الأردني بحراسة القرية. والآن تم تقسيم القرية، قسم في الأردن وآخر في إسرائيل. جدّي الحاج أحمد بقي في إسرائيل مع ستة أولاد وبنتين، واثنين من أبنائه كانوا في الطرف الأردني. وهذا ما حدث مع العديد من العائلات الأخرى. لم يقبل السكان بهذا التقسيم القسريّ. في السنوات الأولى، وفي الفترة لم يكن هناك حدود بين

شطري القرية، تجاهل السكان الدوريّات العسكريّة الإسرائيليّة والأردنيّة، واستمروا بالتنقل من طرف إلى آخر، وقام الجنود بغض الطرف عنهم. حتى العام 1956 كان مختاراً واحداً للقريتين، هو عمي الحاج محفوظ، وكان يسمح له التنقل بحرية بين شقي القرية، وكان حلقة الوصل بين أفراد العائلة.

مثل غيرهم من العرب الذين كانوا تحت الحكم العسكريّ الإسرائيليّ بعد حرب 1948، حاول سكان برطعة البحث عن طرق البقاء والمعيشة، والتكيّف مع الوضع الجديد المفروض عليهم دون تدخل منهم ومن غير رغبتهم بالطبع. الأضرار الاقتصاديّة للحرب كانت قاسية جداً. فقدان الأرض بعد مصادرة معظمها دفع بالناس إلى البحث عن عمل آخر، وأدى إلى ارتفاع هائل بمعدلات البطالة. فرضت القيود على الخروج من القرية. العيادة والمدرسة الثانوية كانتا في قرية عارة، وهناك كانت محطة للحكم العسكريّ، ينبغي على الجميع التوجه إليها للحصول على تصريح للخروج من القرية من أجل العمل، أو زيارة الأقارب أو لأسباب صحيّة. لم تكن الطرق معبّدة، وفي الشتاء كانت الطريق على مسافة ثمانية كيلومترات من برطعة إلى عارة موحلة، وفي بعض الأحيان لم يكن بالإمكان قطعها سوى بواسطة التراكتورات. ذهب الأطفال إلى المدرسة سيراً على الأقدام، بينما لم يتمكن كبار السن والنساء من عبور الطريق.

فرض الحكم العسكريّ على جميع السكان العرب داخل حدود دولة إسرائيل بعد اتفاقية رودوس عام 1949، وألغي في شهر كانون الأول 1966 في فترة رئيس الحكومة ليفي إشكول. ومن السخرية أن الحكم العسكريّ استند قانونياً إلى أوامر الطوارئ التي فرضها الانتداب البريطانيّ على البلاد عام 1945، بغية محاربة التنظيمات اليهوديّة السريّة. من الناحية العملية، فإن الحكم العسكريّ المفروض على السكان العرب، يعني حظر التجول ليلاً، والاعتقالات الإداريّة، والمقاضاة أمام محاكم عسكريّة حتى لو كانت المخالفات

مدنية، وفرض الإغلاق ومنع التجول على القرية كلما رغب الجيش بذلك، والاضطرار اليوميّ للحصول على تصاريح من الحاكم العسكريّ لكل غرض، مثل السفر، العمل، البناء، الزراعة وغيرها. رغم حصولهم على المواطنة الإسرائيليّة وحق التصويت للكنيست، كان العرب على مدار 17 سنة يخضعون للحكم العسكريّ التعسفيّ، الأمر الذي أثر على المدى الطويل على علاقاتهم مع الدولة، وعلى شعورهم كمواطنين من الدرجة الثانية والثالثة، حتى بعد إلغائه.

رغم ذلك كان لموقع برطعة وتقسيمها أفضلية اقتصاديّة، حيث بدأ سكان من برطعة يعملون بالتهرب! في بداية الخمسينيات ساد في إسرائيل نظام التقشف. كان هناك نقص شديد بالمؤن وفرضت رقابة مشددة على المواد الغذائية والمنتجات. وبسبب النقص الحاد بالمنتجات في البلدات اليهوديّة والعربيّة، شكل تهريب البضائع من الأردن إلى إسرائيل مصدراً للرزق. عبر الوادي الفاصل بين القريتين كان يتم تهريب الأقمشة، والمعدات، والأدوات المنزليّة، والتبغ، والأغذية، الرز، والسكر، والزيت، والخضار، والفواكه وحتى الحيوانات. ليس فقط سكان برطعة، بل سكان المنطقة كلهم، العرب واليهود، كانوا يشترون تلك البضائع. عمليات التهريب كانت محفوفة بالمخاطر، وتم فرض عقوبات قاسية على من يقبض عليه. أحياناً كانت تحدث مشاجرات وأعمال عنف واعتداءات جسديّة. لكن الربح كان كبيراً، وبسبب قلة فرص الحصول على عمل شريف استمر السكان بعمليات التهريب. ويقال أن النساء من طرفي الوادي وخلال اللقاء قرب نبع المياه تبادلن البضائع أو نقلن الأخبار من طرف إلى طرف لتنسيق اللقاءات الليلة في الوادي. ضباط جيش من الطرفين استفادوا أحياناً من عمليات التهريب، وكان المهربون ينسقون معهم عملياتهم. كان يجري عبور البضائع والأشخاص عن طريق الوادي. وفي الليالي كان الأقرباء من الطرفين يتبادلون الزيارات. كانوا يأتون للزيارة، والحديث ونقل

الأخبار العائليّة، من ولد ومن مات، من تزوج ومن سافر إلى دول الخليج بحثًا عن عمل. وفي الأعياد كنا نلتقي في الوادي.

استمرت عمليات التهريب حتى 1976. عندما درست في الجامعة تعرّفت على البروفيسور يهوشفاط هركبي، الذي كان ضمن الوفد الإسرائيليّ في محادثات رودوس، وأخذته لزيارة برطعة. قال لي بصراحة أنهم لم يعلموا أنه كانت هنا قرية؛ كان الوادي واعتقدنا أنه حدًا طبيعيًا وسياسيًا مناسبًا. أحد كبار السن قال له: لو لم تقسّموا القرية، لكنا متنا من الجوع. وكان يقصد أنه بفضل تقسيم القرية استفاد السكان من عمليات التهريب.

أصحاب الأراضي استمروا في زراعتها، من أجل إطعام العائلة وللحفاظ عليها من المصادرة. العديد من أراضي القرية صودرت، وخاصة قرية خربة وادي عارة غربيّ برطعة، حيث يوجد اليوم كيبوتس برقائي؛ في عام 1948 تم طرد السكان، بعضهم من عائلة كبها، كما تمت مصادرة أراضٍ لعائلتي. في كل مرة أمر فيها من مفترق حرس الحدود، في طريقي إلى العمل في جبعات حبيبة، أنظر إلى المكان حيث وضعوا النصب التذكاريّ لحرس الحدود: هذه الأراضي كانت لوالدي ولأعمامي. وأيضًا جزء من الأراضي الزراعيّة لبرقائي ومعنيت كانت لعائلة كبها. بعد كل هذه السنين يبدوا أنني قبلت بالحقيقة أنني لن أستطيع إعادتها للعائلة، ولكن الأمر ما زال يؤلمني في كل مرة.

اللقاء الأول بين سكان برطعة الغربيّة وبرطعة الشرقيّة بعد تقسم القرية، كان عام 1954. في حينه سمح الضابط الأردني للسكان الالتقاء في الوادي بدون عبوره. اللقاء كان مؤثرًا، تصافح الأقارب، وتعانقوا وتحدثوا. انتقلت قصص هذا اللقاء بين السكان لسنين طويلة. كنت في حينه طفلًا صغيراً ولا أذكر اللقاء. لكنني أتذكّر الحادثة الأولى بين جنود الفيلق الأردنيّ والجنود الإسرائيليين، وإغلاق الحدود بأعقاب ذلك. لم يكن هناك جدار، لكن بسبب

الرقابة التي فرضها الجنود أصبح التقسيم ملموساً. كان ذلك في نهاية 1956، حين دعا الضابط الأردني أبو عبد الله سكان برطعة الشرقيّة للاحتفال بطرد غالب باشا، الضابط الإنكليزي الذي ترأس الفيلق الأردني، ثم أصبح قائد أركان الجيش الأردني. رغم أنه خدم النظام بإخلاص، إلا أن العديد اعتبروه رمزاً للحكم الإمبرياليّ البريطانيّ وفقدان السيطرة الأردنيّة الحقيقيّة على الجيش، فقام الملك حسين الشاب بطرده من الأردن استجابة للضغوطات الشديدة المطالبة بذلك. بعد الاحتفال، بدأ أبو عبد الله ورجاله الاقتراب من الحدود، وشاهدوا على الطرف الثاني سيارة جيب لحرس الحدود الإسرائيليّ فأطلقوا النار عليها، فاندلعت هناك معركة استمرت ثمانية ساعات، وصلت خلالها قوات أردنيّة إضافية كانت في يعبد. كان عمري ثلاث سنوات، ولكنني أذكر أصوات الرصاص وفرار السكان. أخذتني والدتي في حضنها وأسرعت مع غالبية سكان القرية إلى قرية عين السهلة المجاورة. انتهت المعركة بجريح واحد وبدون قتلى، لكنها أرعبت السكان الذين لم ينسوا بعد صدمة 1948. بعدها اتضح أن سيارة الجيب كانت تحرس موظفي الجمرك الإسرائيليّ الذين أرادوا مصادرة التبغ من برطعة الغربيّة، ولم يكن هناك سبباً فعلياً لإطلاق الرصاص.

خلال المعركة احتمى الجنود الإسرائيليون في المدرسة، فوقعت أضراراً كبيرة في المدرسة، قدرها السكان بنحو 1500 ليرة. لكن الجيش وافق على دفع 30 ليرة فقط، وهو مبلغ تافه، فرفض السكان قبوله. كعقاب للسكان، وربما انتقاماً منهم، أصدر الجيش أمر منع مطلق من العبور إلى الطرف الشرقيّ. أقام الفيلق الأردني الاستحكامات لجنوده على امتداد الوادي، وهكذا بدأت مرحلة جديدة في حياة القرية والعائلة. الإنفصال أصبح حقيقة واقعة، حتى أنه لم يسمح لزوجة المختار في الطرف الشرقيّ المشاركة بجنازة والدها في الطرف الغربيّ. هكذا تم الفصل بين العائلات بشكل نهائيّ، وفقد بعض السكان بيوتهم وأراضيهم وأملاكهم. أقيم في برطعة الغربيّة مسجداً جديداً بعد إغلاق الطريق

إلى المسجد في الطرف الشرقيّ، وأضطر سكان الطرف الشرقي إلى بناء مدرسة جديدة لأولادهم. خلال 11 سنة سادت عزلة مطلقة. رغم ذلك نجح أفراد العائلة من التواصل عبر قنوات بديلة: بواسطة الصرخات من جانبي الوادي، وكانوا يشاهدون الأعراس والجنازات من فوق سطوح المنازل، ونقل المهربون الأخبار العائليّة. البعض عمل على عبور الوادي سراً لزيارة أقاربهم، واعتبر الشبان التسلل مغامرة طالما لم يتم القبض عليهم. في حالات نادرة، بمناسبة الأفراح أو الحداد، سمح الضباط الأردنيون بالعبور، وأحياناً كانت الفتيات يعبرن بدون تصريح من طرف إلى آخر للزواج. لكن عندما توفي محمد أحمد كبها وهو شاب، توسلنا أمام الجنود الأردنيين السماح لوالدته حضور الجنازة، لكنهم رفضوا. وضعنا الجثمان أسفل الوادي وابتعدنا كي نسمح لها من إلقاء نظرة وداع أخيرة قبل دفنه، لكنهم لم يسمحوا لها بذلك. أذكر كيف شتم شبان القرية الجنود وصرخوا بوجوههم.

1956–1967: تغيُّرات وتطوُّرات اقتصاديّة

بدأت تغيُّرات وتطوّرات بطيئة تحدث في حياة قريتنا، وبخاصّة على الصعيد الاقتصاديّ، في مقابل تقدُّم قرى أخرى في المنطقة المحاذية للطريق الرئيسيّ والمستوطنات اليهوديّة على نحوٍ أسرع ممّا لدينا، حيث وُصلت تلك بشبكة الكهرباء والماء وطُوّرت فيها الزراعة بوسائل حديثة. وأُهمِلت قريتنا التي كانت بعيدة عنها، وقريبة إلى الحدود. أمّا النساء، فقد استمررن بنقل المياه من النبع وحمْلها في جِرار على رؤوسهنّ، أو بمساعدة الحيوانات. وأمّا الشباب، فقد خرجوا في مجموعات للعمل في المستوطنات اليهوديّة. في البداية، ذهبوا إلى أماكن عمل قريبة، ككروم العنب في زخرون يعكوف، على سبيل المثال. فيما بعد، توجّهوا إلى المدن الكبيرة للعمل فيها، وكانوا يقضون معظم الأسبوع هناك ضمن ظروف صعبة، وفي أماكن غير مؤهّلة مثل مواقع البناء والبساتين، ولا يعودون إلى منازلهم إلّا في نهاية الأسبوع. وغالباً لم يكن بمقدورهم دفع إيجار شقّة في المدينة، ولذلك اضطُرّوا إلى البحث عن بدائل؛ فغالباً كانوا ينامون

داخل المباني التي يعملون فيها. وبعضهم لم يكن لديهم تصاريح عمل، ولذلك كانوا مضطرّين خلال مكوثهم في المدينة إلى الاختباء من عيون الشرطة.

العمل خارج القرية حسّن الدخل المادّيّ لدى العائلات ذات الدخل القليل، مقارنة بمن يعملون داخل القرية. لقد صودرت العديد من أراضي القرية ابتغاء إنشاء معسكر تدريب للجيش الإسرائيليّ غرب القرية، وهو ما نتج عنه تقليل مساحة الأرض المتاحة للزراعة. كما خلّف النقص في المراعي بصماته على سكّان القرية، حيث أمرت السلطات الإسرائيليّة بالقضاء على قطعان الماشية بحجّة أنّ هذه القطعان تُلحِق الضرر بالأشجار، وقد كان في قرية برطعة نحو 15,000 من الماشية، وفي بداية الستّينيّات انخفض عددها إلى 500 فقط. قامت الزراعة في المقام الأوّل على عدد قليل جدًا من شجر الزيتون وعلى المحاصيل الصيفيّة، وهذا لم يكن كافيًا لكسب لقمة العيش، ممّا دفع الرجال أكثر فأكثر إلى العمل خارج القرية، ورُوفِقَ ذلك بإطلاق الحكومة برامج تدريب مهنيّة للعمّال، وبخاصّة في مجال التشييد والبناء، وأصبح الشبّان نقّاشين وبنّائين وحمّالين وعمّالًا بسطاء. استمرّ مستوى المعيشة في الارتفاع حتّى العام 1965، ثمّ أدّى الركود في البلاد إلى توقُّف تطوّر القرى. واقترحت الدولة وظائف للحدّ من البطالة، وهكذا حظينا بفرصة رصف الطريق بالحجارة من القرية إلى طريق وادي عارة الرئيسيّ.

في شطرَيِ القرية، كان الناس يقيمون حفلات الزفاف بالقرب من الحدود، وذلك من أجل مشاركة الفرحة مع كلّ أفراد العائلة. وفي الوقت الذي كان فيه يشدو المغنّي بأغاني مديح للعريس أو شخص ما من الجانب الأردنيّ، كان الجنود الأردنيّون يطلقون النار في الجوّ تعبيرًا عن فرحتهم. وعندما كنّا نعرض أفلام وزارة الإعلام، كنّا نحرص على أن يكون العرض على حائط بيت قريب من الحدود –هو بيت عمّي محمّد– حتّى يستمتع معنا كذلك سكّان الجانب الثاني.

وزارة الإعلام وفّرت لنا السينما لأول مرّة عام 1958. وقتذاك، لم يكن لدينا تلفزيونات ولا كهرباء. فأحيانًا كان يأتي إلينا شخص من الطيّبة بسيّارة جيب ومولّد كهربائيّ، ويختار لنا حائطًا مناسبًا لأحد المنازل ويعرض لنا فيلمًا سينمائيًا. كان يختار أفلامًا باللغة العربيّة، أفلامًا تلامس القلب، أفلامًا جميلة ورومانسيّة. في المعتاد، كان العرض يبدأ الساعة السابعة. كنّا ننطلق من الساعة الخامسة زُرافاتٍ زرافاتٍ من الأطفال لنَعبر الطريق الترابيّة المؤدّية إلى القرية وننتظر الجيب. وعند وصوله كنّا نركض خلفه مبتهجين. كان يأتي ببطء لأنّ الطريق وعرة ومليئة بالحجارة ونسرع لحجز أماكن جيّدة أمام "الشاشة". أذكر الفيلم الأوّل الذي عُرِض في القرية. تشاوَرَ الناس حول مكان العرض، وفي النهاية قرّروا عرضه على حائط كان قريبًا من الخطّ الأخضر، حائط أبيض كبير يبعد عشرين مترًا عن الحدود. انضمّ ما يقارب جميع سكّان برطعة إلى هذا الحدث الاحتفاليّ. وكان الفيلم باللغة العربيّة عن قصّة عنتر وعبلة. سكّان برطعة الشرقيّة أيضًا كانوا يجلسون في الجانب الثاني من الحدث الاحتفاليّ الاستثنائيّ. وفي نهاية الفيلم، عندما انتصر البطل على الجميع، صفّق كذلك سكّان الجانب الثاني لانتصاره، ونحن شعرنا بهم. حتّى كبار السنّ عرفوهم من أصواتهم. وأخذ الجنود الأردنيّون المرابطون في برطعة الشرقيّة يطلقون النار في الهواء ابتهاجًا.

على وجه العموم، كان الجنود الأردنيّون حاضرين في حياتنا أكثر من الجنود الاسرائيليّين الذين لم يكونوا في القرية على نحوٍ دائم. نحن نتحدّث عن مجموعة مكوّنة من أربعة إلى خمسة جنود فقط يحرسون الحدود. أغلبهم كانوا فلسطينيّين (وعلى ما أذكر، كان أحدهم من قريتنا). أمّا ضبّاطهم وقادتهم، فكانوا يأتون إلى المكان فيما ندر. أحيانًا كانوا يعتقلون شبّاننا الذين يخرجون للتنزّه أو اللعب ويجتازون بالمصادفة خطّ الحدود الذي لم يكن دائمًا محدّدًا بصورة واضحة، وبذل والدي كلّ جهده لتحريرهم. كان في القرية الكثير من هذه الحالات. كانت الحدود غير واضحة في وعي الناس لأعوام طويلة.

ومع ذلك، بدأ الطرفان بالانفصال الاقتصاديّ والاجتماعيّ عبْر أشكال مختلفة أسهمت في حدوث هذا الانفصال. فقد سافر الكثير من أبناء الجانب الشرقيّ إلى دول الخليج أو إلى أوروبّا للعمل هناك. على سبيل المثال، ذهبت مجموعة مكوّنة من ثلاثين رجلًا إلى ألمانيا، عاد أغلبهم في السبعينيّات، وبعضهم ذهبوا بعد ذلك إلى الجانب الآخر من الأردنّ، وكانوا يرسلون المال لعائلاتهم ويأتون لزيارتهم في الصيف. كذلك إنّ الكثيرين من الجانب الشرقيّ ذهبوا إلى الأردنّ للعمل هناك، وقد حظيت القرية بمساعدة الحكومة الأردنيّة، حيث وُصلت القرية بشبكة الهواتف، وأُنشئت مدرسة جديدة ومركز شرطة محلّيّ. في عام 1965، شُقّت طريق جديدة ربطت القرية ببلدة يعبد، ومن ثَمّ بجنين ونابلس، وتَحَسَّن الوضع الاقتصاديّ هناك. فضلًا عن هذا، أُنشِئت شركة حافلات لخدمة السكّان والطلّاب استطاعوا من خلالها إكمال الدراسة في مدينة جنين. وقد أُطلق على شركة الحافلات "شركة الخطوط الأماميّة"، تلميحًا إلى نّية الأردنيّين تطوير القرى القريبة من الحدود وعدم إهمالها.

سفيان كبها ابن عمّتي، والبروفيسور محمّد أمارة، قاما باستكشاف الهُويّات الاجتماعيّة والسياسيّة في شطرَيِ القرية. لخّصا هذه الفترة، التي سبقت توحيد القرية من جديد على النحو التالي: "في هذه الفترة انقسم شطرا القرية تمامًا، وشرع كلّ جزء يندمج في النظام الاجتماعيّ والاقتصاديّ المفروض عليه. التطوّر الاقتصاديّ في برطعة الغربيّة كان أكثر سرعة. في المقابل، لم تنفصل برطعة الشرقيّة عن واقعها الاجتماعيّ واندمجت فيه. كانت أكثر بساطة وأكثر سرعة وأمنًا".[4]

وخلال تلك الأعوام، حدثت تغيُّرات أيضًا في العالم العربيّ، إلّا أنّ متابعة الناس لوسائل الإعلام كانت محدودة جدًّا آنذاك، وكان لذلك تأثير علينا نحن أيضًا. كنّا نذهب مشيًا على الأقدام إلى القرى المجاورة التي كانت موصولة بالكهرباء، وفيها تلفزيونات، وبطريقة أو بأخرى كنّا نسمع ونعاين خطابات

[4] [illegible] **هُويّة مشطورة: تقسيم سياسيّ وانعكاسات اجتماعيّة في قرية مبتورة** [illegible] 1996 [illegible] .44 [illegible]

جمال عبد الناصر خلال بثّ العروض العسكريّة واحتفالات الثورة المصريّة، وهو ما غرس فينا الفخر والأمل والتعاطف معهم.

حزيران 1967 – اللقاء المتجدّد

الإعجاب بعبد الناصر أيقظ الأمل في انتصار عربيّ على إسرائيل عام 1967. العرب في إسرائيل الذين تابعوا خطابات الرئيس المصريّ الحماسيّة عشيّة الحرب، أملوا أن يحرّرهم من ربقة الحكم الإسرائيليّ، وأن يعودوا إلى حضن الأمّة العربيّة الكبيرة؛ لكن ما حدث –كما هو معروف– هو عكس ذلك تمامًا. وصُدم الناس. كنت آنذاك شابًا صغيرًا، ولا زلت أذكر الصدمة والخجل اللذين اجتاحا الجميع بعد هزيمة العرب الساحقة في الحرب، التي أُطلِق عليها بعد ذلك "النكسة". إنّني أذكر الناس المتجوّلين بين البيوت التي كانت فيها أجهزة الراديو؛ بعضهم كانوا يبكون ولا يصدّقون ويشكّكون في بثّ "صوت إسرائيل" للأخبار، إلى أن سمعوا عبد الناصر بنفسه وهو يعترف بالهزيمة.

لكن في برطعة حدث أمر مختلف؛ حُوِّل الحزن إلى فرح كبير. لم ينتظر السكّان إعلان وقف إطلاق النار أو تراخيص من أجل التنقُّل من جانب إلى آخر، بل سارعوا في الذهاب إلى الجزء الشرقيّ من القرية لرؤية أقاربهم الذين كانوا منقطعين عنهم أعوامًا طويلة، لمعانقتهم والاطمئنان عليهم، وبخاصّة الشبّان الذين خدموا في الجيش الأردنيّ وشاركوا في الحرب. أخٌ لم يعرف أخاه، وجدٌّ لم يعرف حفيده. عائلات توحدت من جديد، والمَشاهد كانت تقشعرّ لها الأبدان. أبناء يَرْوون بعضهم لبعض قصصهم، وطفقت النساء يبكين بحرقة عند التقائهنّ بأقاربهنّ وصديقاتهنّ. نسينا النتائج القاسية التي تولّدت من الحرب، وسعدنا بتوحُّد القرية من جديد.

لأكنْ صريحًا. في البداية كنّا نذهب إلى أقاربنا في الجانب الثاني ببعض من الغطرسة والكِبْر، وكأنّنا الجانب المنتصر، وكأنّنا نحن من احتلّهم؛ لكن هذه المشاعر لم تدم طويلًا، فكبرياؤهم الوطنيّ سرعان ما بدأ في الظهور، ولا سيّما

أنّهم هم كذلك عاشوا تحت احتلال حتّى عام 1967، وكانوا يخضعون لرقابة وقيود على التنظيم السياسيّ، لكن المملكة الأردنيّة منحتهم الجنسيّة. حظيَ الفلسطينيّون في الأردنّ بثقة السلطات وشاركوا في نظام الحكم الأردنيّ. كان الفلسطينيّون في الأردنّ منهم الوزراء ورؤساء الحكومة، كما خدموا في الجيش. لقد عاشوا في دولة لغتها عربيّة وتراثها عربيّ، وشعروا بأنّهم جزء منها. بينما نحن في إسرائيل عشنا تحت حكم عسكريّ حتّى عام 1966، وكنّا مستثنَيْن من الثقافة الرئيسيّة التي كانت غريبة بالنسبة لنا، ومن الحكم الذي لا يُشرك العرب في الوظائف الكبيرة وفي اتّخاذ القرارات. في الأعوام الماضية، منذ عام 1967 حتّى اليوم، اتّضح أنّنا تأثّرنا بهم كثيرًا، أكثرَ من تأثُّرهم بنا. جدّدنا علاقتنا بجذورنا العربيّة والفلسطينيّة. ومع ذلك، فهم لم يصبحوا إسرائيليّين – وإن كانت بطاقات الهُوّية الإسرائيليّة مرغوبًا فيها، وبخاصّة لأسباب اقتصاديّة ووظيفيّة.

في الأعوام الأولى، جرى محو الحدود وشبّاننا غالبًا ما يقضون وقتًا في مدن كطولكرم ونابلس وجنين؛ يذهبون هناك إلى السينما ويشترون صحفًا فلسطينيّة وكتبًا باللغة العربيّة نادرًا ما توافرت في إسرائيل. تسوّقنا في الأسواق الرخيصة هناك، وأكلنا في المطاعم الشعبيّة، وكان الكثير من اليهود يمشون في الإجازات في شوارع المدن الفلسطينيّة، ويستمتعون بشراء المنتجات الرخيصة الثمن وبالطعام اللذيذ والجوّ الشرقيّ الحقيقيّ.

كانت العلاقات بين سكّان شطرَيِ القرية تقوى وتَفْتر، وكان الزواج والمصاهرة إحدى هذه العلاقات، وكان الوعي القوميّ لدينا يزداد مع الأيّام. ورغم تفوُّقهم علينا سياسيًا وقوميًا، كنّا على الصعيد الاقتصاديّ في وضع أفضل من وضعهم. وبعد أعوام قليلة، وتحديدًا في عام 1971، كتب عنّا أحد سكّان برطعة الشرقيّة في صحيفة "النهضة" المحلّيّة: "من الناحية السياسيّة هم سطحيّون، ليس لديهم أيّ أساس جدّيّ لفهم ما يجري، وليس لديهم نظرة صحيحة للمستقبل. هم متأثّرون بالقشور الخارجيّة للشعب اليهوديّ؛ أخذوا من

المجتمع الحديث القشرة وتركوا المحتوى. لا علاقة عائليّة وثيقة بينهم. هم يغيّرون رأيهم وَفقًا للوضع، وليس لديهم مبادئ". وفي المقابل، كتب عن شبّاننا في القرية: "العلاقة العائليّة موجودة ووثيقة، فهي تتعلّق بالدين والتقليد. يوقّرون أكثر ويفكّرون في المستقبل. إنّهم أكثر قوميّةً وتعليمًا".

مهين –أليس كذلك؟

بعد ذلك فهمت أنّ هذه الصورة ليست مجرّد موضوع قوميّ في برطعة، بل ظاهرة واسعة شاملة؛ إذ على هذا النحو يرى الفلسطينيّون في الضفّة الغربيّة من بقوا تحت حكم إسرائيل. هكذا لخّص البروفيسور شريف كناعنة الصور السلبيّة المتبادلة، في بحثه عام 1976:

> في نظر الفلسطينيّين الذين في الأراضي العربيّة فإنّ الإسرائيليّين هم: ماديّون، أنانيّون ولديهم الكثير من المال. جميعهم عمّال بناء غير متعلّمين وغير متحضّرين، لا مبالين بالقضيّة الفلسطينيّة، فهم بعيدون كلّ البعد عنها بسبب قربهم من اليهود ودولة إسرائيل، غير مسؤولين، لا يُعتمد عليهم.
>
> وفي نظر الفلسطينيّين في إسرائيل، الفلسطينيّون في الأراضي العربيّة: لا يتمتّعون بالذكاء، غير منظّمين، يفتقرون إلى التنظيم، يرغبون في كسب المال، وبخلاء، ومن الصعب تصديقهم".[5]

هذه التصوّرات التنميطيّة ضعفت مع الوقت، وأتاحت مكانًا لعلاقة إيجابيّة واحترام متبادل، وخاصّة بعد "يوم الأرض" في آذار عام 1976، الذي كان تعبيرًا قوميًا للعرب في إسرائيل.

[5] [illegible] .44 J 1988 [illegible]

التأثير الدينيّ كان بارزًا بسبب التواصل الجغرافيّ مع الضفّة الغربيّة، حيث أخذت الكتب المقدّسة وسواها من الكتب في التدفّق في السبعينيّات إلى البلاد، وكذلك شرع الدعاة يَفِدون إلى المساجد. وكذلك دخلت صحف وموادّ إعلاميّة للإخوان المسلمين، وأصبح في الامكان الخروج والسفر للدراسة في الكلّيّات الإسلاميّة في المناطق المجاورة، وتلك أمور كنّا منقطعين عنها لمدّة تسعة عشر عامًا. أسهم الأمر في ظهور مجموعة من قادة العمل الإسلاميّ داخل إسرائيل، كان أبرزهم الشيخ عبد الله نمر درويش من كفر قاسم، الذي كان من أوائل خرّيجي المدارس الدينيّة في نابلس، والذي نشر في أوائل السبعينيّات كتابًا عن الإسلام نادى من خلاله بالعودة إلى الجذور. وبعد عَقد من الزمان، في أوائل الثمانينيّات أسّس الحركةَ الإسلاميّة في إسرائيل، التي ما زالت حتّى اليوم تنظيمًا سياسيًا رائدًا. بعد مرور مدّة من الزمن، انقسمت الحركة على نفسها، ويُعزى ذلك إلى الجدل بشأن المشاركة في انتخابات الكنيست عام 1986 أو عدم المشاركة. "الفرع الشماليّ" للحركة، بقيادة الشيخ رائد صلاح الذي كان رئيس بلديّة أمّ الفحم، عارض تحوُّل الحركة إلى حزب في الكنيست الإسرائيليّ، إذ إنّ الأمر يستوجب من أعضائها أن يُقسموا يمين الولاء للدولة. ففضّلوا أن يُبقوها حركة اجتماعيّة دينيّة خارج البرلمان. أمّا "الفرع الجنوبيّ" – الذي يقوده الشيخ عبد الله نمر درويش– فكان يرى وجوب المشاركة في الحلبة السياسيّة لإحداث تأثير في مجريات الأحداث هناك.

في أعقاب عقد اتّفاق مع حكومة الأردنّ والسلطات الدينيّة هناك، أتيحت لأوّل مرّة في عام 1977 إمكانيّة سفر المسلمين الإسرائيليّين إلى مكّة المكرّمة لتأدية فريضة الحجّ –وكان لوزارة الشؤون الدينيّة فرع في القدس، الأمر الذي أتاح إجراء مفاوضات بينها وبين السلطات الإسرائيليّة–. أسهم هذا الأمر في سفر آلاف الحجّاج سنويًا. هذه الصحوة الإسلاميّة أخذت تزداد وتنحو مَناحيَ مختلفة وتتّخذ أشكالًا مختلفة، وبخاصّة مع اندلاع الثورة في إيران بعد ذلك بعامين، وما تركته من آثار على المنطقة. مظاهر كثيرة لهذه الصحوة الإسلاميّة تراها عند التنقّل بين القرى، حيث يمكن رؤية المساجد الكثيرة

الفخمة، وملاحظة أنّ غالبيّة النساء المسلمات في المثلّث يغطّين رؤوسهنّ بأغطية مخصوصة، وكذلك رؤية الرجال الملتحين يرتدون ملابس إسلاميّة تقليديّة. ابني الأوسط أحمد كبر وأصبح رجل دين. تلقّى دراسته في مدرسة دينيّة، والآن هو يدرّس القرآن وموضوع الدين الإسلاميّ. أنا فخور به جدًا وبنمط حياته الروحيّة المتواضع. أنا نفسي حججت إلى مكّة مع زوجتي عام 2006، وكانت تلك تجربة مثيرة جدًا لكلينا. صحيح أنّني قمت بأداء العمرة قبل ذلك؛ لكن أن تكون جزءًا من ثلاثة ملايين حاجّ من جميع أنحاء العالم تلك تجربة لا تُنسى. رغم الاختلافات في الأصل واللغات المختلفة، تشعر بأنّك جزء من كلٍّ عظيم وموحَّد. الجميع معًا، يرتدون الأبيض، يصلّون معًا ويؤدّون معًا الطقوس الدينيّة. ومع انتهاء الحجّ، ينتابك شعور بالارتياح والرضا عن أداء فريضة كبيرة ومهمّة جدًا.

كانت الأعوام التي أعقبت عام 1967 جيّدة على الصعيد الاقتصاديّ؛ فقد أُلغيَ الحكم العسكريّ قبل ذلك بنحو نصف عام، وهو ما وفّر إمكانيّات كثيرة للعمل في إسرائيل، دون تراخيص أو قيود. كما نشأ جيل من المهنيّين المتخصّصين وخاصّة في البناء، وبعضهم أصبحوا مقاولين عملوا على توظيف أيدٍ عاملة رخيصة من أراضي الضفّة الغربيّة. هنا ارتفع مستوى المعيشة وبُنِيت منازل جديدة وكبيرة، واقتُنِيتْ سيّارات خاصّة، واختلفت أنماط الاستهلاك. أصبحت الزراعة مصدرَ رزقٍ هامشيًا. طريق الإسفلت الذي يصل بين برطعة والطريق الرئيسيّ في وادي عارة، والذي عُبّد عام 1970، سهّل علينا كثيرًا ومكّن العمّال من العودة إلى منازلهم يوميًا، ولم يُضطّروا إلى البقاء طيلة الأسبوع في المدن الكبيرة التي يعملون فيها. هذه الطفرة الاقتصاديّة أدّت بالسكّان إلى المبادرة بمشاريع مجتمعيّة تساعد في تقدُّم القرية كلّها، ومن هذه المشاريع عام 1970 جرى ربط برطعة بشبكة المياه في مبادرة ذاتيّة من قبل السكّان دون أيّ مساعدة حكوميّة، وكذلك في عام 1981 وُصلت القرية أيضًا بالكهرباء بمبادرة من السكّان أيضًا، وفي العام 1985 عُبّدت طرق داخليّة على حساب السكّان أيضًا.

ومن الجدير بالذكر أنّه ليس فقط برطعة الغربيّة من نعمت بالازدهار، فسكّان الجزء الشرقيّ جميعهم منغمسون في سوق العمل الإسرائيليّ الذي أدّى بدوره إلى الانتعاش الاقتصاديّ هناك ورفع مستوى المعيشة.

برطعة في الانتفاضة الأولى 1987–1991

ومع اندلاع الانتفاضة الأولى، في كانون الأوّل عام 1987، وما خلّفته من آثار كارثيّة في الضفّة الغربيّة وقِطاع غزّة، انعكست آثارها سلبًا على اقتصاد القرى العربيّة منذ ذلك الحين إلى وقتنا الحاضر. فبعد عشرين عامًا على الاحتلال الاسرائيليّ لقِطاع غزّة والضفّة الغربيّة، انتفض الفلسطينيّون ضدّ وضعهم، مثلهم في ذلك كمثل الكثير من الشعوب في التاريخ التي أرادت التحرُّر وإقامة دولة مستقلّة. بدأت الانتفاضة بسبب حادث سير في غزّة، وما لبثت أن انتشرت انتشار النار في الهشيم. وبعد أكثر من خمسة وعشرين عامًا، ننظر إلى الأحداث بتقدير كبير لأبناء شعبنا؛ فهذه كانت انتفاضة جميع الفلسطينيّين شبابًا، ونساءً، وحتّى أطفالًا، تحدَّوا الجنود المسلّحين، وهم عُزّل من السلاح إلّا الحجارة. العديد استخدموا في حينه استعارة داوود وجالوت، لكن في هذه المرة إسرائيل كانت في دور جالوت. كانت هذه أيضًا انتفاضة اجتماعيّة داخليّة فلسطينيّة: قرى تواجه مدنًا؛ نساء يواجهن رجالًا. لم تحارب النساء الفلسطينيّات ضدّ إسرائيل فحسب، وإنّما كذلك في سبيل تحسين مكانتهنّ الاجتماعيّة ورغبتهنّ في المشاركة في النضال الوطنيّ والخروج إلى المجال العامّ. أشار أمارة وكبها في بحثهما الذي يتناول برطعة إلى أنّه كان للنساء دور مركزيّ في تلك الفترة؛ كنّ أعضاء في اللجنة الشعبيّة إلى جانب مسؤوليّتهنّ المنزليّة واقتصاد الأسرة. على حدّ تعبيرهما: "المرأة أصبحت أمّ الشهيد وأمّ الجريح وأمّ الأسير. وكثيرات منهنّ كنّ مراقِبات يتابعن تحرّكات الجيش [...] لقد انبثق أنموذج نسائيّ جديد. تآكلت القيم التقليديّة، وقامت النساء الفلسطينيّات بأدوار ووظائف لم يكن لهنّ فيها نصيب من قبل".[6]

[6] [illegible] J 61.

عندنا في برطعة كانت الانتفاضة واضحة، وكذلك أبناء عائلتنا من القسم الشرقيّ انضمّوا إليها بحماسة وشجاعة. لقد تغيّرت الحياة تمامًا. كلّ يوم كانت تقع اشتباكات بين الجيش الإسرائيليّ وشبّان يتظاهرون ويلوّحون بالأعلام الفلسطينيّة، وكلّما كان "الجيش" يدخل القرية كان يُستقبَل بزخّات من الحجارة. كانت سيّارات الجيب التابعة لحرس الحدود الإسرائيليّ تتمركز طَوال الوقت في الساحة الرئيسيّة، والتي من المفترض أن تفصل بين كلتا البرطعتين. أحيانًا كان الشبّان من برطعة الشرقيّة يبحثون عن مأوى لهم لدى أقاربهم في برطعة الغربيّة، هربًا من ملاحقة قوات حرس الحدود. أمّا نحن، فقد بدأنا نعاني من الغاز المسيل للدموع ومن التفتيشات والاقتحامات للمنازل. في برطعة الشرقيّة، حاولوا إقناعنا بالانضمام للتظاهرات، وكنّا نسمع النداءات من مساجدهم؛ إذ إنّ برطعة الشرقيّة لا تقع على محور الحركة الرئيسيّة أو بالقرب من تجمُّع يهوديّ، فمن الممكن الدخول، ولا سيّما أنّهم اعتادوا أن يأتوا إلينا ليلًا لرفع الأعلام الفلسطينيّة –وكان هذا العمل منافيًا للقانون الإسرائيليّ–. عناصر شرطة حرس الحدود الإسرائيليّ كانوا يضبطون أيّ شخص من عندنا، ويرغمونه على تسلُّق العمود الكهربائيّ أو اعتلاء سطح المنزل لإنزال العلم الفلسطينيّ.

نحن عانينا من كلا الطرفين: من الحجارة التي كانت تُلقى باتّجاه الجنود وتصيب –فيما تصيب– بيوتنا، ومن الغاز المسيل للدموع والذي يضرّ ويمسّ –على وجه الخصوص– الأطفال والنساء داخل البيوت. من أصعب ما كان يحدث أن يدخل الجيش الإسرائيليّ إلى برطعة الشرقيّة، ويفرض عليها حظر التجوال بحثًا عن الشبّان المطلوبين في ساعات الليل المتأخّرة. كنّا نغلق البيوت على أنفسنا، ونسمع إطلاق النار، ويبدأ الخوف يسيطر على الموقف ويزداد قلقنا أكثر فأكثر على حياتهم المهدَّدة بالخطر. وقد قمنا باستقبال مصابين بالعيادة الوحيدة لدينا، وأخفينا شبّانًا مطلوبين. وبسبب الإغلاق والحظر المفروضَيْن على الناس في الجانب الشرقيّ، مع عدم وجود إمكانيّة لمواصلة معيشتهم الطبيعيّة، قمنا بتقديم الطعام والكساء والدواء للمحتاجين

منهم. ذات مرّة اعتُقل بعض الشبّان وهم في طريقهم إلى تظاهرة للمطالبة بتقديم مساعدات لأخ لهم من الجانب الثاني. بعضهم تعرّضوا لعقوبات شديدة وليست عادلة. حسب ادّعاءات الشرطة الإسرائيليّة، كانت هذه العقوبات لردع الآخرين. كلّما كان يُعتقل أيّ منهم، كنّا نجمع المال للمحامين من أجل الإفراج عنه، وننظّم لهم زيارات في السجن، وحاولنا دعم عائلاتهم ريثما يُطلَق سراحهم. على مدخل الحيّ، بالقرب من مفترق قصير، نصب حرس الحدود حاجزًا لاعتقال سكّان برطعة الذين يخرجون للعمل كعقاب لدعمنا للانتفاضة. عانينا من هذا الحاجز كثيرًا.

كانت مَهَمّتنا الصعبة أن نخبر الشبّان في طرفنا بأنّ نضالنا مختلف عن نضالهم الشرعيّ، ولذلك يُحظَر علينا القيام بما تقومون به. نحن مواطنون لدينا حقوق في الدولة، ولذلك نضالنا داخلها يجب أن يكون في إطار القانون، بينما إخوتنا في الضفّة الغربيّة وقِطاع غزّة يناضلون من أجل رفع نير الاحتلال العسكريّ الإسرائيليّ عنهم، والحصول على الاستقلال. احتجنا إلى إقناعهم بالاستمرار في الذهاب إلى المدارس والمحافظة على الحياة الطبيعيّة، بينما في الطرف الآخر جرت الإضرابات والتظاهرات والاعتقالات، والحياة اليوميّة هناك تشوّشت نهائيًا، ولكن على الرغم من الوضع الصعب، أفلحتُ –بوصفي "مختارًا" للقرية– في الحفاظ على علاقة جيّدة مع قيادات الانتفاضة في الجانب الآخر. بمساعدتهم أقنعنا شبّاننا وأوضحنا لهم أنّ نضالنا كعرب فلسطينيّين نعيش في إسرائيل يختلف عن نضال إخوتنا الفلسطينيّين، وعلينا مساعدتهم في إطار القانون وفى إطار الحركات السياسيّة الفلسطينيّة الإسرائيليّة التي تمثّلنا. وهكذا أيضًا نجحتُ مع معلّمي المدارس أن نوضّح لطلّابنا نضالنا الشرعيّ وإقناعهم بألّا يتعاملوا بالعنف. ومن المسؤوليّات المعقّدة التي فرضتْها عليَّ وظيفتي كمدرّس لمادّة المدنيّات في مدرسة كفر قرع (منذ عام 1974) وكرجل مجتمع في برطعة، أن وضعتُ طرحًا ليكون نموذجًا كذلك للتجمّعات العربيّة الأخرى داخل إسرائيل، وقلت لطلّابنا: "الانتفاضة هي للشعب الفلسطينيّ الذي يحتجّ على الاحتلال بها. نحن مواطنون في دولة

إسرائيل، ولذلك ما نستطيع أن نقدّمه لهم هو المساعدة الإنسانيّة، وأن نشرح صراعهم ونضالهم للطرف اليهوديّ في كلّ لقاء ولقاء".

كان من الصعب –عليّ وعلى سائر المعلمّين والأهالي– أن نفسّر للطفل أنّ المكبّرات التي كانت تنادي في الطرف الآخر وتطالب بالإضراب ومواجهة الجنود الذين يدخلون برطعة الشرقيّة ليست لنا. ابني الصغير سألني: "لماذا لا أُضرِب مثل ابن عمّي الذي في الطرف الآخر، ولماذا لا أرشق الحجارة مثلهم"؟! أوضحنا للأطفال أنّ هذه ليست طريق نضالنا، وأنّ نضالنا هو بطرق قانونيّة، حسب تعليمات لجنة المتابعة وأعضاء الكنيست العرب، التي لم تطالبنا بانتفاضة ضدّ إسرائيل. وكذلك وضّحنا لهم موقف عرب إسرائيل من النكبة وحرب عام 48، واللاجئين في الدول العربيّة، وحدّثناهم عن رغبتنا في السلام، وإقامة دولتين تعيشان جنبًا إلى جنب، وأنّنا جزء من دولة إسرائيل، وعلى ما يبدو سنبقى فيها حتّى بعد أن يُبرَم اتّفاق سلام، ولذلك علينا التصرّف وَفق القانون. سعيد أنا بأن أقول إنّ هذه الطريق قُبلت تقريبًا في صفوف كلّ المواطنين العرب، وحافظ الأهالي على أولادهم بعدم الانسياق وتقليد أعمال أقاربهم في الضفة الغربيّة.

حاولنا المساعدة بقدر ما أمكنَنا؛ بالغذاء والأدوية، وبالزيارات للأسرى المحرَّرين، وكذلك بالاتّصال بالوسائل الإعلاميّة الإسرائيليّة للحديث عن إضرار الجنود الإسرائيليّين بمواطنين أبرياء من الجانب الآخر. أنا شخصيًا أجريت محادثات مع القيادة في برطعة الشرقيّة –فهم أقاربي وأصدقائي– وأبديت تقديرنا للكثير من نضالهم الذي يديرونه هناك، وأملنا بوضع حدّ للاحتلال وقيام دولة فلسطينيّة. إلى جانب ذلك، فسّرت وشرحت وأوضحت موقفنا، وعلى الأغلب قُبل بتفهُّم ووعي. نحن من جانبنا توقّفنا عن إحياء الحفلات المفاجئة، والناس كلٌّ يعتني بنفسه وبعائلته، ومن تلقاء أنفسنا لم نعد نتجوّل ليلًا، وهو ما يعني أن نفرض على أنفسنا إغلاقًا ذاتيًا، فالسكّان ما عادوا يخرجون مساء، وحافظوا على أطفالهم وشبّانهم، ولم يتجوّلوا في شوارع

الحيّ لئلّا يعتقلهم الجيش الإسرائيليّ، ولئلّا ينضمّوا ويلتحقوا بأصدقائهم في الجانب الآخر، الذين حاولوا مرّات عدّة دفعهم إلى رفع الأعلام أو كتابة شعارات على الجدران. ذات مرّة شاهدت الأطفال يلهون بلعبة "جنود وملثّمون"، بموجبها كان الأطفال في إحدى المجموعات يغطّي كلّ منهم وجهه بلثام، وأطفال المجموعة الثانية يمسكون "بسلاح" ارتجاليّ صُنع من قِطع الأخشاب، وكلّ من المجموعتين كانت تهتف بالأخرى، وكان يسمعهم ويشاهدهم مَن في الشارع.

نشر مركز الأبحاث في جبعات حبيبة في الفترة نفسها مقالًا بعنوان "الخطّ الأخضر – خطوط حمراء". المؤلّفان (صديقاي سارة أوستسكي ليزر، وأسعد غانم) يشرحان معضلتنا، والقرار الإستراتيجيّ للعرب الفلسطينيّين، مواطني إسرائيل، معضلتنا المتمثّلة في عدم القيام بأيّ نشاط عمليّ وفعليّ في الانتفاضة التي هي في الواقع جزء من النضال في سبيل التحرّر الوطنيّ للشعب الفلسطينيّ. وقد وصفا عبر هذا المقال كيفيّة تحوّل الخطّ الأخضر إبّان الانتفاضة إلى خطّ أحمر، وهذه المقولة تنسحب كذلك على برطعة. رغم أنّ الحدود الماديّة بين برطعة الشرقيّة وبرطعة الغربيّة لم تكن قائمة، فإنّه من ناحية نفسيّة وسياسيّة وواقعيّة كانت ثمّة تمايُزات؛ فالقرية قُسِمت مرّة أخرى، وأديرَ كلّ قسم وطرف على حِدة، وحاولا بكلّ قواهما الحفاظ على التوازن الدقيق القائم بينهما. من جهتنا، شرحنا لهم أنّنا نسير على خيط دقيق، وأنّ كلّ خطأ من شأنه أن يؤدّي إلى الوقوع في أزمة. لا شكّ أنّ النداءات المتكرّرة لعرفات ولقيادات الانتفاضة بعدم مشاركة العرب في إسرائيل في النضال المسلّح قد قوبلت بالتعاطف، وهي ساعدت قادتنا –أعضاء الكنيست ورؤساء السلطات المحلّيّة، وكذلك المعلّمين والقيادات المحلّيّة– في المطالبة بالدعم والتأييد دون تخطّي القانون، والاستمرار في المساعدة بتقديم الغذاء وبالمشاركة في التظاهرات والتحدّث عن النضال بالوسائل الإعلاميّة وأمام الجمهور الإسرائيليّ. أودّ أن أشير هنا إلى موقف صديقي هنري أوسبرچ، وهو يهوديّ أمريكيّ كان عضوًا في جمعيّة أصدقاء جبعات حبيبة في نيويورك. كان دائمًا

يقف إلى جانب معاناتنا، ولا سيّما معاناة أطفال برطعة الشرقيّة، واعتاد أن يرسل إليّ تبرُّعات ماليّة سخيّة للاهتمام بهؤلاء الأطفال الذين التقاهم هو شخصيًا، فضلًا عن إسهامه في مساعدة سكّان برطعة الغربيّة، ومساعدته لأبناء عائلتنا في الطرف الآخر للتغلّب على الأزمة الاقتصاديّة العميقة التي انتهوا إليها بسبب الانتفاضة.

هكذا اجتزنا سنوات الانتفاضة الأولى القاسية والسيّئة.

بوصفي مختارًا، حافظت قدر المستطاع على التوازن بين مصلحة سكّان برطعة الغربيّة والحاجة إلى الدعم الإنسانيّ والشخصيّ لسكّان برطعة الشرقيّة. الطريق كانت صعبة، ولكنّها حسب رأيي أنقذت بذلك برطعة الغربيّة من أن يكون لها إسهام ماديّ وعمليّ في الانتفاضة. ونتيجة الطريق الصعبة التي تحدّثت عنها، تعاظمت علاقتي بسكّان برطعة الشرقيّة بصورة عامّة وبقيادات الانتفاضة في القرية على وجه الخصوص. هذه العلاقة هي أيضًا علاقة عائليّة؛ فعندما كنت أتولّى منصب رئيس المجلس البلديّ في الفترة الواقعة بين عام 2006 وعام 2009، نجحت في إقناع السلطات الإسرائيليّة بتحريك جدار الفصل الذي بُنِيَ بدايةً عام 2000 بالقرب من حدود عام 67، حيث إنّني كنت رجل مجتمع معروفًا بعلاقاتي واتّصالاتي بوزراء الأمن ونوّابهم، مثل عمير بيرتس، وأفرايم سنيه، وإيهود براك، ومتان فيلنائي–، فأفلحت في إقناعهم أنّه من غير الممكن تقسيم القرية ثانيةً وعائلاتها التي توحّدت، ابتغاءَ إقامة "جدار برلين" وسطه.

"توحيد" متخيَّل

ومنذ تحريك الجدار بقيت برطعة الشرقيّة، بأراضيها الزراعيّة، كمقاطعة تتمتّع بالسيادة الفلسطينيّة داخل أراضي إسرائيل، وصُنّفت ضمن الأراضي B التي فيها السلطة الفلسطينيّة تتولّى مسؤوليّة إدارة شؤون المدنيّين وتتولّى إسرائيل مسؤوليّة القضايا العسكريّة والأمنيّة. شجّعت سكّان برطعة الشرقيّة ومواطنيها

على تطوير سوقهم، فتحوّل إلى أكبر سوق في البلاد مستقطباً إليه العرب من إسرائيل وكذلك اليهود. أدّى هذا السوق إلى ازدهار اقتصاديّ لم يسبق له مثيل في طرفَي القرية، ولكنّه لم يكن خِلواً من المشكلات. فقد تطوّر بطريقة غير مخطّطة، وذاك ما أفضى إلى معاناة كبيرة للكثير من السكّان، فهو يستجلب مئات السيّارات التي ليس لها مكان لإركانها فيه، ويلوّث ويضرّ بالبيئة، وهو غير نظيف، ومن الممكن أن نقول إنّه مزعج ويؤثّر جدّا على الحياة في شقَّي القرية. عليَّ أن أقول إنّني في هذا الصدد اضطُررت إلى مواجهة الكثير من الانتقادات الصعبة من جانب سكّان برطعة الغربيّة بفعل المشاكل التي تسبّبت السوق في وجودها، والكثير من السكّان قالوا إنّ الجدار سيعود ثانيةً ليقسم القرية.

علاوة على السوق، ثمّة مشاكل أخرى بين البرطعتين: المئات من تلاميذ المدارس هم من عائلات "مشتركة ومختلطة": الأمّ من برطعة الغربيّة وصاحبة هُويّة إسرائيليّة، والأب من برطعة الشرقيّة وليس له مواطَنة إسرائيليّة (منذ أن دخل حيّز التنفيذ "قانون المواطَنة – المؤقت" عام 2006، لم تمنح إسرائيل على الأغلب المواطَنة لمثل هؤلاء الآباء)، وحسب تقاليدنا المرأة تنتقل إلى بيت زوجها للسكن فيه، ولذا فالعائلات تسكن في برطعة الشرقيّة. لدى تلك العائلات، الأولاد يحقّ لهم حَمْل الجنسيّة الإسرائيليّة مثل أمّهاتهم، ولذا يأتون للتعلُّم عندنا في المدارس، وبما أنّ أهاليهم يدفعون الضرائب للمجلس وللدولة، فهم يتلقَّوْن كلّ الخدمات، وفي أحيان كثيرة يحتاجون إلى تعليم خاصّ، والنفقات كثيرة.

ثمّة سكّان أجانب ومواطنون من الضفّة الغربيّة لا يحملون تصاريح للمكوث في الأراضي الإسرائيليّة من كلّ مدن الضفّة الغربيّة، هؤلاء جاءوا للسكن في برطعة الشرقيّة حتّى يستطيعوا الدخول إلى إسرائيل والتحرّك بحرّيّة دون حواجز وجدران فاصلة، وهذا ما أثار تخوّفات وانتقادات لدى سكّاننا في الحيّ، مَرَدُّها أنّ أمن السكّان مُسَّ به ولحق به الضرر. من جهتي، كنت في كلّ

فرصة ألتقي فيها بالرئيس شمعون پيرس أُعربُ عن أملي أن تتحوّل برطعة إلى منطقة تجاريّة كبيرة يستفيد منها اليهود والعرب ويعملون فيها معًا، وأنّني شخصيًا أشجّع الكثير من اليهود من معارفي وأصدقائي لزيارة القرية والقيام بجولة شراء في السوق وتناول الطعام في المطاعم هناك، كما أنّني أستضيف العديد من الصحافيّين ومجموعات سياحيّة إلى برطعة وأشرح لهم كلّ ما بوسعي عن الوضع المعقّد الذي نعيشه.

بفضل عمل المجلس المحلّيّ في الطرف الآخر أضحت ثمّة علاقة شخصيّة، إذ إنّ من يترأّس اليوم المجلس في برطعة الشرقيّة هو أحد أقاربي، "غسّان كبها"، وهو من الناس الذين تحدّث معهم الكاتب دڤيد چروسمان عندما حاول فهم التعقيدات الكبيرة التي نعيشها هنا (محادثاته مع رجال برطعة الشرقيّة وبرطعة الغربيّة موثّقة في كتابَيْهِ: **الزمن الأصفر؛ الحاضرون الغائبون).** بودّي الإشارة إلى أنّ غسّان قائد محترم ومتمرّس ومدير رفيع المستوى في وزارة الشباب والرياضة الفلسطينيّة، وهو كذلك عضو في تنظيم فتح. وقد انتُخِب مع آخرين في قائمة واحدة وعملوا معًا لتطوير الحيّ على نحوٍ مدهش، حيث أنشأوا المدارس، وعبّدوا الطرق وطوّروا المكان، وأسسوا جمعيّة مسؤولة عن المياه والكهرباء في الجانب الشرقيّ. تعمل الجمعيّة على تجنيد موارد خارجيّة لصالح السكّان، وهي تعمل مع المجلس البلديّ بتآزر كامل.

برطعة تستهوي الكثير من علماء الاجتماع؛ وذلك لتاريخها الخاصّ ووضعها المختلف – مقسّمة، موحّدة، ومرّة أخرى مقسّمة، وموحّدة من جديد. ميري توتري، على سبيل المثال، بحثت في الفروق الثقافيّة والذهنيّة بين السكّان، وحدّدت أنّ "توحيد القرية جاء من ناحية مادّيّة، لا من النواحي الإداريّة والثقافيّة"، وأنّ " الإخلال في تجانس السكّان الناجم عن تقسيم القرية أدّى إلى تطوُّر مجتمعين منفصلين في شقَّيِ القرية وإلى تباعدهما. بعد توحيد القرية وإلغاء الحواجز بين شقّيها توضّحت الفروق الاجتماعيّة والثقافيّة"[7]. أنا شخصيًا

---

[7] [illegible] .1996

لا أوافق موافقة كاملة على تلك الاستنتاجات. أنا أقدّر الباحثين، لكن نحن تحديدًا نعيش يوميًا في القرية بكلّ تعقيداتها. عندما يأتي زوّار إلى القرية، آخذهم لرؤية منزل الطبيب الدكتور وليد حبايب، الذي يعود أصله إلى مدينة طولكرم. هذا المنزل يقع على خطّ "الحدود" بين برطعة الغربيّة وبرطعة الشرقيّة. عمل الدكتور حبايب عدّة سنوات في العيادة العامّة، وكان معروفًا في منطقتنا ومحبوبًا لدى السكّان، وفي عام 1982 أوقفت العيادة عمله وبالتالي لم يعد قادرًا أن يسكن ثانيةً في مناطق إسرائيليّة، فقام بشراء قطعة أرض صغيرة في برطعة الشرقيّة، تقع على الخطّ الحدوديّ تمامًا، فأنشأ الدكتور حبايب عليها منزلًا وفتح له بابين، أحدهما يتّجه إلى الجانب الشرقيّ، وعن طريقه يدخل المرضى من برطعة الشرقيّة، والباب الثاني يتّجه إلى الجانب الإسرائيليّ، ومنه يدخل المرضى من الحيّ الغربيّ.

وهذا دائمًا يذكّرني بكتاب إميل حبيبي "المتشائل" الذي يعبّر عن وضعنا بطريقة كتابيّة وقصصيّة جميلة ويطلق علينا صفة الهُجناء تلك- المتفائل والمتشائم معًا.

تلك هي بإيجازٍ قصّة هذا المكان المتفرّد؛ قريتي وبيتي برطعة.

طفولتي

كان لمعظم الأولاد في برطعة نظامٌ يوميّ متشابه تقريبًا: يخرجون في الصباح إلى المدرسة، ويعودون بعد الظهر، يتناولون طعامهم، يُعِدّون الدروس، يساعدون الأهل قليلًا وينطلقون للّعب قرب الوادي. لكن نظام يومي أنا كان مختلفًا بعض الشيء. كنت أرافق والدي في عمله طَوال ثلاثة أيّام في الأسبوع. منذ سنّ السادسة، مذ كنت في الصفّ الأوّل اعتُبرت "كبيرًا" وجديرًا بالمَهَمّة. أحيانًا رافقتنا شقيقتي روضة، وعندما كبر عصام كان يستبدلني من حين لآخر. سرّني أنّني قادر على مساعدة والدي وتفاخرت بذلك. كنت مسؤولًا أيضًا عن بقرتنا: كلّ يوم كنّا، أنا أو شقيقي، نأخذها للرعي في الحقول. مرّات عديدة ساعدْنا أيضًا والدتي وشقيقتي البكر لإحضار الماء من العين. كانت المياه تُستخدم للشرب وللطبخ، ولإسقاء بقرتنا، ولريّ الخضروات التي كانت الوالدة تزرعها في ساحة المنزل. حين كنّا صغارًا، كنّا نستحمّ مرّة واحدة في الأسبوع، أيّام السبت، عشيّة العودة إلى المدرسة أيّام الأحد.

كانت برطعة، مثل سائر قرى المنطقة في تلك الحقبة، أشبه "بفندق". فخلال الأسبوع كانت القرى تكاد تخلو من الرجال: فأيّام الأحد كانوا يخرجون للعمل في وسط البلاد، ويعودون أيّام الخميس. كنّا ننتظر نهاية الأسبوع بفارغ الصبر وبشوق عظيم. لم يعمل والدي في المدينة الكبرى، وكنت أحسد الأولاد الذين يعمل آباؤهم في تل أبيب ويُحْضرون لهم الهدايا كلّ أسبوع. لكنْ أعمامي وأخوالي وأبناؤهم كانوا يدلّلونني بين الحين والآخر بهدايا صغيرة.

الوادي الأخضر

"الخطّ الأخضر" اكتسب اسمه من التوقيع على اتّفاقيات رودوس عام 1949، حين قامت الأطراف برَسْم الحدود بين إسرائيل والأردنّ بقلم الحبر الأخضر، لكنّها كانت عندنا خضراء حقًا؛ فالمياه التي كانت تجري من العين وفي القناة التي حفرها السكّان جعلت ضفّتَي الوادي وكلّ المنطقة من حوله خضراء،

مليئة بأشجار الفواكه مثل التوت والليمون والبرتقال والخوخ والمشمش، وبالأعشاب البريّة والعلّيق والتوت البرّيّ، وبالأزهار والخضروات من جميع الأصناف. كان الوادي بمثابة مصدر رزق لكثيرين من سكّان القرية، لكن كان هنالك خطر يكمن فيه أيضًا. كان جاذبًا لكنّه كان مخيفًا أيضًا. تخوّفنا من اجتيازه، وكان أهلونا يحذّروننا دومًا لئلّا نتورّط مع الجنود، لكنّنا جميعًا كنّا تَوّاقين إلى معرفة ما يجري في الطرف الآخر من الوادي، وكنّا نتشوّق لملاقاة أبناء أعمامنا وأقاربنا القاطنين هناك. نحن الأولاد لم نكن نَفْقه تمامًا لماذا فُرِض علينا الانفصال عنهم، لكنّنا أحسسنا وعرفنا أنّ هذه الحدود، وإن لم يكن لها وجود ملموس، هي عبارة عن خطّ وهميّ يُحظر اجتيازه. أحيانًا لم يكن أمامنا بُدّ: فإن هربت بقرتنا إلى هناك، كنت أُضطرّ إلى إعادتها. أحيانًا كانت الكرة التي نلعب بها تتدحرج إلى الوادي، فنهبط متوجّسين للبحث عنها. بين الحين والحين، كنّا نسمع عن أحد ما ذهب إلى هناك بالخطأ، فأوقفه الجنود الأردنيّون. سمعنا حكايات أربكتنا وسحرتنا.

لم تكن للأولاد أماكن لهوٍ وتَلاقٍ؛ لا منشآت للّعب ولا ملاعب رياضيّة، ولذا كنّا نلعب في الطرقات، وخاصّة قرب الوادي. كنّا نحبّ اللعب بالكرة، بَيْدَ أنّ الكرة كانت شيئًا نادر الوجود في تلك الأيّام. وكانت كرة كهذه، كرة قدم بحقّ وحقيق، في نادي حزب "مپام". النادي أقامه عندنا في سنوات الخمسين سكّان كيبوتس "بركائي" المجاور. كانت لديهم بالتأكيد نوايا سياسيّة؛ فقبل الانتخابات كانت الأحزاب الصهيونيّة دومًا تغازل أصوات العرب. كان "مپام" حزبًا خارجًا عن المألوف، فاستوعب العرب في صفوفه كأعضاء عاديّين متساوين في الحقوق والواجبات ابتداء من عام 1954، وكان دومًا يُدْرِج عربيًا في مكان مضمون ضمن قائمة مرشّحيه للكنيست. صحيح أنّ سكّان كيبوتسات "هشومير هتسعير" استفادوا من أراضينا المصادَرة وفلحوها، لكنّهم عملوا الكثير لصالح الجيران العرب، بل كذلك أقاموا مؤسّسات لرفاهيتهم من شاكلة النوادي الاجتماعيّة داخل القرى، وأقاموا لاحقًا المركز اليهوديّ العربيّ للسلام في چڤعات حڤيڤا الذي يشرّفني أن أكون جزءًا منه منذ أربعة عقود وبضع سنين.

ونظرًا لكون عمّي محمود مسؤولًا عن النادي، كانت لي أفضليّة لآخذ الكرة أحيانًا للّعب بها مع أصدقائي. أحيانًا كنّا نجرؤ على اللعب قرب الوادي، فنرى الأولاد في الطرف الآخر ينظرون إلينا بغَيْرة وحسد. يومًا بعد يوم كان مزيد من الأولاد يتجمّعون هناك ويرقبوننا وكأنّهم يشاركون في اللعب من بعيد. في أحد أيّام الخميس بعد الظهر، وكنّا قد انطلقنا للّعب بعد الدراسة، اجتاز ولدان من برطعة الشرقيّة الواديَ وطلبا اللعب معنا. سُررنا بذلك، وسألناهما عن أحوالهما وأحوال أقاربنا القاطنين هناك، وكنّا مغتبطين لأنّه كانت لديهما الجرأة لاجتياز الحدود والانضمام إلينا؛ إذ إنّنا في الواقع أشفقنا عليهما قليلًا. وفجأة، وقبل أن نستوعب ما جرى، قذف أحدهما بالكرة باتّجاه صديقه الذي كان الأقرب من الوادي، وقام هذا بقذفها باتّجاه أصدقائهما في الطرف الآخر، ثمّ هربوا جميعًا وبحوزتهم كرتنا. لاحقًا تبيّن لنا أنّ الجنود الأردنيّين كانوا قد مكّنوا الأولاد من سرقة الكرة منّا.

كنت قلقًا جدًا من ردّ فعل عمّي، وبرفقة أصدقائي معًا بحثنا عن وسيلة للانتقام منهم. قرّرنا الإضرار بالقناة التي كانت توصل المياه إليهم من العين. أحد المعلّمين، ممّن جاءوا الينا من خارج القرية، أشار علينا بنصيحة لم نفهمها حينذاك ولم ندرك مغزاها، إذ قال لنا: حضِّروا قطعًا من الكرتون واكتبوا عليها عبارات مسيئة للملك حسين ومديحًا لعبد الناصر، فهذا سيُغضب الجنود الأردنيّين. نفّذنا المهمّتين بحماسة، إذ كتبنا عبارات بخطّ واضح على قطع الكرتون، وكذلك أغلقنا قناة المياه. خلال وقت قصير، بدأ سكّان من برطعة الشرقيّة يتجمّعون في المنطقة، جاءوا يستطلعون سبب انقطاع المياه في القناة، فشاهدوا الأضرار، وأدركوا أنّ هذا "من فِعْلنا"، وهكذا بدأ التراشق بالكلام، والشتائم والحجارة، وكذلك صدرت تهديدات باعتقالنا. وعندها جاء والدي، الذي كان قد أصبح مختارًا للقرية. غضب جدًا. ضربني ووبّخني بشدّة، وكانت هذه المرّة الأولى التي يعاقبني فيها والدي بهذا الشكل. شعرت بالمهانة في أعماق روحي، وردًا على ذلك ذهبت للنوم عند جدّتي والدة أمّي، لأوّل مرّة في حياتي. هذه العبْرة لم أنْسَها إطلاقًا.

التقسيم البنيويّ للقرية والفصل بين العائلات سبّب لنا المعاناة. وُلِدتُ أنا عام 1953 في جوف هذا الوضع، في داخل التقسيم والنزاع، وكان بيتي قرب الحدود تمامًا. لا شكّ في أنّ ذلك قد أثّر على مسار حياتي وعلى معتقداتي. منذ بداية وعيي حذّرتني والدتي من اجتياز الحدود، وقد كانت محفوفة بالمخاطر: فالمهرّبون الذين اجتازوها كان يُلقى القبض عليهم أحيانًا، كنّا نشاهدهم وهم يَعبرون قرب المنزل. أذكر بوضوح كيف هربنا ذات مرّة في اتّجاه عين السهلة إثر التراشق بالنيران بين الجانبين؛ بين الجنود الأردنيّين والإسرائيليّين. يومذاك طبعًا لم أفقه السبب، إذ لم أكن قد تجاوزت الثالثة من عمري، لكن الخوف من "الحدود" (الذي تحدّثت عنه والدتي طَوال الوقت) أصبح ملموسًا. يوم عرس عمّي محمّد، وكنتُ إذّاك في السابعة، كنت ألعب مع الأولاد. كان هناك جدار عالٍ من الحجارة تسلّقته، فانهار، فهوَيْت من أعلاه وانكسرت يدي. لم يكن في القرية طبيب، ولا خدمة طبّيّة ولا إسعاف، لكن كان في الطرف الآخر من الحدود شيخ "مجبّر"، وكان يجيد صنع الجبس من البيض والخشب. أخذني جنديّ أردنيّ بعد أن نقدته والدتي خمسة دنانير ليدفعها إلى ذلك الشيخ فجبّر يدي. آلمني التجبير وبكيت. وتبدو يدي حتّى اليوم عوجاء!

أعلام في يوم الاستقلال

المدرسة الابتدائيّة –وكانت هي المؤسّسة التعليميّة الوحيدة في القرية آنذاك– كانت في الطرف الغربيّ. كان يتعلّم فيها تلاميذ الصفوف من الأوّل حتّى الثامن، في خمس غرف للتعليم. الغرفة الأولى بناها السكّان بقواهم الذاتيّة عام 1936، وبمرور السنين أضيفت غرفة أخرى، لكن رغْم ذلك تعلّمنا كلّ صفين في غرفة واحدة. كنت تلميذًا جيّدًا، وقد أحبّني واستلطفني معظم المعلّمين الذين جاءوا من خارج القرية. كانت لي أيضًا صداقات أعانتني على تقضية تلك السنين بسهولة نسبية، رغم الحالة المادّيّة المنغّصة، والحاجة إلى الاستيقاظ مبكرًا ومساعدة والدي. قُصَيّ ابن عمّي –وكان يكبرني ببضع

سنوات– كان بالنسبة لي قدوة يُحتذى بها. كان تلميذًا مجتهدًا جدًا، أحبّ التعليم وأحرز التقدم. وبمرور الوقت أصبح مديرًا لمدرسة في يافا وانتقل إليها للعيش هناك، ولكنّه واظب على العودة إلى منزله في برطعة كلّ نهاية أسبوع تقريبًا. رافقني قُصَيّ طَوال حياتي، حتّى عند انتخابي رئيسًا للمجلس المحلّيّ. في صباي ساعدني في الدراسة، وعند بلوغي أيضًا أحببت التشاور معه في كلّ أمر. لاحقًا ارتبطنا بعلاقة مصاهرة مضاعفة: فشقيقي حسام اقترن بابنته سهير، وتزوّجت ابنتي ليلى من ابنه حسني، فأصبحنا على علاقة وثيقة. أحببته وأحببت حكمته في الحياة، وكذا طبعه الهادئ ومرحه الدائم. توفي قُصَيّ بالسرطان في سنّ الشباب، عام 2009، وما زلنا جميعًا نفتقده. ثمّة قريب آخر للعائلة ممّن أحببت وقدّرت في صباي، ذاك هو مازن ابن عمّي. كان مازن قويّ البنْية وطويل القامة، ذا جسم مكتنز، وكان يدافع عنّي أيّام المدرسة. ولأسفي توفّي هو كذلك في سنّ الشباب.

الحكاية التالية أُكثر من سردها في المحاضرات، وخاصّة إذا كان ضمن الجمهور أمريكيّون أو أوروبيّون لا يعرفون الواقع هنا ولا يُحسنون التمييز بين الفلسطينيّين في المناطق المحتلّة وبيننا، نحن العرب المقيمين في إسرائيل. الجميع يضحكون في النهاية، لكن يدركون أيضًا حقيقة الوضع العبثيّ الذي آلت إليه حياتنا، وكيف تؤثّر السياسات العليا على حياة الناس البسطاء.

في حقبة الحكم العسكريّ، كان يوم استقلال إسرائيل يُعتبر عيدًا كبيرًا، وكان يُتوقّع منّا أن نحتفل به بسرور. نُظّمت في المدارس احتفالات كان الغرض منها إثبات إخلاصنا للدولة. كان الحاكم العسكريّ اليهوديّ يطوف بين المدارس في منطقتنا متفحّصًا مَن الأكثر إخلاصًا، مَن الأكثر "فرحًا"، ومَن يُبدي تماثلًا مع الدولة الجديدة التي نحن مواطنوها. بالنسبة لنا، نحن الأولاد، كان هذا بالطبع مَبعثًا للابتهاج، لأنّنا كنّا عمليًا نتوقّف عن الدراسة قبل شهرين من الاحتفالات، فيُكرّس الوقت للتحضيرات. كنّا بالمجمل اثني عشر أو خمسة عشر تلميذًا في الصفّ. بعضنا كان ضمن جوقة تشكّلت بارتجال

خصّيصًا للمناسبة، وتعلّمنا كيف ننشد بالعبريّة والعربيّة أغانيَ تمتدح دولة إسرائيل. وكان ثمّة آخرون ينهمكون بتزيين المدرسة بالأعلام وبصور زعماء الدولة، وآخرون كانوا يَرْقبون المشهد ويتراكضون في الساحة، ويساعدون بشيءٍ ما أحيانًا. كان ذلك ممتعًا، ولم نَطرح قَطُّ أسئلة سياسيّة حول يوم الاستقلال.

عام 1962، عندما كنت في الصفّ الرابع، كان تلاميذ الصفّ الثامن –وهو المرحلة الصفّيّة الأعلى في مدرستنا– مسؤولين عن رفع العلم فوق سطح المدرسة في يوم الاستقلال. كان يُسمح لهم بالصعود فوق السطح، وكنّا نحن الصغار نرقبهم من الأسفل بعيون حاسدة. كان رفع علم الدولة شرفًا عظيمًا في نظرنا! أنهينا الدراسة في الساعة الثانية عشرة بعد الاحتفال، وذهبت بصحبة صديق للّعب كعادتنا قرب العين، التي كانت ملتقى اجتماعيًا للنساء وللأولاد كذلك. لعبنا هناك، وشربنا من المياه، وعندها شاهدنا في الطرف الآخر من العين ثلاثة جنود أردنيّين واقفين. نادَوْا علينا لنقترب، وتوقّعت أن يطلبوا منّي ثانية أن أشتري لهم سجائر من حوانيتنا، وأن يمنحوني بعد ذلك ما تبقّى من ثمن السجائر، لكنّهم سألونا من ذا الذي نصب علم إسرائيل فوق السطح، فأجبت بفخرٍ ظاهر: أنا. لم أكن أنا طبعًا من نصب العلَم، لكن ظننت أنّ هذه الإجابة ستعود عليّ بجائزة ما. وكانت مفاجأتي العظيمة أنّهم أوثقوني إلى شجرة وأوسعوني ضربًا، وألقوا علينا في هذا الاثناء محاضرة كاملة: هذا ليس علمكم، فما الذي يجعلكم ترفعونه؟ كانت هذه أوّل مرة أسمع فيها هذه الأقوال. وأردفوا قائلين إنّ "استقلال" إسرائيل هو عمليًا دمار للشعب الفلسطينيّ، واليهود هم أعداؤنا، بالإضافة إلى أمور أخرى لم أسمعها قبلًا، لا في المنزل ولا في المدرسة. طيلة الوقت كان المسؤولون يعزّزون لدينا الهُويّة الإسرائيليّة بواسطة مناهج التعليم، وبالطبع لم يتحدّث أهلونا معنا حول السياسة، ولم يفسّروا لنا قَطّ سبب تقسيم قريتنا، وسبب عبور الحدود في داخلها، وماهيّة الفرق بيننا وبين أبناء عمومتنا في الطرف الآخر.

في نهاية الأمر أطلق الجنود سراحنا، وعدنا أنا وأصدقائي إلى منازلنا خائفين متألّمين. في اليوم التالي، استدعانا الحاكم العسكريّ لإجراء محادثة. كان الرجل قد سمع عن الواقعة من الوشاة طبعاً، إذ لم يكن يخفى شيء عن الحكم العسكريّ الذي تغلغل في كلّ ركن من حياتنا. سألَنا عمّا تحدّثنا به مع الجنود الأردنيّين، وقام هو كذلك بضربنا وألقى علينا محاضرة عن دولة إسرائيل التي هي دولتنا، وعَلَمها هو علمنا، وليس لنا ما نبحث عنه لدى الجنود الأردنيّين بل يجب الابتعاد عنهم. وعندما سأل والدي الحاكم العسكريّ عن سبب ضربه للأولاد، أجابه: كي ينسَوْا ما قاله الجنديّ الأردنيّ لهم، وكيلا يكرّروا كلماته على مسمع أيّ من أصدقائهم.

فتحت هذه الواقعة عينيّ. كنت لا أزال ولداً فتياً لكنّني بدأت أطرح الأسئلة. لم يجرؤ أحد على أن يجيبني، لا والدي ولا الأعمام، ولا حتّى المعلّمون في مدرسة برطعة، ممّن كانوا من سكّانها. الوحيدون والأوائل الذين تكلّموا معنا بصراحة عن النكبة، وعمّا حدث في حرب عام 1948، كانوا أولئك المعلّمين الوافدين من خارج القرية، وبخاصّة من الطيّبة والطيرة. وتبيّن لي في وقت متأخّر أنّهم ينتمون إلى الحزب الشيوعيّ، وقد نفتهم السلطات الإسرائيليّة من قراهم وأرسلتهم للتدريس في قرى نائية. لكن ما حدث فعلًا هو أنّهم كانوا هم مَن أسهموا في نشوء الوعي السياسيّ لدينا ولدى تلاميذ كُثُر آخرين في أنحاء البلاد، ممّن كانوا يعيشون في قرًى نائيةٍ ولم تَدُرْ على مَسمع منهم نقاشات سياسيّة ألبتّة.

طفولة سعيدة

كان لي دوماً دعمٌ من الأسرة. كما هو معلوم، القربى العائليّة عندنا لا عِوض عنها. تقاليد السكنى بالجوار، والتكافل والتعاضد، والمشاركة في الأفراح والأتراح، والدفء والمودة، كلّ هذه تعوّض أحياناً كثيرة عمّا تولّده الضغوط والولوج إلى الخصوصيّات التي تتسبّب فيها السكنى المشتركةُ والانكشاف الدائم للجميع على الجميع. ربحتُ أنا من هذه الأفضليّات والحسنات منذ

الطفولة. لم أحظَ بالدعم والعون من أبناء عمومتي وأترابي فحسْب، بل من أعمامي كذلك. عمّتي رابعة، التي كانت مربّية في الروضة، ساعدتني دومًا في إعداد دروسي حين كان ذاك يصعب عليّ. عمّاي طالب ومحمود دلّلاني في تلك الحقبة ووجدت لديهما السلوى دومًا. وعمر، ابن خالي، الذي كان يعمل في تل أبيب وكنت أنتظر عودته كلّ يوم خميس، لم يكن يأتي صفْر اليدين أبدًا، وكان دومًا يجلب لنا الهدايا. يمكن القول إنّ طفولتي كانت محفوفة بالمحبّة والوداعة الأسريّة. لم أشعر بأنّه ينقصني شيء، رغم كوننا – كما أسلفت– فقراء. كنّا، أنا وشقيقتي الكبرى روضة، سندًا لوالدتنا في أعمال المنزل، وخاصّة في الاعتناء بأشقّائنا الصغار، وفي المساعدة في إعداد الدروس. كان أمرًا مفروغًا منه أنّ الإخوة الكبار في الأسرة الكبيرة إلى هذا الحدّ يُمضون الوقت في العناية بإخوتهم الصغار. كنت نجْلَ المختار، وكانت في ذلك حسنات، وسيّئات كذلك. من تلك الحسنات أنّه كان بمقدوري مرافقة والدي إلى اللقاءات والمقابلات خارج القرية، وهكذا تسنّى لي أن أسافر كثيرًا وأشاهد مجريات الحياة خارج برطعة. كنّا على الدوام نستقبل في منزلنا ضيوفًا كُثُرًا، يهودا وعربًا، وكان والدي يسمح لي بالدخول إلى غرفة الضيوف، وبمجالستهم والاستماع الى ما يدور هناك من أحاديث. منحني هذا قوّة ومعرفة واسعة استفدت منها في قادم الأعوام. ومن السيئات أنَّ بعض الأولاد وجّهوا إليّ عبارات استنكار لمنصب والدي كمختار، وكانوا أحيانًا يسخرون منّا وينتقدون أمورًا لا بدّ أنّهم قد سمعوا عنها في بيوتهم. عاقبت هؤلاء بشتّى الطرق، وكان من عادتي أن أمنعهم من الجلوس في الصفوف الأولى ساعة عرض الأفلام. جميعهم كانوا يتزاحمون على الجلوس في المقدّمة، وعندها كنت أستعين "بقوّتي" وسلطتي، فأنتقم من الأولاد الذين يسخرون منّي.

كمعظم سكّان القرية، كنّا نكتفي بالنزر اليسير. في محيط منزلنا كنّا نربّي الدجاج طلبًا للبيض واللحوم، كما كانت أمّي تزرع بعض الخضروات في الحوش. كانت لدينا بقرة نحلبها كلّ يوم، فتُعدّ أمّي من الحليب الجبنة واللبنة. كنّا نقطف الزعتر في الجبال، ونقطف الزيتون في موسم القطاف وعصرناه

زيتًا. كان هذا طعامنا. كنّا نأكل اللحمة بالكاد مرّة في الأسبوع، أيّام الجمعة، متقاسمين لحم دجاجة واحدة بين جميع أفراد الأسرة. لكن هذا كان يكفينا، وكان الجميع على هذا الغرار. لا أذكر أنّه كان ثمّة جوع. كنّا أسعد ممّا نحن عليه اليوم. لم تكن ثمّة ضغوط وتوتّرات. لم نكن منكشفين على العالم الخارجيّ كما هو الأمر اليوم، وكانت وتيرة الحياة بطيئة ووادعة. كنّا نعدو فوق الجبال، ونلهو بين الأشجار، ونُخرج البقرات للرعي، ونلتقي بجوار العين. صحيح أنّني كنت أساعد والدي في العمل، لكنّني كنت كذلك أجد الوقت الكافي للّعب مع زملائي. كنّا نلعب في حيّنا، ولم نذهب إلى أحياء أخرى، لكنّنا كنّا نتسلّل أحيانًا إلى البساتين في برطعة الشرقيّة. في ناحيتنا لم يكن هنالك ما يكفي من الفواكه، ولذا كنّا نذهب أحيانًا لقطف فواكههم. كان أحد الأولاد يتسلّق شجرة عالية للمراقبة ولإنذارنا حال وصول صاحب البستان، أو جنديّ أردنيّ. في مثل هذه الحالة، كان المراقب يطلق إشارة أو صرخة فكنّا نهرب جميعنا. هكذا كنّا نقضي أوقات الفراغ بعد أيّام الدراسة.

كنّا نلعب "يهود وعرب" دون أن نفقه المغزى تمامًا. لم نكن نعرف الكثير. كنّا نعرف أنّ اليهود هم أعداء الأردنيّين. كنّا نشاهد كيف كان الجنود الأردنيّون – عندما كان الجنود الإسرائيليّون يقتربون– يستحكمون فورًا في مواقعهم، ويقفون قبالتهم مُشْهِرين سلاحهم. باستثناء الجنود لم نكن نرى يهود في القرية، إلّا فيما ندر. كان في الخضيرة طبيب واحد كنّا نذهب اليه أحيانًا. عندما كنت في الثالثة عشرة من عمري، خرجنا في جولة نظّمتها المدرسة في كيبوتس "بركاي". كانت تلك المرّة الأولى التي أزور فيها "كيبوتس". كانت المسافة بيننا قصيرة جدًا، لكن الكيبوتس كان عالَمًا آخر. تجوّلنا في الحظيرة، والحقول، وبين المنازل. روَوْا لنا أنّ الأولاد لا يبيتون في منازل أهاليهم، بل لهم منازل منفصلة. استهجنّا هذا الأمر كثيرًا: كيف يهجر الأولاد ذويهم؟ وكيف يسمح لهم أهلوهم بالنوم والمبيت خارج المنزل؟ لم نفهم. وكان أكثر ما شدّ انتباهنا على وجه الخصوص الدرّاجات الهوائيّة. في كلّ رُكن شاهدنا أناسًا يمتطون الدرّاجات. في قريتنا لم نشاهد قَطُّ أمرًا كهذا. درّاجة هوائيّة؟! وأناس متقدّمون

في السنّ راكبون فوقها؟! شاهدنا أولاداً يلعبون بالكرة فوق العشب الأخضر. أظنّ أنّني شعرت فجأة بالغَيْرة والحسد. فكّرت في سرّي أنّ لديهم كلّ شيء، وأنْ لا شيء لدينا. لديهم نادٍ، لديهم مكتبة وألعاب، والكيبوتس مرتّب وجميل. لم تكن لدينا أشياء من هذا القبيل.

أهدانا الكيبوتس خمس كرات للمدرسة. ورغم كونها مستعملة فهي كرات، وقد وزّعناها على الصفوف. وبما أنّ كلّ صفّين كانا يتعلّمان معًا– الصفوف الأولى والثانية معًا، والثالثة والرابعة كذلك، فقد أخذ كلّ زوج من الصفوف كرة واحدة. بدأنا نلعب خلال الاستراحات كرة القدم ولعبة المعسكرين. لم تكن البنات يشاركن في المباريات، بل اكتفين بالوقوف جانبًا لمشاهدتنا. لم يُسمح لهن حتّى بلمس الكرة. وكانت ثمّة لعبة أخرى تسمى "المطّاطة"؛ وهي عبارة عن غصن شجرة ذي ذراعين كنا نركّب عليهما قطعة مطّاطيّة وكان في الإمكان بواسطتها قذف الحجارة، أو سهمًا وقوسًا كنّا نصنعهما من الخشب. كنّا نستخدم هذه الأدوات لاصطياد العصافير. وكان لكلّ واحد أيضًا "فخّة"، وهي عبارة عن صفيح معدنيّ صغير يُطمر في التراب لاصطياد العصافير. كانت هذه هواية الجميع. كنّا نُحْضِر العصافير فتطبخها الأمّ. عصافير صغيرة لكن لذيذة المذاق. هكذا كنّا نضيف اللحمة أحيانًا إلى الوجبات. مَن خفّفوا قليلًا من وطأة الشحّ والافتقار هم أولئك العمّال الذين كانوا يحصلون على تصاريح العمل في تل أبيب؛ إذ كانوا يعودون في نهاية الأسبوع وأيديهم ملأي بالخيرات. كان لمكوثهم في المدينة الكبرى تأثير بالغ عليهم؛ ففضلًا عن الطعام والهدايا كانوا كذلك يأتون بالحكايات. عندما كانوا يقولون "كنّا في السينما" أو "كنّا في البحر وسبحنا"، فقد كان الأمر يبدو لنا أشبه بأسطورة. هذه الأمور شدّتنا كثيرًا، ولم نصدّق أنّه سيأتي يوم يكون فيه بمقدورنا نحن أيضًا أن نسافر إلى تل أبيب ونرى البحر.

وكان ثمّة قصص وحكايات من نوع آخر: حكايات عن شبّان من القرية هربوا إلى الأردنّ. كانت حقبة كهذه، وخاصّة في العامين 1957 وَ 1958، حيث

اجتاز الشبّان الحدود شرقًا، رغبة منهم في الانضمام إلى الثورة الوطنيّة العربيّة. كانوا يُجِلّون جمال عبد الناصر، فيظنّون أنّهم إذا عبروا الحدود إلى الأردنّ فسيستطيعون الوصول من هناك إلى مصر. الإجلال والتقدير لعبد الناصر كان أمرًا مألوفًا جدًّا في أوساط العرب في إسرائيل، الذين اعتبروه زعيمًا وطنيًّا يستدعي العزّة والفخر ويرفع هامات جميع العرب في المنطقة. أنا كذلك كنت أُجِلُّه. لم تكن في برطعة آنذاك أجهزة تلفاز، وفي 23 تمّوز، "عيد الثورة[8]"، كنّا نسافر إلى باقة الغربيّة أو إلى عارة لمشاهدة الاستعراضات التي كان التلفزيون المصريّ يبثّها. كنّا نذهب إلى هناك أحيانًا سيرًا على الأقدام، عبر الحقول، مع مجموعات من الشبّان، لنشاهد عبد الناصر وهو يخطب عبر التلفاز. أحببنا خطاباته المطوّلة، وفي الإمكان حتّى اليوم رؤية صور جمال عبد الناصر في منازل عربيّة في إسرائيل. كان عبد الناصر الزعيم العربيّ الأوّل الذي بعث فينا إحساسًا وطنيًّا وانتماءً إلى العالم العربيّ الذي كنّا منقطعين عنه، ومنحَنا الأمل. كان يخطب طَوال ساعات والجميع يجلسون مشدودين إلى الشاشة الصغيرة. كانت لديه قدرة خطابيّة خارقة، فيقود الجماهير خلفه. ذات مرّة، عدنا إلى القرية وقد أثار خطابه في نفوسنا الحماسة، فكتبنا على قطع من الكرتون شتائم ضدّ الملك حسين، وألقيناها في قناة المياه التي جرفتها إلى برطعة الشرقيّة. ظَنَنّا أنّ هذه وسيلة للتعبير عن التضامن العربيّ الوطنيّ وللانتقام من الملك حسين، الذي كان يُعتبر آنذاك ربيبًا للاستعمار البريطانيّ البغيض.

كان لدينا في المدرسة مدرّسون كُفاة جدًّا. وكما أسلفت، اعتادت السلطات في عهد الحكم العسكريّ على نفي بعض الناشطين السياسيّين من قرى جليليّة إلى منطقة المثلّث، ولا سيّما الناشطون في الحزب الشيوعيّ، الذي كان يومذاك الجسمَ السياسيّ الرائد في صفوف العرب في إسرائيل. كان كثيرون منهم مدرّسين. كان ذلك بمثابة عقاب للأفراد الذين لم يكن بالإمكان تقديمهم

[8] [illegible] 1952 [illegible]

للمحاكمة لأنّهم لم يخالفوا القانون، لكن السلطات سعت إلى إبعادهم عن النشاط السياسيّ وتحذيرهم، وربّما الانتقام منهم (لست أدري). على أيّة حال، عام 1959 اختيرت برطعة لسببٍ ما لتكون منفى، فجاء إلينا معلّمون كُثْر. ربّما كان المقصد من وراء ذلك معاقبتهم، لكن هؤلاء على وجه التحديد، الذين قَدِموا من الخارج، أثّروا علينا كثيراً وتعلّمنا منهم الكثير. تعرّفنا منهم مباشرة ولأوّل مرّة، على نحوٍ منتظم، على الحزب الشيوعيّ وعلى النضال ضدّ الحكم العسكريّ وعلى أوضاع المواطنين العرب الآخرين في البلاد. في المعتاد، كنّا نهاب المعلّمين كثيراً. كانت لهم هيبة ورهبة كذلك، وكنّا حين نشاهد معلّماً يقترب نحونا في الطريق نهرب كيلا نلتقيه مواجَهةً، غير أنّنا تصادقنا مع هؤلاء المعلّمين المنفيّين، وقد انخرطوا في حياة القرية. عندما قَدِموا، لم يكن في برطعة أيّ شيوعيّ، لكن عندما غادروها صوّت نصف السكّان للحزب الشيوعيّ. وفي لاحق الأيّام، كتب بعض أولئك المعلّمين (نمر مرقس؛ إبراهيم حصري؛ محمّد شريدي) في مذكّراتهم عن حقبة نفيهم، وأشادوا كثيراً بالمعاملة التي قابلهم بها سكّان برطعة.

وهكذا مضت أيّام الطفولة والصبا السعيدة. بدأت أدرك أكثر فأكثر الحالةَ المعقّدة التي تعيشها قريتي، والوضع الذي تعيشه عائلتي الموسّعة. ثمّة مَن هو ليس منّا، بعيد وغريب، حدّد خطّ الحدود وبذلك فرض القطيعة بيننا. عندما انتقلت إلى المدرسة الثانويّة، تفتّحت عيناي أكثر فأكثر.

التعليم والسياسة

مدرسة الطيرة الثانوية

في الصفوف المتقدمة من المرحلة الابتدائية لم تعد عندي طاقة على التعليم. كنت متلهفاً للانتقال إلى الثانوية، إلى مدرسة الكبار. في ذلك الوقت، كان علينا أن نختار بين المدارس الثانوية في الطيرة، الطيبة، باقة الغربية أو الناصرة. اختار أبي الطيرة لأن عمي طالب وأبناء عمومتي قصي وأحمد ومازن وغيرهم من الطلاب من القرية تلقوا العلم هناك وكانوا راضين. كان لوالدي أصدقاء جيدون في الطيرة وكان واثقا أنهم سيهتمون برعايتي.

استقبلتني عائلة صويلح منصور كما لو كنت أحد أبنائها. سكنت عندهم أربع سنوات بلا مقابل مادي في غرفة منفصلة في منزلهم القديم. في نفس البناية سكن عشرة طلاب من بلدات مختلفة مما مكنني من التعرّف عليهم وتطوير علاقات معهم. مع البعض منهم لا زلت أحافظ على علاقات صداقة. تناولت طعامي عند عائلة منصور ولعبت مع أولادهم الذين أصبحوا بمثابة أخوة لي. حتى اليوم أعتبر هذه العائلة عائلتي الثانية. أحب السفر لزيارتهم وهم يزورونني ونلتقي في المناسبات، ودائماً نسعد في الالتقاء. في تلك الأيام كنت أخشى قليلًا من صويلح، أب العائلة، الذي كان رئيسًا لمجلس الطيرة وزعيم حمولة منصور، فهو اعتاد المرور بالمدرسة بشكل فجائي لتفقد أحوالي وسؤال المعلمين عن دروسي وقيامي بواجباتي.

قدّرني المعلمون كثيرا لأن معظمهم كانوا يعرفون والدي، ولأني كنت طالباً جيداً ومجتهداً. نصف الطلاب جاؤوا من خارج الطيرة وتمكنت من التقرّب منهم، وتكوين صداقات وتقديم المساعدة عند الحاجة. أحياناً زرتهم في قراهم أو دعوتهم إلى برطعة. كنا نوعاً ما مجموعتين، واحدة من المحليين من أهل

الطيرة والاخرى من القادمين من باقي بلدات منطقة المثلث. كان معي طلاب آخرون من برطعة، وبطبيعة الحال أصبحنا اصدقاء وسافرنا معًا إلى البيت في نهاية الأسبوع. في تلك السنوات التقيت العديد من الطلاب والناس من جميع القرى المجاورة، ومن الطيرة بطبيعة الحال. حتى اليوم احافظ على علاقات صداقة مع بعضهم. كانت هناك قاعدة واحدة واضحة: يمنع منعًا باتًا المبادرة لأي اتصال مع الفتيات في الصف والمدرسة. نحن لم نجرؤ على الحديث معهن أو الذهاب إلى زيارتهم. في الصف جلسن على حدة، ونحن على حدة، ولم يكن بيننا أي اتصال. حتى في الرحلات كنا منفصلين. هن كن عشر فتيات ونحن الأولاد حوالي العشرين، معظم الفتيات كن مجتهدات أكثر من الأولاد. لكن للأسف بسبب الضغط العائليّ والاجتماعيّ تسربت بعض منهن من المدرسة أو خطبن خلال العام الدراسي، وأصبحن أمهات وربات بيوت، ولم يحققن قدراتهن من خلال مواصلة التعلم. يسرني أننا تقدمنا اليوم: يدرك المجتمع العربي أن تعليم البنات لا يقل أهميّة عن تعليم الأبناء، والعديد من الفتيات اللواتي ينهين المرحلة الثانوية بنجاح ينتقلن إلى التعليم العالي.

المرحلة الثانوية في السنوات 1968-1971 عززت لدي الشعور بالاستقلاليّة والمسؤوليّة. كانت تلك هي المرة الأولى التي أغادر فيها البيت وأسكن لوحدي. صحيح أني عشت مع عائلة، ولكن ليس عائلتي. أعددت دروسي وواجباتي وحدي، وحافظت على ميزانيتي الأسبوعيّة من يوم الأحد حتى يوم الخميس. انكشفت في هذه الفترة على تقدم لم يكن منه نصيب لقريتي، وعلى وجه الخصوص عجائب الكهرباء. لسنا مضطرين للخلود للنوم مع غروب الشمس؛ يمكن البقاء في المنزل والقراءة وتحضير الواجبات المدرسيّة، أو الخروج والاستمتاع بقضاء الوقت. كانت لدينا حياة اجتماعية. مرة واحدة على الأقل في الأسبوع كنت أذهب إلى السينما. لعبت كرة القدم، شاهدت مباريات فريق الطيرة، وأحيانا ذهبنا مع الأصدقاء لقضاء الوقت في المدن الكبرى. كل هذا

حرم منه الشباب في مثل عمري الذين درسوا في مدارس ثانوية قريبة، وعادوا إلى المنزل كل يوم.

في الطيرة أدركت أن مستوى التعليم في برطعة كان متدنياً جداً، لذلك بذلت مجهوداً مضاعفاً في الدراسة. أردت أن أكون من أفضل التلاميذ، وبالفعل أصبحت من التلاميذ المتفوقين في الصف، ابتداءً من الفصل الثالث من الصف التاسع وحتى نهاية الصف الثاني عشر. امتحانات الثانوية العامة كانت صعبة لكنني اجتزتها بنجاح. في تلك السنوات انكشفت أيضاً على السياسة والقوميّة. في أعقاب وفاة الرئيس المصريّ جمال عبد الناصر في عام 1970 نُظّمت في الطيرة مسيرة حداد وتضامن كبيرة، فانضممت اليها. عندما عدت إلى البيت أخبرت والدي بحماس كبير عن المسيرة والشعارات التي نادينا بها: صرخنا أننا سنواصل طريق عبد ناصر وأطلقنا الشعار المعهود بالروح بالدم نفديك يا شهيد! استمع والدي بوجه متجهم ولم يجب. اليوم أفهم انه في الواقع وافق بصمت على ما قمت به لكن لم يشأ أن يشجعني أكثر من اللزوم. انضممت إلى شبيبة الحزب الشيوعي في الطيرة وفي اللقاءات تلقينا محاضرات فتحت عيني وأكسبتني تثقيفاً سياسياً جديداً لم أتلقه سابقا. في تلك الأيام كان الحزب الشيوعي الإسرائيليّ، الذي كان حزباً عربياً يهودياً، قوة سياسيّة رائدة في المجتمع العربي. حركة الشبيبة الشيوعيّة كانت الإطار الاجتماعيّ الوحيد تقريبا، الذي أمكننا الانتماء إليه وتلقي التثقيف السياسيّ الذي لم يجرؤ الأهل أو المدارس على تقديمه لنا. الصحف التي صدرت والفعّاليات الثقافيّة التي نظمها أعضاء الحزب ملأت فراغاً كبيراً عندنا، وعوضت عن تعطشا للتعرف على هوّيتنا، وتاريخنا وعلى الثقافة العربيّة. الحزب الشيوعي الاسرائيليّ آمن ولا زال يؤمن بالشراكة العربيّة اليهوديّة المتساويّة، وبالقوميّة العربيّة، وهو غرس هذه القيم كلها لدى أبناء الشبيبة. من بين قادته كان شعراء وروائيون مثل إميل حبيبي، توفيق طوبي وتوفيق زياد، الذين قرأنا لهم وتعلمنا منهم الكثير.

كنت أعود إلى البيت مرة كل أسبوع، ومثل عشرات الطلاب الذين درسوا في الطيرة من وادي عارة كنت أعود إلى برطعة يوم السبت ظهرًا عن طريق طولكرم، في سيارات أجرة فلسطينيّة كان لديها تصريح لدخول إسرائيل. كان ذلك بعد حرب 67، وكان الطريق مفتوحًا. طولكرم كانت أكبر مدينة فلسطينيّة في المنطقة؛ كان فيها المقاهي والمحلات لتجارية وحتى دور السينما، وعادت إلى كونها المدينة المركزية في المنطقة بالنسبة لنا في ذلك الوقت، مثلما كانت في عهد الانتداب. السفر من هناك كان أقصر وأرخص من السفر بحافلة ايجد عن طريق مفترق رعنانا وكفار سابا، وهكذا لم نكن مضطرين إلى المغادرة عند الساعة الخامسة صباحًا أيام الأحد كي نصل في الثامنة إلى المدرسة. الرحلة يوم السبت اتاحت لنا أحيانًا المجال لمشاهدة أفلام مصريّة وسوريّة ولبنانيّة في السينما في طولكرم، وشراء الكتب والمجلات العربيّة، والأكل في المطاعم الرخيصة هناك.

في الصف الحادي عشر كان لنا لقاء مع شبيبة يهود في جبعات حبيبة. كانت هذه المرة الأولى التي أشارك فيها بلقاء كهذا ومنذ ذلك الحين تعزز عندي حب الاستطلاع والرغبة في التعايش. أعجبني المكان، الذي كان محل اعتناء وخضرة وترحيب، وربما في ذلك الحين عزمت في نفسي على العمل هناك في يوم من الأيام. منظم اللقاء كان تسفي اتكين، من الموظفين الأقدم في جبعات حبيبة، عضو كيبوتس حاتسور، تحدث اللغة العربيّة وفهمها. بعد ذلك عملت معه لسنوات عديدة، حتى وفاته. في ذلك اللقاء التقيت لأول مرة بمحمد وتد وأشخاص آخرين من مبام واستمعنا لمحاضراته. فكرت كثيراً في المشترك والمختلف بين الحزب الشيوعي الإسرائيليّ وبين حزب مبام. محمد وتد من جت كان صديق عائلتنا، من خريجي الشبيبة العربيّة الريادية تحوّل إلى ناشط مركزي في مبام وانتخب من قبلها للكنيست.
كتب كثيراً في الصحف الحزبيّة، العربيّة والعبريّة، وكانت له مساهمات في الأدب أيضا. توفي محمد وتد في حادث طرق مأساوي. خلال حياتي صوتت

للحزب الشيوعي الإسرائيلي ولمبام، ولأحزاب أخرى أحيانًا. سافرنا مع الطلاب اليهود في رحلة إلى عكا وكانت تلك المرة الأولى التي أزور فيها هذه المدينة الجميلة. فتح اللقاء والرحلة آفاقا جديدة أمامي.

كنت مرتبطا بشبيبة الحزب الشيوعي في الطيرة، وكان من المتعارف عليه أن يقوم مركزو الحزب بإعداد الطلاب الذين سيكملون تعليمهم العالي في إحدى دول الكتلة الشيوعية من الصف الحادي عشر. كانت هناك دورات خاصة ومحاضرات عن الحزب والاتحاد السوفييتيً، وعلمونا اللغة الروسية بمستوى بسيط. تحدثنا عن طرق للتواصل مع الطلاب من جميع أنحاء العالم، وعن التحضر لنكون قادة عند عودتنا. وكان الشيء المهم الذي طلب منا القيام به هو إقناع والدينا بالتصويت لصالح الحزب. تجدر الإشارة إلى أن معظم الطلاب العرب تعلموا في الستينيات والسبعينيات في الدول الشيوعيّة، بسبب صعوبات القبول للدراسة في إسرائيل، ولأنهم حصلوا على منح دراسيّة هناك، ثم عادوا الينا كأطباء ومحامين. هذا هو أحد انجازات الحزب الشيوعيّ الأفضل والأكثر إثارة للإعجاب. أعجبتني فكرة الدراسة في الخارج. عدت إلى البيت في أحد الايام وأشركت والدي ببرامجي. هو تلقى قراري بدهشة لكنه لم يعبر عن رأيه. أمي رفضت الفكرة كلها، وأنا تنازلت بطبيعة الحال. كان من الممكن أن أكون أول طالب من القرية يسافر للدراسة خارج البلاد. لا زلت مقتنعا بأني أهدرت فرصة ذهبية، لعلي كنت سأعود طبيباً وتكون حياتي مختلفة.

طالب في تل أبيب

بعد إنهاء تعليمي في المدرسة الثانوية واسقاط امكانية الدراسة في الخارج، كان واضحًا لي أنني سأتعلم في الجامعة في إسرائيل. قليلون خرجوا من برطعة إلى العالم الأكاديميّ في تلك السنوات، لكني أدركت أن هذه وسيلتي للتقدم،

لاكتسب مهنة ولأوسع آفاقي وانكشف على عوالم أخرى. مثلي الأعلى كان قصي إبن عمي. كان صديقًا ومرشدًا (لم نعرف حينها اننا سنكون انسباء). كان على وشك انهاء تعليمه في جامعة تل ابيب وقررت أن اطلب مشورته. كان هناك اثنان آخران من القرية تعلما في الجامعة عمر مدلج وأحمد جبر، أنا كنت الرابع.

حصلت على علامات عالية في الرياضيات في البجروت، وأردت مواصلة تعلم الرياضيات كي أصبح معلمًا. أبي أيضا اراد بشدة أن أكون معلمًا. كان هذا هو أقصى ما يمكن أن يطمح إليه شاب عربي في تلك الأيام. للأسف أن حتى بعد أربعين سنة لم يتغيّر الوضع كثيرًا. كان قصي قد حذرني من أن التعليم العالي سيكون صعبًا جدًا لأني أنهيت تخصصًا ادبيًا وليس علميًا. كانت هذه المرة الأولى، وربما الأخيرة، التي اضطررت للإقامة عند قصي في غرفته المستأجرة في يافا، أو العودة الي البيت نهاية كل يوم تعليمي.

بعد شهر من بداية الدراسة شعرت أني على وشك الفشل. الموضوع كان صعبًا وغير مناسب لي. تحدثت مع قصي، قلت "أنا آسف وأعتذر لعدم العمل برأيك. أريد أن توجهني لموضوع آخر يكون أهون لي وملائم أكثر، فلن أعود إلى القرية لأعلن فشلي فيغضب والدي وأخيّب أماله". ابتسم قصي وتفهمني، كانت له ابتسامه ساحرة وكان إنسانا طيبًا لطيفًا أحبه الجميع. اقترح على أن انتقل إلى كلية الآداب قسم اللغة العربيّة وتاريخ الشرق الأوسط. هو أخذ على عاتقه أيضًا مهمة ابلاغ والدي بشأن التحول المفاجئ. تفاجأت من تقبل والدي الأمر. كل مخاوفي من غضبه تلاشت. هو أخبرني فقط أن ميزانيتي تكفي لتعليمي لثلاث سنوات ونصف، لهذا على أن التزم بالمدة المحددة ولا أتجاوزها. فعلا، قبلت للأقسام الجديدة في الفصل الثاني ووجدت أن المواضيع ملائمة لي والتعليم محبب علي. المساق الأصعب كان قواعد اللغة العربية، التي درسونا إياها باللغة العبريّة وكتبوا الحركات بأحرف إنكليزيّة. كان الأمر

غريبا جداً لكن تجاوزته بنجاح. مشكلتي الكبرى كانت حينها ولا زالت اليوم هي اللغة الانجليزية. لكي أنهي تعليمي وأحصل على شهادتي كان على الحصول على اعفاء من اللغة الإنكليزيّة. في الثانوية حصلت على تقدير جيد في اللغة الإنكليزيّة. لكن في الجامعة لم أفلح فيها، تعثرت اللغة على لساني وفي كتابتي. بسبب دراسة اللغة الإنكليزيّة مر عام آخر قبل أن أحصل على اللقب.

كانت فترة الجامعة واحدة من أجمل الفترات في حياتي. الجو اللطيف، الحرم الجامعيّ الفسيح واللقاء مع الثقافة الإسرائيليّة كانت بالنسبة لي تغييراً منعشاً. أردت استغلال كل لحظة من وجودي هناك لاستوعب أكثر وأكثر. الانكشاف الكبير على الفكر السياسيّ في الجامعة كان مهما جداً بالنسبة لي. بادرت للذهاب الى كل محاضرة أو نشاط يمكنه إثرائي، وتدريجيا بلورت رأياً وتوجهاً سياسياً خاصاً بي. أحببت الاستماع للمحاضرات العامة والنظرية في كلية العلوم السياسية. شاركت أيضاً في اجتماعات الدوائر اليسارية مثل الطلائع (افانجارد) وشيلي، والحزب الشيوعي، ومبام.

قضايا الهوّية

اللقاء مع المجتمع اليهوديّ الإسرائيليّ أثار أسئلة جديدة لم تشغلني سابقا بخصوص هوّيتي كعربي، انتمائي العرقيّ والوطنيّ، مكانتنا في الدولة والتمييز الذي عايشناه. كنت قد شاركت في المظاهرات والفعّاليات في الثانويّة لكن ذلك كان داخل المجتمع العربي. أكثر الآن من الحديث والنقاش مع طلاب يهود، وحتى في ذلك الحين. في معظم الحالات كنت اصغي أولًا للحوار، وبعدها أجيب واحاول التجسير والتوفيق دون التنازل عن آرائي، وعن هوّيتي وعن الاحترام الذي أكنه للمجتمع الذي أنتمي اليه. حاولت الاندماج في المجتمع الاكاديميّ الإسرائيليّ، ليس بهدف الانصهار فيه، لا سمح الله، انما للتعرف

عليه بشكل أفضل، وتعلم ما يستحق التعلم ومحاولة ايجاد الحل الوسط بين كوني ابنًا للأقلية العربيّة في الدولة ورغبتي في تعزيز مواطنتي. أكّدت دائمًا أن مواطنتي هي حق وليست منة، وأنني وأخواني أبناء هذه البلاد لسنا غرباء فيها ولا مهاجرين اليها.

لا أنكر ان صراعات حول الهوية والانتماء للشعب الفلسطيني وللأمة العربية اعتملت في داخلي. المقولة الشهيرة لعضو الكنيست عن مبام في حينه عبد العزيز الزعبي، "شعبي في حرب مع الدولة التي أنتمي إليها" لم يكن في رأيي كليشيهات انما واقعًا امارسه يوميًا في الجامعة. عندها لم تكن لدى الأدوات الكافية لذلك. كان عبد العزيز قائدًا من نوع جديد – شاب متعلم اندمج في مبام وأصبح لاحقا نائب وزير الصحة، الوظيفة الاكثر تقدما التي وصلها عربي في تلك الأيام في المؤسسة الحكوميّة. برأيي، لو أن دولة إسرائيل اهتمت بتطبيق المساواة المدنيةً، وتطوير القرى ودمج آخرين من أمثال عبد العزيز في الحكم لكانت هوّيتنا الاسرائيليّة تعززت في تلك السنوات. كلما عدت إلى القرية تبين لي أننا لا زلنا نعيش من دون كهرباء، من دون مياه جارية، وأن مستوى المدارس متدن والبنية التحتية تكاد تكون معدومة. كان هذا النقيض التام للتطور الكبير الذي رأيته في تل أبيب، المدينة الحديثة. لا شك أن هذا ضعضع هوّيتي الإسرائيليّة وغذى شعوري بالظلم والتمييز.

كان لي العديد من الأصدقاء اليهود، أنا شخص من المريح التقرب اليه، وكانت عندي رغبة في التعرف عليهم عن كثب. حتى أنني حاولت الاتصال بالمحاضرين والتعلم منهم أكثر مما يدرّسون في الصف. في قسم الجغرافيا التقيت صدفة بالدكتور أفشالوم شموئيلي وتبين انه تعرف على والدي في أعقاب دراسات أجراها في المثلث. هو ضمني لدراسية بحثية أجراها عن البدو في النقب وأخذني معه إلى جولات في منطقة عراد. كانت هذه هي المرة الأولى التي التقيت بالمجتمع البدويّ. على الرغم من أنني أعرف بعض البدو

الذين درسوا معي في الثانوية، لكني لم أزور النقب سابقًا. عندما زرتهم للمرة الأولى تألمت لرؤية أسلوب حياتهم الذي تضرر، الوضع الذي كانوا فيه، نبذ التقاليد العريقة في التنقل والزراعة في الصحراء وبداية عمليات التحديث بطرق غير طبيعية ومنظمة مما أدى إلى ازمات كثيرة بين أوساط الشباب خاصة. سيرورة لم تنته وما زالت مستمرة حتى اليوم.

بدأت نشاطي في لجنة الطلاب العرب. شعرت أن بإمكاني المساهمة في دفع قضايانا المشتركة. في انتخابات سنة 1972 فزت بأغلبية الأصوات وانتخبت لسكرتارية اللجنة من قبل قائمة طلاب مستقلة. هذه المكانة اتاحت لي فرصة لمساعدة الطلاب العرب من حيث المنح الدراسيّة والمسكن وتنظيم أنشطة ثقافية في الحرم الجامعي. قمنا بدعوة المحاضرين والضيوف العرب لإلقاء محاضرات وعقدنا أمسيات ثقافيّة خاصة بنا داخل الجامعة التي خصصت لنا قاعات لهذا الغرض. حينها تعرفت لأول مرة بشكل ملموس على نشاط اليمين، الذي ازدادت قوته في تلك الفترة داخل الحرم الجامعيّ وحاول استفزازنا. تطورت بيننا العديد من النقاشات الصاخبة لكن برأيي لم نصل لمستوى العنف الكلاميّ الحالي. لم يطرح حينها أي سؤال بشأن مواطنتنا وحقنا في التعلم، ولم نسمع عن الاقتراحات السخية لنقل المثلث إلى الدولة الفلسطينيّة.

ضغطنا على اتحاد الطلاب العام في الجامعة لمساعدة الطلاب العرب في العثور على سكن. كانت تلك مشكلة عويصة لأن العديد من أصحاب الشقق في أبيب رفضوا تأجيرها للعرب، وعدد الأماكن المتاحة في مساكن الطلبة كان محدودًا. بعد جهود هائلة استأجرت الرابطة غرفًا لنا في منطقة ميدان ديزنغوف. سكنا هناك أربع وعشرون طالبا من القرى، البعض من قرى لم تصلها الكهرباء، من القرية مباشرة الى مركز الحداثة في البلاد. في المساء أكثرنا من التنقل بين دور السينما والمقاهي، حتى أن قصي ابن عمي لاحظ ذلك وتدخل محذرًا من اهمال دراستي والتغيب عن الدروس. في نهاية العام

ثمانية منا فقط نجحوا في الاجتياز الى السنة الثانية. كنت واحداً منهم، رغم أني كنت ملزماً بالعمل خلال العام الدراسي للحصول على لقمة العيش. عملت في المطاعم ليلًا، وفي عطلة نهاية الأسبوع عملت في شركة اليانصيب وأعمال متنوعة أخرى، وذلك كي لا أضطر لطلب النقود من والدي، الذين عاش حياة تقشف مع ستة أطفال آخرين أصغر مني. العديد من شباب القرية اشتغلوا في تل أبيب، وعادوا إلى القرية في عطلة نهاية الأسبوع. عمل معظمهم في سوق الكرمل أو في المطاعم. وجدت فيهم عونا ورفقة جيدة في ساعات المساء خاصة مازن أبن عمي.

زيارتي الأولى لعائلة يهودية كانت لطالبة من بات يام درست معي وتطورت بيننا صداقة. زرتها للعمل على وظيفة مشتركة. كانت الأسرة صغيرة، ليس مثلنا. كان لديهم بيت صغير نسبيًا، نظيف ومرتب، ولكل طفل غرفة خاصة به. لم أستطع تجنب المقارنة: عندنا ينام الجميع معًا في غرفتين. كان المطبخ عندهم مفتوح على غرفة المعيشة، وعندنا كان المطبخ مغلقا وغرفة المعيشة مفصولة تمامًا، حتى لا يلمح الزوار الزوجة لا سمح الله. كان لديهم جهاز تلفزيون ومكتبة – ببساطة بيت مختلف نهائيا عما عرفته سابقًا. والأمر الأكثر اثارة للدهشة هو أن احدًا منهم لم ينفعل أن ابنتهم جلبت ضيفًا وليس ضيفة، وعربيّ أيضًا.

بعد أن أعددنا الوظيفة دعتنا والدتها لتناول وجبة الغداء. جلسنا إلى المائدة مع رب الاسرة، الاخ وصديقته. كانت على الطاولة صحون، بجانب كل منها شوكة وسكين. الوجبة كانت مركبة من شريحة لحم (شنيتسل)، سلطة، رقائق البطاطا، الزيتون والحساء. لم يكن خبز. تساءلت، كيف يمكن أن تكون هناك وجبة من دون الخبز؟ وكيف سآكل بالشوكة والسكين وأنا لم اعتد استخدامها؟ حاولت قطع شريحة اللحم ولم أنجح. حاولت امساك حبة زيتون – لم أفلح.

عندها لاحظت الام أزمتي فأنقذتني منها، احضرت رغيف خبز وملأته بقطعة اللحم والسلطة والبطاطا وقدمتها لي لآكلها. لا زلت بعلاقات مع هذه العائلة.

في السنة الأخيرة لدراستي سكنت في مساكن الطلبة، وتعرفت على شاب يهوديّ هاجر قبل بضع سنوات من الولايات المتحدة الأمريكيّة. كانت علاقتنا قوية جداً. في حرب 1973 أصيب بجروح وطلب مني أن امكث معه في المستشفى لأن زوجته كانت في أشهر حملها المتقدمة ولم تقدر على الاعتناء به. هو مكث في المستشفى فترة طويلة وذات يوم قرر والدي ان يزوره ويزورني. جلسنا بجانب سريره حين ظهر فجأة اخوة زوجته بزيهم العسكري وبدأوا بالصراخ على ابي الذي كان يعتمر حطة وعقال: لا نريد عربا هنا! حاولت وصديقي ان نوضح لهم من أنا وإن هذا والدي، لكنهم لم ينصتوا وواصلوا الصراخ. والدي خرج غاضبا مهانا رغم أن صاحبي اعتذر له ورجاه أن يبقى. بعد أسبوع عاد والدي لزيارتنا، في ساعات الظهيرة هذه المرة، وعندها التقى بحمى صديقي. كان رجلا كبير السن، مزارعا من منطقة الشارون أصله من اليمن. بدأ هو وأبي الحديث عن الأمطار والارض وسرعان ما وجدا لغة مشتركة. انتهزت الفرصة ъخباره عن سلوك اولاده. هو استغرب واعتذر وبعد فترة جاء مع عائلته لزيارتنا في القرية. ومع ذالك بقينا على علاقة طيبة. هذه القصة دفعتني للبحث عن سبل لتغيير الأفكار المغلوطة بين اليهود والعرب، وهذا ما أحاول فعلا القيام به اليوم.

في نهاية دراستي، في عام 1974، دعوت والدي وبعض وجهاء القرية لحضور حفل التخرج. جلسوا في الصف الأمامي بملابسهم التقليدية فكانوا بارزين بين الجمهور. تضمن الحدث حفلًا موسيقياً وكان قائد الفرقة واقفا على خشبة المسرح، على بعد مسافة قصيرة من الصف الأمامي، وبالطبع ادار ظهره للجمهور. فجأة، قام بعض المرافقين من ابناء العائلة وغادروا القاعة محتجين. شعروا بالإهانة لأن قائد الفرقة أدار لهم ظهره ووجهه. كانت هذه

هي المرة الأولى التي حضروا حفلا في قاعة. اليوم يطلقون على ذلك مصطلح "فجوة ثقافية".

اعتقال

أريد أن أروي هنا قصة لا يعرفها حتى الاشخاص المقربون مني، وأنا لا أكثر من ذكرها أو تذكّرها. في صيف 1974 تعلمت دورة في اللغة الإنكليزيّة في تل ابيب، فقد كان على أن أحصل على اعفاء من اللغة الإنكليزيّة كي اتأهل للقب الاول. ذات ليلة، وأنا في غرفتي في مساكن الطلبة، سمعت فجأة طرقا على الباب. عندما فتحت وجدت أمامي أفرادًا من جهاز الأمن العام ومن الشرطة. قال لي أحدهم – أنت كنت باتصال مع حركة فتح في لبنان، ومطلوب للتحقيق. ذعرت. لم يسبق لي أن تورطت في أمور كهذه ولم أعرف عم يتحدثون. في التحقيق سألوني عن أحد زملائي من المدرسة الثانوية، الذي سافر للدراسة خارج البلاد وخلال السنوات الأربع التي مضت لم أره ولم أسمع منه. تبين أن الطالب قد انضم لمنظمة فتح وسجلنا أنا وبعض زملائي من الصف كمجندين من قبله للمنظمة في لبنان. في مرافق جهاز الأمن العام وجدت ثمانية أو تسعة اخرين من طلاب صفنا، كلنا تم التحقيق معنا في نفس القضية. بقينا رهن الاحتجاز في بيتح تكفا لمدة شهر حققوا معنا خلالها عدة مرات. وكما اعتقلونا بشكل مفاجئ كذلك أطلقوا سراحنا، ذات يوم فجأة بدون لائحة اتهام وبدون محاكمة. اقتنعوا بأن الرجل لم يجند أيًا منا ولم يكلم أيًا منا، وسجل أسماءنا لاثبات نفسه والحصول على مكافأة.

استمر هذا الاعتقال القاسي سبعة وعشرين يوما، وأثر بي كثيرًا وكذلك بأبي وأمي. عذبونا، أجاعونا، وصرخوا علينا في التحقيقات، وضعونا في الحبس الانفرادي لأيام متتالية. كلنا أجبنا نفس الاجابة وأقسمنا أننا لم نفعل شيئًا. مع الصديق الذي اعتقلنا بسببه التقيت بعد اتفاقيات اوسلو وتجمعنا علاقات طيبة.

لا أحب أن أتحدث عن هذه الحادثة، رغم مرور أربعين عامًا. ما زلت استصعب تذكّر ما مررت به. ولكن يجب أن أعترف أن هذا منحني نوعًا ما مكانة في المجتمع – رياض اعتقل على خلفية قومية، خلفية أمنية ...

منذ انهاء دراستي في الجامعة واصلت التعلم والاستكمال في كل فرصة اتيحت لي، سواء في وظيفتي كمدرس أو في عملي في مجال العلاقات اليهودية العربية. رغم أني لم أكمل للقب متقدم في الدراسات العليا للأسف، إلّا أنني شاركت في العديد من الدورات فوسّعت مداركي وثقافتي.

معلم المدنيات

في العام 1974 بحثوا عن مدرسٍ للمدرسة الاعدادية في كفر قرع. علمت بالأمر صدفة. في كل عطلة صيفية، ولتوفير بعض المال كنت أعمل في البناء مع أحد المقاولين من كفر قرع في عين شيمر وجبعات حبيبة. عمل معي مدرس اسمه أحمد عبادي. والذي أصبح صديقا طيبًا، ومع الأيام مديرًا لمدرستي. قال لي أنهم بحاجة إلى معلم للغة العربية للسنة الدراسية القادمة في المدرسة التي يعمل فيها. حالا اتصلنا بالمدير آنذاك، عبد الله قربي، والذي كان مديرًا ممتازًا ومحبوبًا، والذي قال لي: إحضَر بالأول من أيلول. هكذا بدأت مسيرة امتدت لأكثر من ثلاثين عاما. كنت أصغرُ المدرّسين. بالكاد ابن اثنين وعشرين سنة. تلك كانت مدرسة جديدة وصغيرة، نامية وجيدة، وسادت أجواء طيبة بين المعلمين. كنت ملزمًا بالامتياز، لأني أتيت من خارج كفر قرع ولم أرغب أن يقولوا إن المعلم الذي جاء من الخارج لا يدرّس جيدًا. لذا اجتهدت كثيرا وفي نفس السنة درست في جامعة حيفا للحصول على رخصة تدريس. كنت حينها من المدرسين القلائل الذي كان بحوزته شهادة تدريس. تعلقت كثيرا بالمدرسة، وبالمدرسين، والتلاميذ والأهالي. مع مر الأيام حظيت أيضًا بتدريس بعض أولاد تلاميذي. أحببت العمل والمدرسة ولم أفكر أبدًا بالتعليم في مكان آخر. كفر قرع غير بعيدة عن برطعة، وراء الشارع الرئيسي. في السنوات الأولى اضطررت في كثير من الأحيان الذهاب إلى المدرسة مشيًا على الأقدام، أو حتى الشارع الرئيسيّ على الأقل، مسافة ثمانية كيلومترات تقريبا، أو السفر متطفلا. معظم السيارات كانت تخرج من برطعة باكرًا، عند الخامسة أو السادسة صباحًا، مع العمال الذين يعملون في مركز البلاد. كنت أخرج الساعة السابعة ولم أجد من يَقِلني، لذا كنت أذهب ماشيًا.

كما هو معروف، العديد من الأكاديميين العرب لا يجدون عملًا ملائمًا لمؤهلاتهم. مؤسسات عديدة مغلقة أمامنا، وفي تلك الفترة فرص العمل لم تكن كثيرة، وبالأخص لخريجيّ مسارات اللغة العربية والشرق الأوسط. كفر قرع هي

بلدة تحتضن الغريب. البلدة بوضع اقتصاديّ جيد مقارنة بجيرانها، فيها العديد من الأكاديميين النشطاء بكل المجالات. معظم تلاميذي تابعوا للدراسة في الجامعات، النساء تعملن وتتعلمن مثل الرجال. هذه الوظيفة كانت فرصة حقيقية، ودرّست اللغة العربية بوظيفة كاملة. عندما بدأت العمل في جبعات حبيبة بعد عدة سنوات، في عام 1980، قلّصت من وظيفة التعليم تدريجياً إلى أن انتهى بي الأمر لتدريس المدنيات بثلث وظيفة. خلال ثلاثة عقود تقريبا علمت آلاف التلاميذ موضوع المدنيات. ليس بالسهل تعليم تلاميذ عربًا عن المواطنة الاسرائيليّة، لكني عندما أنظر إلى الوراء وأظنني وجدت الطريق الوسط. سوف أتطرق لهذا لاحقًا. حاولت أن أطبّق في المدرسة أساليب تدريس حديثة لم تكن مقبولة في حينه. أغلب التعليم كان وجاهيًا: المعلم يتكلم والتلاميذ يكتبون دون أي حوار بينهم. المدرسون، بالأخص في المواضيع الحسّاسة كما موضوعي، لم يرغبوا بمواجهة أسئلة التلاميذ واهتموا بان يحفظوا المواد وأن ينجحوا في الامتحانات. أما أنا فقد ادخلت العمل بمجموعات، والعمل الذاتيّ وكنت اصغي لتلاميذي. أحببتهم وهم بادلوني الحب والتقدير. اجتهدت بالتحضير للدروس، وأكثرت من المشاركة في استكمالات لكي أتقدم وأتعلم أكثر وكانت لي علاقات جيدة مع أهالي التلاميذ.

التلاميذ وأهاليهم، إدارة المدرسة وزملائي المعلمون، منحوني البيت الدافئ. المدرسة كانت بالنسبة لي حلقة اجتماعيّة. كنا مجموعة من المعلمين الشباب العزب، تصادقنا وقضينا الكثير من الساعات معًا خارج إطار التعليم. مرة في الأسبوع على الأقل كنا نلتقي عند واحد من المجموعة، نأكل ونشرب ونخرج لقضاء الوقت. كنا مجموعة من الرجال فقط، كانت في المدرسة حينه معلمة واحدة فقط، أو ربما اثنتين درستا الأشغال والتدبير المنزلي؛ فقط في أواسط التسعينيات بدأ دخول معلمات المرحلة الاعدادية، فقبل ذلك عملن في المدارس الابتدائية. نحن المعلمون الرجال، تنزهنا معًا وشاركنا في المناسبات العائلية لزملائنا المعلمين. أحدنا كان يحب الصيد وكنا نخرج كل أسبوعين

للصيد في الحقول. في رحلات الطبيعة تلك ساعدتنا سيارتي الجيب كثيراً. لعبنا كرة القدم وذهبنا إلى المباريات معًا. كان بيننا شاب نشيط وفعّال، من الرياديين بيننا، يوسف زيد، والذي كان صديقي المقرب، وقد توفى بسن مبكرة جراء سكتة قلبية وهذا حطمنا وأثّر كثيراً على المجموعة. رغم مضي العديد من السنين، لا زلت اتذكره بالخير.

مجموعة المعلمين هذه ساعدتني في جميع الفعّاليات التي قمت بها على مر السنين في جبعات حبيبة. العديد منهم شارك في الاستكمالات التي قمنا بها، وفي الجولات الدراسية خارج البلاد. أيضًا زوجاتنا تعرفن على بعض وتوطدت علاقاتنا أكثر. حت اليوم، حيث كلنا كبار في السن وجدود لأحفاد، واغلبنا خرج للتقاعد، لا زلت أحافظ على علاقات طيبة مع تلك المجموعة.

المعلم في المجتمع العربي

في العقود الاخيرة طرأت تغييرات وتقلبات كثيرة على مكانة المعلم في المجتمع العربي. في السابق كان المعلم مبادرًا ورياديًا واجتماعيًا، وكان بارزًا بين أشخاص لم يتعلموا، وأغلبهم لم يعرف القراءة والكتابة. المعلم المثقّف والمتعلم كان وجه البلد العربيّ، ممثله في الخارج وصاحب الصلاحية في الداخل. غالبية رؤساء السلطات المحليّة العربيّة في سنوات السبعينيات والثمانينيات كانوا من معلمين. أعتقد أن شريحة المثقفين لدينا اليوم، بما فيهم المعلّمين، لا تعمل كفاية من أجل المجتمع. أكاديميون معتبرون لا يشاركون في أحداث عامة ولا يعملون للتغيير في مجتمعهم ولا للتغيير على المستوى القطري. مثال واضح لذلك هو الحمائلية في زمن الانتخابات. حتى الأشخاص الأكثر تعلما، خريجو الجامعات، واصحاب الشهادات العليا، والأطباء وأصحاب المهن الحرة، يرضخون لأمر الحمائلية ويصوتون لزعيم الحمولة، والذي لم ينهي حتى دراسته الثانوية في بعض الأحيان. احترام التقاليد هو أمر هام، ولكن

التحجر والاستناد إلى قيم بالية يضرّ في المجتمع ويعيق تقدمه. كنت أتوقع من المتعلمين بالذات، المنفتحين على العالم والحداثة، أن يتصرفوا غير ذلك؛ لكن للأسف فإنهم يطأطئون الرؤوس ويكبلون أنفسهم بالقيود الاجتماعيّة. في سنوات التسعينيات كانت هنالك محاولات لتنظيم قوائم محلية فوق حزبية وعابرة للحمائل، من قبل شباب مثقفين ومتعلمين، إلا أنها لم تنجح. هذه الظاهرة تؤلمني وتضايقني، حيث أنه رغم الثقافة والحداثة، وبدل أن نتقدم في بلداتنا، كثيرون منا يعودون إلى الوراء.

ظاهرة أخرى تتعلق بالمعلمين ولا يمكن تجاهلها هي طُرُق تعيينهم. تعيين المعلمين يرتبط باعتبارات سياسيّة وأمنيّة، والتي لا يحاولون حتى اخفائها. لغاية سنوات ليست بعديدة، كان يتم تعيين غالبية المعلمين والمديرين عن طريق الواسطة، ومن خلال العلاقات العائليّة مع رئيس السلطة المحليّة والوعود الانتخابيّة. لذلك مستوى التعليم كان متدنياً جداً. تم تعيين المديرين عبر مناقصات وهميّة، حتى أن الكثير منهم لح يحصلوا على شهادة تدريس أو لقب جامعيّ، وتم تعيينهم للوظيفة وفق قرابة عائليّة مع رئيس السلطة المحليّة أو تحت ضغوطات عائليّة. فيما كان جهاز الأمن العام (الشاباك) يتدخل في تعيين المعلمين أو إلغائه لأسباب سياسيّة. في تلك الفترة، وخاصة في مرحلة الخمسينيات والستينيات، كان المعلم يخاف أن يتحدث في الصف بمواضيع "حساسة " خِشية أن يشي بهِ أحد. هكذا وعلى مدى سنوات عديدة لم تجري في المدارس العربيّة أية حوارات حول الأحداث اليوميّة والآنيّة، خشية أن ينزلق النقاش إلى السياسة. كما خشي المعلمون من مواجهة تلاميذهم الشباب ومناقشتهم حول مواقف سياسيّة. كانت هنالك حالات كثيرة فُصل فيها معلمون على خلفية سياسية. حتى إلغاء الحكم العسكريّ ولغاية السنوات الأخيرة لم نزل نسمع، بين الحين والحين، عن فصل معلم أو آخر بسبب تعليمات جهاز الامن العام، أو عن معلمين ألغي تعيينهم لكونهم ينتمون لحزب غير مرضي عنه لدى السلطة، أو لأنهم عبّروا عن رأيهم علنا بحجة أنه يمس

الدولة. أنا أرفض قطعًا هذا التدخل. لم أُعاني من ذلك شخصيًا، ولكن كانت هنالك العديد من الحالات حولي. أذكر معلم الأدب العبريّ الذي درّس قصيدة الزامية في برنامج التعليم، قصيدة بياليك "إلى العصفور"، قال المعلم لتلاميذه أنه وصف للاجئ فلسطينيّ يحن إلى العودة إلى وطنه. هذا الحدث انتشر في الإعلام، وتم توبيخ المعلم لكنه بقي في وظيفته.

أنا نفسي استعملت مجموعة من الأدب والشعر، "من عدو إلى محب"، والتي كانت ضمن المادة الإلزاميّة لصفوف الثوامن. كانت هنالك قطعة للكاتب عجنون يصف كيف ذهب الراوي للعيش في حي تلبيوت، في القدس، بجوار قرى عربيّة. في المرة الاولى نصب خيمة صغيرة اقتلعتها الرياح. بعد ذلك حاول تقوية الخيمة لكنه فشل، وفي النهاية استخدم الباطون. جاءت الريح وطرقت الباب لكنها لم تستطع تحريكه وبقي هناك. في هذا النص هنالك هدف صهيونيّ. شرحت لتلاميذي ذاك القصد. أردت أن يعرفوه ويفهموه، لذلك شرحت لهم السرد الفلسطيني حول التشبث في الأرض. قصة عجنون أتاحت لي فرصة لأتحدث عن تاريخنا. لم أتلق من المدير أو غيره من المسؤولين أية ملاحظة على ذلك.

أعرف عن حالات أخرى. لا شك عندي بأن جهاز الأمن العام حرص على توظيف معلمين "موالين" بنظره، معلمين مصادق عليهم. معلمين من العرب "الجيدون". من كان نشيطًا سياسيًا في الجامعة فانه لم يُقبل. مع إن الامور تغيّرت مع مر السنين، إلا أن الظاهرة لم تختف نهائيًا. معلم المدنيات، والتاريخ أو الجغرافيا، معلم لأي موضوع "حساس"، عليه أن يسير بين النقاط. بين حين وآخر يتم اصدار منشور المدير العام في وزارة التعليم مع توجيهات عامة حول المسموح والممنوع في الصف، وما هي حدود النقاش السياسيّ. الأمر ليس واضحًا. الأمور ليست أسود أو أبيض، والأمور ليست مطلقة. على كل معلم أن يزن الأمور. شخصيًا وعلى مدى عشرات سنوات التعليم لا

أذكر أنني واجهت مشكلة على هذه الخلفية، لا مع الإدارة، أو وزارة التعليم، ولا مع التلاميذ أو أهاليهم.

علاوة على الصعوبات الخارجيّة، يحتاج معلم المدنيات في المدرسة العربيّة إلى التعامل مع مشاكل داخل الصف: كيف يعلّمون المدنيات لتلاميذ عرب في اسرائيل؟ التلاميذ لم يحبوا حصص المدنيات. كان لدينا كتاب تعليم جاف تُرجم من العبريّة للعربيّة، وهو لم يخاطب التلاميذ. كان ملائمًا أكثر لليهود، وشمل مصطلحات لم يفهمها تلاميذي. اتخذت قرارًا شخصيًا واتفقنا على تخصيص نصف وقت الدرس لتعلم مواد من الكتاب، والنصف الاخر للحديث عن أحداث الساعة، وهذا ما أحبه التلاميذ. تحدثنا عن أمور مختلفة تماما عمّا جاء في الكتاب، وأعطيتهم حرية التعبير. في فترة الانتفاضة الاولى على سبيل المثال شرحت لهم أسباب نشوبها، وما الفرق بيننا وبين اخواننا في الطرف الآخر، ومن أجل ماذا يناضلون، وعلى ماذا نضالنا نحن كمواطنين في دولة اسرائيل، وأن النضال يجب أن يكون ضمن إطار القانون. كانت نقاشات كثيرة، لان الشباب بطبيعتهم أقل صبرًا وأكثر تطرفًا. لكن حينما يتم الشرح لهم منطقيًا وباعتدال فإنهم يفهمون ويتقبلون. من ضمن الحوارات حول القضايا الآنيّة، حدثتهم عن تاريخنا. حدثتهم عن قيام دولة اسرائيل، وتحدثت عن كيف حدث أن بقي عرب في الدولة، عن نضال اليهود من أجل الاستقلال، عن النكبة وعن اللاجئين الفلسطينيين في الدول العربيّة. هذه الأمور لا تُبحث عادة في المدارس، ولا في العديد من البيوت. ليس للأولاد أية فرصة للسماع عن الدول العربيّة والتعلم عن جغرافيتها وتاريخها، وعن الحركات الوطنيّة التي قامت فيها، وعن الأمور الاجتماعيّة هناك، وعن الحياة اليوميّة فيها. في تلك الفترة لم يكونوا على تواصل مع الفضائيات العربيّة، وعمليًا كانوا منقطعين عن العالم العربي. مع ذلك اهتم التلاميذ واظهروا معرفة مفاجئة تلقوها في البيت أو من الأصدقاء، ومواقفهم كانت غالبًا وطنية مع اعتزاز كبير. خلال الحصص كنت أطرح الاسئلة ونتحدث حولها. هم تحدثوا

بصراحة عن فقدان الأرض وعن أنهم ليسوا مواطنين متساوين كاليهود. هذا لم يكن مقبولا في المدارس ولكني رأيته ضروريًا ومهمًا، والتلاميذ أحبوا هذه المحادثات. الخروج عن برنامج التعليم كان مقبولا على مدير المدرسة، وواضح أن أسئلة الامتحانات يجب أن تكون من مواد كتب التدريس وليس من المواد خارج إطار برنامج التعليم. درّست الموضوع لصفوف الثامن والتاسع. امتحان البجروت في المدنيات يكون في الصف الحادي عشر، لكنني أفترض أن ما تعلموه عندي تم استيعابه للمدى الطويل.

عندما بدأت التعليم لم تكن لدينا برامج تعليم جيدة وملائمة ولا صفوف كافية. هذه المشاكل يعاني منها التعليم العربيّ منذ سنين، ويمكننا الحديث عنها إلى ما لا نهاية. كُتبت عنها الدراسات ووُضعت الخطط الخماسية لتغيير الوضع، من قبل الحكومة ومن خلال تشكيلات داخلية لدينا، معلمين وأكاديميين من المجتمع العربيّ. أشير برضى أننا نلحظ تحسنًا كبيرًا. في سنوات التسعينيات بدأ يظهر في المدارس معلمون أكفّاء وجيدون، خريجو جامعات، وذوي معرفة ودافعيّة عالية. في البداية نقص بعضهم الجانب التعليميّ، أي شهادة ورخصة تدريس. فمعظمهم أنهوا تعليمهم للقب الأول وبدأوا مباشرة بممارسة بالتعليم، دون أن يتعلموا أصول التدريس. لاحقًا طلبت وزارة التعليم بأن يحصل المعلمون على شهادة تدريس. اليوم الوضع أفضل من السابق. تعيين المعلمين أصبح أكثر شفافيّة، ولو أراد رئيس السلطة المحليّة التدخل من أجل تعيين أحد أقاربه، فهذا لم يعد ينجح غالبًا. برامج التعليم حُدِثَت وتوضع بأيدي طواقم مختصة من المعلمين العرب الذين يطورون أساليب جديدة في التعليم. كما أن دخول الحواسيب والإنترنت أثّر على الوضع كثيرًا. اليوم يحصل التلميذ على أغلب المعلومات، ليس من المعلم، وإنما من وسائل الاتصالات والعالم الافتراضي. كل تلميذ يمكنه من خلال الشبكة ايجاد جواب لكل سؤال. لا يوجد من يستطيع أن يمنعه من التوجه لأي موقع يرغب به، وأن يقرأ ويعرف عن

أي موضوع يهمه. اولاد اليوم أكثر خبرة منا في عالم التكنولوجيا والإنترنت، وفي هذا المجال المعلمون متأخرون عن تلاميذهم.

التدريس حالة افتراضيّة

مع ذلك ثمة كثير ما يمكن للمعلم أن يعمله. بالذات في عالم مليء بالمعلومات، يضطر التلاميذ أحيانًا إلى شخص ينظم لهم الأمور ويضعها في نصابها، ويتباحث معهم بما يقرأون ويرون، ويوجههم في طرق الحياة. هكذا أرى مهمة المعلم اليوم: مثقفًا وموجها أكثر منه مصدراً للمعرفة.

رغم جميع التحديات في عمل المعلم وما يتضمنه من اكتفاء ذاتي، إلا أن التعليم هو بمثابة حالة افتراضيّة بالنسبة لخريجي الجامعات العرب. كثيرون لا يجدون لهم عملًا آخر، فيصبحون معلمون، وليس دائما برغبتهم. في مجتمعنا وزارة التعليم والسلطات المحليّة هم المشغّل الأساسيّ. الكل يتنافس على وظائف التعليم، وهنالك بطالة كبيرة بين المعلمين والمعلمات. هناك شريحة كاملة من خريجي المواضيع الإنسانية في المعاهد والجامعات تعاني من البطالة. إذا كنت خريج علوم، لن تتمكن من الانضمام لأي مكان عمل آخر سوى جهاز التعليم. هذا وضع غير سليم وغير صحي.

صحيح أن جهاز التعليم يوظّف خريجي جامعات من المستوى العالي، لكن بعضهم محبطون ويعلّمون رغمًا عنهم، فهم يفضلون العمل في وظائف تلائم كفاءاتهم وذات دخل أعلى. شروط عمل المعلمين لدينا ليست جيّدة، وخاصة في المدارس الثانوية حيث المشغّل هو المجلس المحليّ، وليس لديه المال لدفع الرواتب في موعدها. تجدر الإشارة هنا إلى وجود ظاهرة المعلمين الذين يعملون بوظيفة إضافية لتكملة الدخل، رغم أن وزارة التعليم منعت ذلك.

المعلمون، وبالأخص الرجال، يخرجون للعمل بعد الظهر، وفي المساء ونهاية الأسبوع. هم ملزمون بذلك، حيث أن معاش المعلم لا يكفي لإعالة عائلة.

مشكلة اخرى تتعلق في مستوى التعليم، هي أن معاهد المعلمين تقبل تقريباً كن من يتسجل إليها، بغض النظر عن المستوى. أغلبية التلاميذ الجيّدون يتابعون دراستهم الجامعيّة في البلاد أو في الخارج. وهو الوضع المؤسف الذي يجلب إلى التعليم في المدارس الابتدائيّة والإعداديّة معلمون غير ملائمين للتعليم، مع أنهم درسوا في كليات المعلمين. ازدياد عدد الخريجين يؤدي إلى البطالة. تمر سنوات إلى أن يتم الحصول على وظيفة ملائمة، وحت يحين ذلك تتلاشى دافعيّة المرشحين للتعليم.

بالمقابل، في التعليم الثانوي، علاوة على شهادة التدريس مطلوب لقب جامعيّ، لذا فان مستوى المعلمين أعلى. لكن هنالك مشكلة أخرى هي التآكل. في اغلب الاحيان ترفض وزارة التعليم المصادقة على الخروج المبكر للتقاعد، وهكذا يبقى في الجهاز معلمون متعبون ومسحوقون. أعرف معلمين بدأوا التعليم معي منذ أكثر من أربعين سنة وما زالوا يعلمون. تخيلوا معلماً، حاضنة أو مديراً متواجدين في جهاز التعليم منذ أربعين سنة. لا شك أنهم ملّوا. هم لا يتركون لأنه ليس لهم مكان آخر يتوجهون إليه، الأمر الذي يؤثر سلباً على دافعيّتهم، وعلى جودة التعليم كذلك.

سيرورة اخرى ميّزت العقدين الأخيرين، هي ظاهرية النسويّة في جهاز التعليم. أذكر أنه عندما عُينت امرأة كمديرة لمدرسة كان الامر بمثابة معجزة. كان ذلك خارجا عن المألوف، واستدعى بعض المعارضة. لكن اليوم النساء تدير حاولي 80% من المدارس. منذ أن بدأت طالباتنا التعلم في الجامعات والكليّات، بدأ يزداد عددهن في المدارس وبالمقابل يتقلص عدد المعلمين الذكور. سياسة وزارة التعليم اليوم تشجع النساء لتولي الإدارة والصورة في

المدارس اختلفت بشكل كليّ. على سبيل المثال، عندما تركت التعليم في عام 2006 كان هنالك حوالي عشرون معلمًا وخمس معلمات، أما اليوم فالنسبة معكوسة: ثلاثون معلمة وعشر معلمين. المديرة كانت إحدى تلميذاتي. درَستْ موضوع الرياضيات والعلوم وكانت تلميذة متفوقة، وهي خريجة جامعيّة وحائزة على شهادة تدريس.

بغية معالجة أزمة بطالة المعلمين العرب كانت هنالك عدة مبادرات وبرامج لدمج معلمين عرب في المدارس اليهوديّة. نجح الأمر في أماكن قليلة، وفقط في تعليم اللغة العربيّة. عندما كان أمنون روبنشتين وزيراً للتربية والتعليم، بادرنا في جبعات حبيبة لمشروع اعداد معلمين عرب لتدريس اللغة العربيّة في المدارس اليهوديّة. كان هناك حماس كبير وتسجل العديد من المعلمين، لكن في الواقع قلة فقط تم استيعابهم في المدارس اليهوديّة. وانا اتساءل، لِمَ لا يعلم معلم عربيّ العلوم، والرياضة، والفنون، أو أي موضوع آخر من اختصاصه؟ برأيي هذه هي الطريقة الأمثل للتعارف المتبادل وعن قرب، ولكسر التفكير النمطيّ والآراء المسبقة، وللدمج الحقيقيّ وللاستفادة من الموارد البشريّة العربيّة لصالح عامة مواطني الدولة. هذا مسار لما أيأس منه بعد.

السعي وراء التعليم العالي

رغم كل النقد تجاه المدارس ومستوى التعليم، فإننا نشهد في السنوات الأخيرة ظاهرة رائعة، هي الرغبة في التعليم العالي. كل عائلة تقريبا ستعمل كل في وسعها لكي يدرس أولادها في الجامعة أو الكليّة. عائلات فقيرة أيضًا تتجند وتموّل تعليم أولادها للدارسات العليا تقديراً منها لأهميّة التعليم لمستقبلهم الشخصي، ومستقل المجتمع ككل. التعليم ضروريّ اليوم من الناحية الاقتصاديّة، ومن الناحية الاجتماعيّة. يسعدني أن العديد من العائلات تطمح لتعليم أولادهم في الجامعات، ولأن ينجحوا في تعليمهم. أدت هذه الظاهرة إلى

الاستثمار في الدروس الخصوصيّة في المرحلة الثانوية. يحدث أحيانًا أن يقوم معلم صفوف الثواني عشر بتوفير الدروس الخصوصيّة للتلاميذ بعد ساعات الدوام. من يملك المال يوفّر لأولاده المزيد من فرص واحتمالات النجاح، كما هو الحال في المجتمع اليهوديّ. التعليم العالي وخروج المرأة إلى العمل غيّر وجه مجتمعنا. العائلات تقلصت، عدد الاولاد تقلص، والأهالي يرغبون بمنح أولادهم حياة الرفاهية والتعليم الجيد. المرأة التي تشارك في إعالة العائلة تعزز مكانتها في البيت. نشهد اليوم بروز طبقة وسطى في المجتمع العربيّ في إسرائيل من العاملين في المهن الحرة، مما يغيّر وجهة المجتمع.

يعود فضل كبير في التعليم العالي للمدارس الأهليّة المسيحيّة، حيث مستويات التعليم عالية، وهي الأكثر تفوقًا على المستوى القطري، ليس بين المدارس العربية فحسب. في هذه المدارس يعلم فقط معلمون ممتازون، وهي تقبل التلاميذ المتفوقين فقط. من جهة يرفع هذا مستوى التعليم والثقافة، لكنه يضعف المدارس الحكومية أيضًا، حيث يجري تفريغها من خيرة تلاميذها. إضافة إلى المدارس الأهلية المسيحيّة، ظهرت مدارس خصوصيّة اخرى، كما في وادي عارة على سبيل المثال. وهي تتنافس اليوم على استقطاب أفضل التلاميذ. في السنتين الاخيرتين هنالك جهود خاصة من قبل الدولة لتشجيع العرب على الالتحاق في الأكاديميا، وهنالك خطة حكومية ممولة من قبل مجلس التعليم العالي لتشجيع ومرافقة الطلاب العرب. ربما هذا من تأثيرات تقارير منظمة التعاون الاقتصادي (OECD)، التي تؤكد على الطاقات الكامنة غير المستغلة للجماهير العربية (والحريديم اليهود) في سوق العمل والتعليم العالي. انا أُؤيد هذا التوجه وأشجع كل شاب وشابة عرب على التعلم في الجامعة والتقدم.

جبعات حبيبة بيتي الثاني

بدأت التطوّع في معهد للدراسات العربيّة في "جبعات حبيبة" عام 1974. مع الوقت غيّرنا اسمها إلى "المركز اليهودي- العربي للسلام". اسم يعبّر على نحو أفضل عن مجال نشاطات المركز. في هذه الأيّام أتولّى إدارة هذا المركز للمرة الثانية. أشعر أنني قدمت مساهمة حاسمة لهيكلته، ولتطوّره وللإنجازات التي تحققت خلال السنوات الطويلة التي مرّت منذ أن ربطت مصيري بمصير هذا المكان الجميل. هذا لا يعني أنه لا توجد مشاكل كما في كل تنظيم، وأنّه ليس لدي انتقاد ذاتي وفي أمور أخرى على أشياء قمنا بها وأخرى لم نقم بها؛ لكننا عملنا في كل المجالات التي تمس العلاقة بين اليهود والعرب تقريبا، وكل برنامج وفكرة لتعزيز المجتمع العربي انطلقا من هنا. كما أنّ الكثيرين من أولئك العاملين اليوم في منظمات المجتمع المدني قد ترعرعوا في "جفعات حبيبه"، وحصلوا على تأهيلهم وأجروا التجارب واستخلصوا النتائج، وأنا فخور بأنهم تابعوا المسيرة وأقاموا تنظيمات جديدة.

تطوّعي الأول في"جبعات حبيبة" كان في المكتبة والتي أسميناها "مركز المعلومات". أسستها مع المرحوم، الدكتور يوسف فيشتس. دكتور فيشتس يهودي قدم إلى البلاد من ألمانيا وكان من مؤسسي كيبوتس داليا وبعد ذلك انتقل الى كيبوتس "لهفوت هبشان" في الشمال. كان يتحدث العربية بشكل جيّد ولكن بلهجة ثقيلة كانت مضحكة في بعض الأحيان، ولكنه تحدث جيدا، كما وعرف اللغة العربيّة الفصيحة وكان خبيراً في تاريخ المنطقة والشعوب العربيّة. لقد أعجبني أن يتحدث يهوديا أشكنازيا العربية ويهتم بنا. عمل في الخمسينيات في الدائرة العربيّة لحزب " المبام" وتعلم معرفة المجتمع العربي من خلال جولاته ولقاءاته. كان مهذباً ومؤدباً، رجل معرفة وثقافة واسعة. فيشتس طلب مساعدتي بتوسيع معرفته بالسكان العرب في القرى المحيطة بجفعات حبيبة. كنت يومها شاباً صغيراً وكان لي الشرف مرافقته إلى قرى المثلث وأن أقدّمه أمام كبار شخصيّات المجتمع العربيّ المحترمين وأمكنّه من

التحدث معهم، والاستماع إلى مشاكلهم والتعرف بعمق على حضارتنا وحياتنا كعرب في دولة اسرائيل. كتب بعد ذلك كتبًا وأبحاثًا كثيرة في هذا الموضوع وتخصّص أيضا في فترة الانتداب. قام بنشر مقالات عديدة في إطار عمله في المعهد وفي سن متقدّمة كتب رسالة الدكتوراه عن سكن وحياة العرب في فترة الانتداب في حيفا. لكنه حصل على شهادة الدكتوراه بعد وفاته. كان ذلك بعد سنوات عديدة من بداية عملنا معًا.

في أحد الايام قال لي فيشيتس: تعال لنقيم مكتبة عربيّة. يومها كانت في جبعات حبيبة مكتبة صغيرة بالعبرية طبعًا، فأراد توسيعها. خصصنا لهذا الموضوع مبلغًا معينًا من المال، وسافرنا سوية إلى مكتبة كبيرة ومعروفة في القدس الشرقيّة لنشتري الكتب العربية. قضينا هناك عدة ساعات وقمت أنا باختيار معظم الكتب. معظم تلك الكتب ما زال في المكتبة حتى اليوم. لقد قابلت هناك الكاتب إسحاق الحسينيّ، وهو كاتب فلسطيني بارز، ومن كتبه "مذكرات دجاجة"، وهو كتاب مثير للاهتمام تعلمناه في المدرسة. لقد انفعلت وسعدت بالجلوس والحديث معه. خلال عملي في جبعات حبيبه التقيت لاحقًا فيصل الحسيني وأقمنا علاقة مع "مركز الدراسات العربيّة" الذي اقامه وأداره فيصل الحسيني، وكان مقره يومها في فندق "اوريينت هاوس".

تم تعييني لاحقًا معلمًا في صفوف تعليم العربيّة في جبعات حبيبة، وقمت بتركيز اللقاءات العربيّة اليهوديّة، وكنت مسؤولًا عن العلاقة مع المجتمع العربيّ. موقع جبعات حبيبة \ في مركز المثلث، حوّلها إلى ملتقى المثقفين العرب في المنطقة، وخاصة المعلمين. في تلك الفترة حلم معظمهم بأخذ قسط في فعّاليّاتنا، حيث لم تكن هناك فعّاليّات ثقافيّة أخرى في المنطقة، ولم تكن هناك أماكن لقاء للمحادثة والتعلم، هذا الوضع منحني مكانة كبيرة ووسع دائرة معارفي مع العرب واليهود أكثر. بدأنا بتنظيم دورات استكمال للمعلمين في مواضيع المواطنة والتربية للديمقراطيّة، وهي مواضيع جديدة، أدخلت يومها إلى برامج التعليم في المدارس العربيّة، وكانت هناك حاجة لتدريب المعلمين عليها.

تعلم عندنا العشرات من المعلمين من جميع أنحاء البلاد، الأمر الذي ساعد في تطوير علاقاتي الاجتماعية.

سنوات سلام

شاركت في دورات تأهيل مختلفة في البلاد والخارج من أجل تطوير مستوى الدورات عندنا. بين سنوات 1996–2005 تسلمنا انا ود. سارة اوستسكي ليزر إدارة المركز. عملنا بشراكة وتعاون ومن خلال التعلم المتبادل. شاركنا في دورات، واجتماعات وجولات لتجنيد الأموال في البلاد والخارج. زرت دولا كثيرة، الولايات المتحدة، كندا، البرازيل، أوروبا، الشرق الاقصى، وجميع دول الجوتر والتي سمح للمواطن الإسرائيليّ بزيارتها. الخروج إلى تلك البلاد أثراني، وفتح عينيّ على مشاكل ونجاحات الآخرين، فتعززت علاقاتي مع منظمات السلام في البلاد والخارج. لقد استصعبت اللغة الإنكليزيّة، لكن بطريقة أو أخرى تدبرت أموري، خاصة عندما كانت سارة إلى جانبي. ما زلت مستمر حتى اليوم في بناء علاقات دافئة مع كل الحضارات والبلاد. يعزو البعض ذلك إلى شخصيتيّ المريحة والدافئة وقدراتي على بناء علاقات إنسانية. أيضًا الفلسطينيون في الضفة وغزة قدّروا عملنا، وقاموا بالاتصال بنا بمبادرة منهم من أجل القيام بمشاريع مشتركة والاستفادة من تجربتنا.

في عام 1986، قبل الانتفاضة الأولى بقليل، اتصل بنا ناشط حقوق الإنسان في قطاع غزة، عمر شعبان إسماعيل، والذي كان يعمل يومها في منظمة العفو الدولية، وقد تعرف على "سلسو جربرز" من راموت منشة، الذي كان يعمل معنا وهو ناشط في منظمة العفو الدوليّة. أثمرت العلاقة مع عمر شراكة لسنوات طويلة. أقمنا عشرات الدورات لأشخاص من قطاع غزة في مواضيع كثيرة ومتنوعة، مثل الزراعة، والري، التعليم في الطفولة المبكرة، لقاءات نسائيّة ولقاءات أكاديميّة. زرنا مع وفود أجنبية غزة العديد من المرات. عمر أسس جمعيّة للتطوير الاقتصاديّ والسلام، وتبرع أصدقاء جبعات حبيبة في الولايات المتحدة لإقامة مكتبًا للجمعيّة في قلب غزة. ولا أنسي حفل افتتاح المكتب

والذي شارك به طاقم كبير من عندنا ووفد من أمريكا برئاسة فريد هاورد، والذي كان صديقًا حقيقيًا لجبعات حبيبة، وأحد المتبرعين الكبار لها. كان ذلك في عام 1994، عام متفائل جاء بعد اتفاق أوسلو وقبل مقتل اسحاق رابين. حلمنا جميعًا يومها بشرق أوسط آخر، وبإقامة دولة فلسطينيّة مستقلة وعلاقات اقتصاديّة ودبلوماسيّة مع اسرائيل، ورأينا أنفسنا حلقة مهمة في تطوير العلاقات بين الشعوب. قلنا دائما وآمنا بأن القادة يستطيعون التوقيع على اتفاقيات، لكن منظمات المجتمع المدنيّ هي من تستطيع إعادة بناء الثقة بين الشعوب، وبناء جسور السلام. في تلك الفترة ولد لعمر الأبن البكر فأسماه سلام، ولم يخطر ببالنا انه وبعد عشرين سنة سوف تتدهور الأوضاع. كنا ممتلئين بالثقة ومؤمنين حتى النهاية أن المسيرة السلميّة سوف تنجح. حتى اليوم ما زلت على علاقة هاتفية مع عمر، وبطبيعة الحال لا أستطيع الذهاب إليه، وهو أيضًا لا يستطيع القدوم إلى إسرائيل. غزة مغلقة ومحاصرة. جمعيّته تلاشت منذ فترة طويلة، لكن عمر أقام مؤسسة أبحاث، تعمل بظروف مستحيلة، تجري الدراسات ويتم نشرها على الإنترنت. وأعلم أنه يقيم حوارات بين المجموعات المختلفة في قطاع غزة، بين حماس وفتح.

في العام 1993 وبعد اتفاقيات أوسلو، عندما أقيمت السلطة الفلسطينيّة، سافرنا إلى غزة للمشاركة بالاحتفالات. تم استقبالنا بفرحة وبشكل طبيعيّ. أذكر أننا جلسنا مع عمر في مطعم السلام على شاطئ بحر غزة، وكان في الجو الشعور بالأمل. حلمنا بالأيام القادمة، التي ستقام بها دولة فلسطينيّة، ويعيش الشعبان بسلام جنبًا إلى جنب. هذا الشعور كان ملموسًا جدًا. الرئيس المرحوم ياسر عرفات استضاف في المقاطعة في رام الله أربعة وفود من جبعات حبيبة ترأستها انا.

لقد زرنا غزة مرات إضافيّة، وقمنا بتوسيع النشاطات المشتركة مع منظمات وجمعيّات أقيمت في الضفة الغربيّة بعد أوسلو. الكثير من الأموال صرفت في المنطقة، خاصة من أوروبا لكن أيضًا من مصادر أخرى، بغرض تعزيز

المجتمع المدنيّ ومنظمات السلام. أقام النرويجيون برنامجًا أسموه "P2P"، أقمنا من خلاله لقاءات كثيرة في الضفة الغربيّة، وبرامج تعزيز مجتمعيّ واقتصاديّ هناك. لقد حول الإتحاد الاوروبي ومؤسسات أخرى الأموال للسلطة الفلسطينيّة ولجمعيّات من الطرفين. لقد آمنوا جميعًا أن السلام سيتعزز ويتطور من خلال البسطاء، من خلال الشعب، وليس من خلال السياسيين.

بفضل علاقاتي الجيدة مع أبناء عائلتي في برطعة الشرقيّة وفي يعبد، والذين كانوا من قادة الانتفاضة ونالوا احترام السلطة الفلسطينيّة لهم، وبفضل المركز اليهوديّ العربيّ للسلام في جبعات حبيبة – المنظمة الرائدة في مجال تطوير العلاقات مع الفلسطينيين والتثقيف للسلام، أقمت شبكة واسعة من العلاقات في الضفة الغربيّة، والقدس الشرقيّة وقطاع غزة. كانت تلك سنوات القمة في نشاطاتنا مع الفلسطينيين. بادرنا كل الوقت بأفكار جديدة ولبينا أيضًا توجهات جائتنا من شخصيات ومنظمات فلسطينية لبناء خطط ملائمة لاحتياجات السكان. أدرنا سارة وأنا المركز، بمساعدة الطاقم الكبير والمتفاني من المحاضرين ومديري المشاريع، واجتهدنا كثيراً لتطوير معرفة المركز، وتطوير فعّاليّاته بين اليهود والعرب في اسرائيل، وبين الفلسطينيين والإسرائيليين. التنقل عن طريق المعابر كان سهلًا، وفرح الناس باللقاء والمحاورة. كانت هناك رائحة تغيير في الجو وتوقع الفلسطينيون التحرر أخيراً من عبء الاحتلال، وإقامة دولتهم المستقلة، فأرادوا التعلم بأسرع وقت من تجربة اسرائيل، في جميع المجالات.

في العام 2001 حصلنا على جائزة اليونيسكو للتربية والسلام بفضل عملنا التثقيفي. حفل الحصول على الجائزة كان رهيباً ومؤثرًا. بعد عدة أعوام تركت سارة العمل وواصلت أنا إدارة المركز حتى العام 2005، عندها أنتخبت لرئاسة مجلس "بسمة" (عن ذلك سأتحدث لاحقاً)، وبعد دورة واحدة عدت إلى جبعات حبيبة.

آمال التغيير

في فترة ما بعد أوسلو بدأت بالوصول الى منطقة خط التماس مجموعات من خارج البلاد واصبحت برطعة بؤرة سياحيّة مهمة لكل من أراد فهم ما يحدث هنا. من خلال جبعات حبيبة قمنا بتنظيم حلقات وجولات لآلاف الأشخاص من كافة أنحاء العالم، مرة تلو المرة شرحت قصة برطعة المقسّمة، وشرحت التعقيدات الكثيرة في حياتنا كفلسطينيين ومواطنين إسرائيليين. كانت الأجواء مريحة وتبعث الأمل، وكان من السهل أكثر أن نشرح الأمور. حياتنا اليوميّة كانت أسهل. أنا وشريكتي سارة وعدد من الشخصيات في المنطقة، بينهم صديقي جلال أبو طعمة رئيس مجلس باقة الغربية سابقا، الذي توفي في سن مبكرة، حلمنا بتحويل برطعة إلى أنموذج للحياة المشتركة. قلنا لأنفسنا أنه يجب أن تتوحّد برطعة من جديد، وأن تتحول إلى شكل مصغر لدولة مشتركة تحت سيادة الطرفين. قمنا برسم تخطيط لإعادة بناء الوادي، ومكان تنزه على طول الوادي يضم الدكاكين والمطاعم والمتاجر صغيرة، وسوق جميل تباع به المنتجات الزراعيّة من المنطقة، ويكون ملتقى للعرب واليهود. خططنا لإقامة مركز للبرامج الثقافية المشتركة. العديد من الأحلام التي بدت وكأنها واقعية. من يزور برطعة اليوم يرى أنه نبت من كل هذا الحلم بشكل تلقائي سوق ضخم ورخيص يأتي اليه المتسوقون من كل أنحاء البلاد، غالبيتهم عرب وقليل من اليهود. عن المشاكل التي يثيرها السوق كتبت في الفقرة عن برطعة، وأشير هنا أنه رغم ذلك هناك أفضليّات ليست قليلة، فهو مصدر معيشة للكثيرين من أهالي برطعة والقرى المجاورة، وأدى إلى الازدهار الاقتصاديُّ.

للأسف الشديد، في الوقت الذي أكتب به هذه الذكريات، بداية العام 2015، الوضع في المنطقة محزن جداً، هناك فصل وقطيعة بين الشعبين، بُنيت بينهم الأسوار المادية والنفسية، كانت هناك عدة جولات من العنف. القليل من الثقة التي نجحنا في بنائها قد تحطمت أمام هذا الواقع. كلمة "سلام" تحولت إلى كلمة شاذة، عنوان للسخرية. من لا يزال يؤمن بامكانية تحقيق السلام يعتبر

ساذجًا بأحسن الأحوال، وغبيًا باشدها. أنا على استعداد أن ينعتوني بالساذج والغبيّ، وطالما بقيت حيًا سأواصل الايمان بالسلام وسأعمل ما استطعت لأطور هذا العمل السامي. لا أرى طريقًا غير هذا. العنف لم يقربنا لأي مكان، انما تسبب بالمعاناة للجميع وعمق الخوف والكراهية. كفلسطينيّ واسرائيليّ في الوقت نفسه، وكمن يعيش في عالمين وينتمي إلى مجتمعين، أعتقد أن بإمكاني العمل كثيراً لتحقيق هذه المهام. لذلك وجدت من المناسب أن أعود إلى جبعات حبيبة، وأجدد نشاطي هناك. الوضع الآن أصعب ومحبط أكثر، لكنه غير مستحيل.

الأوائل

بغية مؤازرة نفسي وزملائي في العمل، أنظر إلى الماضي، وأرى ما قمنا به بفخر. كنا في جبعات حبيبة الأوائل ممن عملوا في كل مجال مرتبط بالعلاقات اليهوديّة العربيّة في إسرائيل. لقد أسسنا البنية التحتية. فعلى سبيل المثال، أدخلت وزارة التربية والتعليم في نهاية الثمانينيات التثقيف الاجتماعيّ للمدارس. كان هذا الموضوع جديدًا للغاية في المدارس العربيّة. أخذنا على عاتقنا تدريب المعلمين العرب على التثقيف الاجتماعيّ، الذي يحوي كافة الفعّاليّات اللا منهجيّة في المدارس. غالبية المعلمين في التثقيف الاجتماعيّ في المدارس العربيّة في المثلث والجليل، هم من خريجي جبعات حبيبة. زودناهم بالأدوات، ورافقناهم بعد ذلك في عملهم، وشرحنا لهم معنى التثقيف الاجتماعيّ، واستدخلنا في أعماقهم الدوافع لتعليم هذا المجال. كي تكون معلمًا جيدًا، وتستطيع إيصال الرسائل إلى التلاميذ، عليك أن تختبر بنفسك هذا التحول.

مثال آخر، هو دورات استكمال المعلمين في سنة إجازة. تلزم وزارة التربية والتعليم كل معلم أن يستغل سنوات الإجازة كي يتطور ويتقدم. لكن هناك معلمين كثر استغلوا أموال سنة الإجازة لأهداف أخرى. قمنا بمبادرة من أجل هؤلاء المعلمين، وبنينا برامج تعليم متطورة جديدة وجذابة، التي شملت أيضًا

امكانية السفر إلى خارج البلاد مع الزوج أو الزوجة. كانت تلك ثورة. طوّرنا دورات شاملة حول مصر، وتركيا، وإسبانيا، وايطاليا والمغرب، سافر من خلالها مئات المعلمين خارج البلاد بعد أن شاركوا في دورة استكمال بالتاريخ والحضارة عن دول الشرق الاوسط. في تلك الفترة لم يكثر الناس من السفر خارج البلاد. لم نقدم سفرات عبثية، إنما جولات تعليميّة ومغاماراتية. انضممت إلى معظم الرحلات، وكل رحلة كانت ذات مذاق خاص. شعرت أنه قد فتح أمامنا عالم لم نعرفه. خرجنا من فقاعتنا وتعلمنا أشياء جديدة. أذكر الدروس حول الأقليّة الكرديّة في تركيا، ومذبحة الأرمن، أو الفترة الذهبية لليهود والمسلمين في إسبانيا. منحت هذه الامور المعلمين نظرة جديدة. في هذه الأيام يكثر الناس السفر إلى تركيا للاستجمام. السفر الى خارج البلاد أصبح امراً عادياً. لكن حينه، في نهاية سنوات الثمانينيات وخلال سنوات التسعينيات كان ذلك تطوراً جديداً. أحب المعلمون تلك الرحلات، وحتى اليوم حين أقابل أحد المعلمين يسألني متى ستكون الرحلة القادمة.

مجال هام آخر كنا نحن السبّاقين له، هو تعزيز المرأة. العديد من النساء العربيات شاركن بدورات الاستكمال في جبعات حبيبة في مواضيع تتعلق بهن وبمكانتهن في المجتمع. قمنا دورات تثقيفيّة عن حياة العائلة، كانت جريئة في تلك الفترة. المحاضرة في تلك الدورات كانت روتي عتير من كيبوتس معنيت، وبعدها صفاء طميش من عكا. قدمن للنساء فرصة للتحدث عن أكثر المواضيع حساسيّة داخل العائلة، وتشاطر المشاعر مع صديقاتهن، ليعلمن أنهن لسن وحيدات. كما تطرقنا بحساسيّة إلى موضوع العنف داخل العائلة، وساعدنا النساء على مساعدة أنفسهن للخروج من دائرة العنف، وتعزيز مكانتهن داخل العائلة.

برنامج أفتخر به على نحو خاص كان برنامج "نساء في المجتمع"، الذي تعلمت من خلاله نساء عربيّات ويهوديّات كيف يعملن من أجل مجتمعهن، وأن يأخذن مكانهن المناسب في المجتمع. من هذا المشروع خرجت جمعيّات

نسويّة فعّالة حتى اليوم. في كفرقرع على سبيل المثال، أقامت خريجات هذا البرنامج جمعيّة "من اجلك" تقودها أمنة كناعنة. ما زالت الجمعيّة فعّالة جدًا في كفرقرع والقرى المجاورة، تساعد النساء على التعلم، وإقامة مصالح تجارية صغيرة، ورحلات لتعزيز أنفسهن بكل السبل.

كما تنظّم أمنة فعّاليّات مشتركة لنساء عربيّات ويهوديّات، وأُقامت مع آخريات "جيران سلام"، وهي مبادرة عفويّة قامت خلال الحرب على غزّة عام 2014، تنظم تظاهرات احتجاجيّة هادئة ضد الحرب والعنف في أيام الجمعة على طول شارع وادي عارة. لقد امتلكت معظم االنساء اللواتي تعلمن في جبعات حبيبة مهارات جديدة أفادتهن وأبناء عائلاتهن، طوّرتهن في حياتهن الجماهيريّة وأيضا في حياتهن الخاصة. يجدر بي أن أذكر أن كل هذه الفعّاليّات أقيمت بتعاون مشترك. دأب المختصّون من الشعبين، الذين عرفوا المنطقة ودرسوا الاحتياجات، على صوغ مضامين الفعّاليّات. لم نحاول أن نفرض مضمونًا يتعارض مع التربية والرغبة والاحتياجات الاجتماعيّة والشخصيّة.

كانت لنا أيضا مساهمة غير قليلة في مجال الإعلام. في سنوات التسعينيات كانت هناك مدرسة للإعلام في جبعات حبيبة، والتي كانت مشتركة لليهود والعرب من بداية عهدها. لم يكن هذا الموضوع معروفًا في مجتمعنا وفي المدارس. أفخر اليوم بأن أرى منتجين وإعلاميين فعّالين، من الذين بدأوا خطواتهم الأولى هنا، وأفلامهم الأولى أنتجت في باحات جبعات حبيبة. مثل المخرجة الرائعة إبتسام مراعنة من الفريديس، التي وصلت الينا شابة صغيرة وبرزت بموهبتها مباشرة. منذ ذلك الوقت اجتهدت وأصبحت مخرجة مرموقة ومحاضرة في كليّة بتسليل. في الأفلام التي تنتجها تُسمع إبتسام صوتًا فريدًا ومهمًا. خريج أخر للمدرسة هو مصوّر القناة الثانية مؤنس زحالقة من كفر قرع وهناك آخرون كثر.

عملت سنوات طويلة إلى جانب أصدقاء وزملاء يهود، الكثير منهم أعضاء في الكيبوتسات، قدّرت بشدّة رغبتهم الدائمة للتعلم، الاستكمال والتقدّم. أردت

أن أدخل هذه المبادرة لمجتمعنا ومن أجل ذلك بادرنا في جبعات حبيبة إلى إقامة دورات إثراء على نطاق واسع من المواضيع المهنيّة، والسياسيّة والتربويّة. اقترحنا، على سبيل المثال دورات مهنيّة للصحفيين، لمحاسبي السلطات المحليّة، للناطقين بلسان المجالس وغيرهم. كان ذلك قبل أن يفكر أحدًا بتعزيز وتقوية المجالس المحليّة العربيّة، واليوم توجد جمعيّة تعمل في هذا المجال، وأيضًا وزارة الداخلية تعمل على هذا الموضوع. أقمنا دورات إثراء للحاضنات، وللمزارعين، وحتى لرجال الدين. وعندما تقرّر بالقانون أن على كل مجلس تعيين امرأة بوظيفة مستشارة لمكانة المرأة أقمنا دورات إثراء حول الموضوع، والقائمة تطول. عملنا مع مجالس التلاميذ، ومع لجان مجالس لتطوير مواضيع داخليّة، رافقنا جمعيّات جديدة. وبدون مبالغة شارك آلاف الأشخاص في الدورات التي أقمناها وابتكرناها.

حوار يهوديّ عربيّ

الدور الأبرز والرئيسيّ الذي تقوده جبعات حبيبة منذ أكثر من خمسين عامًا، هو الحوار العربيّ اليهوديّ، أو ما سمّي مرة "التعايش"، المصطلح الذي تآكل مع مرور الوقت. أنا شخصيًا أؤمن بأن اللقاء الشخصيّ مهم جدًا للمجتمعين، الذين يعيشان جنبًا إلى جنب ولا يعرف أحدهما الآخر. ولكنه مهم بشكل خاص للجمهور العربيّ. في هذا اللقاء يقدم العربيّ نفسه كما هو، ويتحدّث عن مشاكله ويجب أن يصغوا له. رأينا خلال العديد من اللقاءات كيف يتصوّر العربيّ اليهودي الجالس أمامه وكأنه ممثلا عن المؤسسة. هذه اللقاءات سمحت للعرب، الشباب والبالغين–، التحدث مع اليهود بمستوى النظر، وأن يعبّروا عن أنفسهم، ومخاوفهم وآمالهم. مع مرور السنين تغير شكل ومضمون هذه اللقاءات، وقد قطعنا شوطا طويلًا. في السنوات الأولى كانت هناك مركزيّة يهودية وفي بعض الأحيان كان هناك شعور بأن اليهود يريدون الشعور بشكل أفضل مع ذاتهم، أكثر من حقيقة أنهم يجلسون مع عرب في دائرة ويتحدثون، بالعبرية طبعًا. يصغون أو يدافعون ولكن أيضًا يناقشون

ويهاجمون. درّبنا في جبعات حبيبة محاضرين مهنيين من الشعبين لهذه اللقاءات، وكنا نفحص كل الوقت أنفسنا وطلبنا باحثين من الخارج حتّى يقيّموا تأثيرها. كان منهم من قال، ويقولون حتى اليوم، أن اللقاءات تزيد التطرّف في المواقف لأن كل طرف يرى نفسه ممثلًا لشعبه ومجتمعه ويدافع عنه، وغير مستعد لسماع الانتقاد. يخاف اليهود عندما يسمعون عربًا يتحدثون باعتزاز عن قوميتهم، والعرب ييأسون عندما يقابلون يهودًا غير مستعدين للتنازل عن سيطرتهم. كتب وأبحاث كثيرة كتبت حول ذلك، وهنا فقط أقول إننا جرّبنا كل الوقت أن نتطور وأوجدنا أطرًا جديدة. أحدها كان البرنامج الخاص "أولاد يعلمون أولاد"، والذي بدأت بمبادرة من أرئيلا دونييفسكي من كيبوتس شوفال ومحمد محاميد من أم الفحم. في بداية البرنامج، في أواخر ثمانينيات القرن الماضي، علّم أولاد يهود وعرب لغتهم الواحد للآخر. بعد ذلك تطوّر البرنامج إلى اتجاهات أخرى وشدّد على اللقاءات الشخصيّة وتعليم الحضارة المتبادلة أكثر من مجرد تعلم اللغة. طاقم كبير من المحاضرين والمعلّمين قاد هذا البرنامج في عشرات المدارس خلال سنة، سنتين وثلاث. " أولاد يعلّمون أولاد" تحوّل في ذاك الوقت إلى برنامج العلم للمركز اليهوديّ العربيّ وفاز بجوائز في البلاد والخارج. الأولاد البارزين في المدارس والفعّاليّات الاجتماعيّة، في حينه واليوم، هم تلاميذ الذين يشاركون في فعّاليّات جبعات حبيبة. أيضًا المعلمون الناشطون اجتماعيًا في المدارس هم معلمين تعلّموا في جبعات حبيبة. بما أنني، وكما أسلفت، من المؤمنين في اللقاء (وجهًا لوجه)، ما زلت أشجّع هذه البرامج وأعمل على بلورتها من جديد كل الوقت، بغية ملاءمتها مع المتغيّرات من حولنا. يوجد اليوم في جبعات حبيبة طاقم جديد وشاب، طاقم نشط جدًا، يتعلم من تجارب الماضي ويطوّر سبلًا تثقيفيّة جديدة لمواجهة العلاقات الصعبة بين اليهود والعرب في دول إسرائيل. بنينا سلة برامج تعليميّة تستطيع المدارس الاختيار بينها، برامج للأمد القصير أو الطويل، برامج في جبعات حبيبة أو في مدارس أخرى، فنحن لا نستكين للحظة. اللقاءات حيويّة جدًا للتلميذ اليهوديّ الذي لا يقابل عربًا في الحياة اليوميّة. على اليهود أن

يتحرروا من مخاوفهم وأن يتخلّوا عن آرائهم المسبقة عن العرب. عليهم التعرف على الفروق بين المواطنين العرب في الدولة وبين الفلسطينيين الواقعين تحت الاحتلال، والفروق بين هاتين المجموعتين وبين العالم العربيّ كله. أنا لا أطلب أن يحبوا بعضهم أو يتعاطف هذا مع ذاك، وأن يقبل روايته، أنا شبه متأكد أن هذا لن يحدث، لأن الشعوب لا تتنازل بسهولة عن قصص ماضيها. لكن على الأقل أن يصغوا، يستمعوا إلى لغة أخرى، آراء أخرى، أن يفتحوا عيونهم وقلوبهم ويحترموا حق الطرف الآخر بأن يحافظ على رأيه، مواقفه ورواياته دون أن يؤذي الآخر. هذه الأجواء العنصريّة التي نعيشها اليوم لا تخفف من هذه الوضعيّة، ولكن سأواصل الإصرار على كل هذا ما دمت هنا.

الجيل القادم

حتى العام 2005 عملت في المدرسة بثلث وظيفة إلى جانب عملي في جبعات حبيبة، إلى أن تقاعدت مبكرًا. لكني لم أنقطع عن جهاز التعليم: اثنين من أبنائي تعلموا وأصبحوا معلمين. أحمد تخرج من كليّة القاسمي في باقة الغربية، وهو معلم للدين واللغة العربيّة في ثانوية وإعدادية برطعة. هو فرح بعمله ومحبوب لدى تلاميذيه. ليلى هي خريجة كليّة المعلمين في حيفا، وحائزة على لقب أول في التربية من جامعة تل أبيب. تتمة مشوارها المهني المبهر سأصف لاحقا، في الفصل عن عائلتي.

يسعدني الأمر عندما يستشيروني أحيانًا، أو يتحدثون عن عملهم معي ويشاركوني. لكني أشعر أنهم يعرفون أكثر مني، بينما أفهم أنا مجال التعليم الرحب أكثر منهم. في فترتنا استثمرنا أكثر بإعداد الدروس. عادة ما يستشيرونني، واحيانًا يفعلون ذلك للتظاهر فقط، بعد ذلك يفعلون ما يريدون.

الأمر الذي تغيّر كثيراً في المدارس هو موضوع الانضباط. في السابق كان هنالك انضباط أكثر، والتلاميذ احترموا المعلمين، بل كانوا يخشونهم. اليوم تدنى الانضباط كثيراً. يعاني المعلمون من ذلك ولكنهم يتنازلون أحيانًا كي لا يدخلوا في مواجهات. ابني يقول لي، مثلًا: لِمَ على ان اضغط على هذا التلميذ؟ سيغضب مني، ويبلغ أهله الذين هم جيراني أو أقاربي. يؤسفني أني إلى جانب عملي في كفر قرع لم أمارس التعليم في قريتي برطعة. لو أني علّمت في برطعة، ربما كنت قد ساهمت في تخرّج جيلًا أفضل. أنا لا استهين بمعلمينا، لكن بنظرة إلى الوراء كان على أن أوظف معرفتي واستعدادي للتعليم في قريتي أيضًا. آمل ان ينجح أولادي بذلك.

بنظرة إلى الوراء محاولًا التلخيص، أعتقد صراحة أن مهنة التدريس هي مهنة جيدة، ورائعة وفيها الكثير من التحديات. على المعلم أن يكون إنسانًا، متفانيًا في مهنته. أنا مؤمن بأني كنت كذلك. في سنوات عملي في جبعات حبيبة كانت لي علاقات مع كل ذي شان في جهاز التعليم. أقمنا المؤتمرات للمعلمين والمدربين، وكانت لي علاقات جيدة مع الموظفين في وزارة التعليم، من مفتشين ومعلمين، مدير اللواء وغيرهم. جميع وزراء التربية زاروا جبعات حبيبة وشاركوا في المؤتمرات، وبعضهم زار برطعة. كانت لدي إمكانيات عديدة لأتقدم وأصبح مديراً أو مفتشًا، لكني لم أرغب بذلك أبدًا. فضلت الحفاظ على العلاقة المباشرة مع التلاميذ في الصف. كانت أمامي الفرص العديدة ولكني لم أتقدم لأي مناقصة. يبدو أن محبتي للعمل في جبعات حبيبة منعتني من ذلك. لست نادمًا على ذلك، وأنا راضٍ عن نفسي. بعد تقاعدي ما زلت أحافظ على صلة وثقى مع جهاز التعليم ضمن إطار عملي في جبعات حبيبة، ومن خلال مشاريعنا التربويّة، اللقاءات العربيّة اليهوديّة، أولاد يعلمون أولاد، استكمالات المعلمين ومشاريع مجتمعيّة في المنطقة. كل تلك تبقيني على صلة وثيقة مع الجهاز الذي كنت جزءًا منه لسنوات عديدة وما زلت أساهم فيه.

ترددات واخفاقات

كما في كلّ مكان، أيضًا في جبعات حبيبة وقعت أحيانًا أحداثًا عكّرت الأجواء وأدت إلى التردد والتساؤل هل هذا هو المكان المناسب لي. رغم ذلك، نجحنا دائمًا، بطريقة ما، بالتغلّب ومواصلة الطريق. في هذا المكان يشارك اليهود والعرب نفس القيم والأهداف. صداقتي مع زملائي في المركز، والقدرة على استغلال مكانتي هنا، لتعزيز مجتمعي، كانت وما زالت أقوى من كل أزمة.

في تشرين الأول عام 2000، ساد التوتر منطقة وادي عارة كلها. كان ذلك في أعقاب الاقتحام الاستفزازيّ الذي قام به أريئيل شارون، رئيس المعارضة في حينه، للحرم الشريف، مما أدى إلى اندلاع الاضطرابات في القدس والضفة الغربيّة، والتي امتدت داخل إسرائيل. أعلنت القيادات العربيّة في إسرائيل الإضراب، وعلى مفترق أم الفحم وقعت صدامات عنيفة بين الشرطة والمتظاهرين الذين أغلقوا الشارع، وقتل خلالها مواطنين اثنين. في الأيام اللاحقة قتل تسعة مواطنين آخرين في الجليل والمثلث، فتدهورت الأوضاع إلى ما يشبه الحرب الأهليّة. انتفاضة الأقصى كانت حدثًا دراماتيكيًا بالنسبة العرب: أدركنا أن قوات الأمن الإسرائيليّة تتعامل معنا كما تتعامل مع اخواننا الفلسطينيين في المناطق المحتلة، وليس كمواطنين متساوي الحقوق يحق لهم التظاهر. إطلاق الرصاص الحي على المتظاهرين أصاب قلوبنا جميعًا، وتسبب بجرح لم يندمل حتى اليوم. تعيين لجنة تقصى الحقائق برئاسة القاضي أور واستنتاجاتها الإيجابيّة لم تجدي بنظرنا، حيث لم يتم تطبيق التوصيات، ولم يتم محاكمة أي من أفراد الأمن بسبب قتل أحد عشر متظاهراً.

أغلق شارع وادي عارة في منطقتنا لعدة أيام. كان ذلك خلال فترة الأعياد اليهوديّة، والنشاطات في جبعات حبيبة كانت قليلة، وظلّ العديد من الموظفين اليهود في بيوتهم ولم يواجهوا الشوارع المغلقة. لقد شاهدوا الأحداث على شاشات التلفزيون ولم يشعروا على جلودهم بما شعرنا به نحن. لم يفعلوا شيئًا.

أكثر ما فعلوه هو الاتصال بنا، الأمر الذي فاقم الغضب. بعض الموظفين العرب في جبعات حبيبة ألقوا التهم على زملائهم اليهود على عدم وقوفهم إلى جنبهم، ولم يأتوا لمساعدتهم عندما هاجمتهم الشرطة. البعض أدعى أنه لو وقف بعض اليهود على مفرق أم الفحم، لم تكن الشرطة لتطلق الرصاص وتؤدي إلى قتل متظاهرين. هكذا تشكلت الندوب. الفترة ما بعد أحداث أكتوبر 2000 كانت من أصعب الفترات التي أتذكرها في جبعات حبيبة. عشرات الساعات من المحادثات، والنقاشات والمماحكات والاتهامات المتبادلة. فجأة رأيت فجوة هائلة تفتح بيننا، رغم أننا نعمل معًا منذ سنين ورغم علاقات الصداقة الشخصيّة. في الأزمات السياسيّة القوميّة يتحصّن كل طرف في موقفه، ومعاناته، ومجموعته، لكن الصداقة الشخصيّة لا تلعب دورًا هنا. لم يكن ذلك سهلًا، وترك البعض العمل بعد أن شعروا أنه لا يمكنهم الاستمرار، بعدها طلبوا بالعودة إلى العمل.

أعترف أنه راودتني أيضًا أفكارًا قاسية في تلك الأيام. شعرت أنّ كل ما عملت من أجله وآمنت به ينهار أمام عيني. لم أفهم كيف تقوم الشرطة بإطلاق الرصاص الحي على المواطنين المتظاهرين. كنت أعرف بعض عائلات الضحايا وذهبت لتقديم العزاء. هناك سمعت أمورًا شديدة. تساءلت هل نحن، القلة القليلة، الذين نواصل الإيمان بإمكانيّة الحياة المشتركة، نستطيع حقًا تحقيق حلمنا، أم أننا سذج وضعفاء. سويّة مع زملائي في المركز، وبعد محادثات طويلة، أقمنا وفودًا مشتركة لتقديم العزاء في سخنين وغيرها. المرشدون العاملون لدينا، والذين أدار بعضهم مجموعات متصارعة، عملوا على تطبيق معرفتهم على الموظفين في المركز وعلى أنفسهم. سارة وأنا كنا المديران المشاركان، ومحمد دراوشة، شاب من قرية إكسال، وصاحب تجربة في العمل المجتمعيّ والسياسيّ، بدأ يعمل كناطق رسميّ قبل الأحداث بشهر. معًا نجحنا بتخليص أنفسنا والطاقم من الوحل وواصلنا العمل من أجل توسيع النشاطات، والتركيز على البرامج التربويّة. بعد ذلك بعام واحد حصلنا على

جائزة اليونسكو للتربية والسلام. كانت هذه مكافأة صغيرة عن سنة صعبة مررنا بها.

حتى في مثل تلك الأيام العصيبة كنت أشعر بقوتي. لم أكن بحاجة إلى الشرعيّة من الجماهير العربيّة، للعمل في هذه المؤسسة، التي يملكها ويديرها اليهود. فلدي مكانتي الرفيعة وأشعر أنني أؤثر. عمل هنا قبلي غيري من الشخصيات المحترمة، أو معي. شخصيّات معروفة بمواقفها السياسيّة القوميّة الصلبة: المرحوم محمد وتد، الذي ذكرته سابقًا، الشاعر والصحفي المعروف المرحوم سالم جبران من الناصرة؛ عضو الكنيست ونائب وزير الزراعة سابقًا، المرحوم وليد صادق، الذي توفي في الفترة التي أكتب فيها كتابي هذا؛ إبراهيم مالك، من الحزب الشيوعي، المثقف البارز والأديب، وغيرهم. محمد وتد كان سياسيًا لم يتردد في الإعراب عن مواقفه، وهو الذي أدار الدورة الأولى في جبعات حبيبة للقيادات العربيّة الشابة. كان ذلك في السبعينيات، وشاركت شخصيًا في تلك الدورة. غالبية المشاركين في الدورة أصبحوا فعلًا من القيادات في مناطقهم. في عام 1983 أقمنا أول دورة لمرشدي المجموعات المشتركة؛ جميع خريجي الدورة علموا فيما بعد في مؤسسات مختلفة كقادة لهذا المجال، حتى وأن ترك بعضهم العمل في جبعات حبيبة وكانت لديهم انتقادات.

رغم جميع الترددات والصعوبات، لا يمكن سلبنا من الريادة والمبادرة للعديد من المشاريع لتعزيز المجتمع العربيّ وتحسين العلاقات. أقمنا منتدى المعلم، وهو مكان التقاء لمعلمين من المنطقة، استمعنا من خلاله للمحاضرات وقضينا الوقت معًا. نجم عن المنتدى عشرات، بل مئات استكمالات المعلمين في مواضيع مختلفة. موقع جبعات حبيبة، وحرمها الجامعيّ الكبير، الصفوف، وقاعة المؤتمرات، وغرفة الطعام، وبركة السباحة، جعلوا منها بيتًا لسكان المنطقة. في سنوات معيّنة لم نجبي رسوم مقابل استخدام القاعة والصفوف أو بركة السباحة. للأسف لا يمكننا اليوم ذلك بسبب التكلفة. ثمة مثل عربيّ

يقول: إذا كان لديك أشياءٌ جيدة وأنت تعطيها للآخرين، فسوف يحبونك، لكن لو كان لديك أشياءٌ جيدة وأنت تبخل بها، فسوف يتركك الناس ويبحثون في أماكن أخرى يمكنها أن تقدّم لهم. وهذا فعلًا ما حدث عندنا في جبعات حبيبة. كل شيء يكلّف الأموال، الأمور تغيّرت، وكذلك منطقة وادي عارة تغيّرت وتطوّرت. ويوجد فيها الآن الكثير من القاعات العامة وأماكن اللقاء، أقمنا العديد من الجمعيّات الفاعلة في مجالات مشابهة لمجالات عملنا وتدير برامج مماثلة.

بعض النقد الذاتي

يسألونني أحيانًا، أليس لديك انتقادات، وهل لا أرى الأخطاء التي قمنا به، أو أمورٍ لم نقم بها على نحو سليم. أؤكد أنني لا أجد مشكله في التعبير عن رأيي، أو معارضتي لأمور قامت بها إدارة جبعات حبيبة. كنت شريك كامل في القرارات المتعلقة في نشاطات المركز اليهوديّ العربيّ، وعضو إدارة جبعات حبيبة. لكن النشاطات الإدارة للحرم كانت تجري بشكل منفصل. بغية زيادة المدخولات قمنا بتأجير القاعات والصفوف لجهات خارجيّة ليس لها علاقة مع جبعات حبيبة ولم يكن لنا تأثير على نوع نشاطاتها. وهذا ما حدث مع الجيش. في البداية أجرناهم الصفوف لدورة الجنديّات المعلمات وغيرها، وبعدها وعلى مدار سنين طويلة، من أجل دورات للجنود واستكمال امتحانات البجروت. صحيح أن ذلك لم يكن نشاطًا عسكريًا بل تربويًا، لكن عندما يتجول الجنود بزيهم العسكريّ في جبعات حبيبة، يحملون السلاح، فهذا يردع الشبان العرب ويمنعهم من المشاركة في نشاطاتنا. يسعدني أن الإدارة أوقفت ذلك وقريبًا لن تكون لدينا مثل هذه الدورات.

انتقادات من نوع آخر هي حول طريقة تسويق جبعات حبيبة. رغم النشاطات الكثيرة التي نقوم بها خلال سنوات عديدة، ورغم عشرات آلاف الأشخاص

الذين شاركوا هنا خلال ستة وستين سنة منذ تأسيس المركز، فإن أسم جبعات حبيبة ما زال غير معروف كفاية لدى الجماهير. نحن متواضعون جداً، لم نعمل على الترويج ولم نقم علاقات عامة لأنفسنا وانجازاتنا. كنا لطفاء أكثر مما يجب. وهذه ميزة غير مناسبة للمؤسسة. لم نتعلم كيف نروّج لجبعات حبيبة، رغم المجد الذي حظينا به. أتذكر أن الرئيس حاييم هرتسوغ، والد إسحاق هرتسوغ، زار جبعات حبيبة قبل عدة سنوات، وقال أنها "أكبر سر محفوظ في الدولة". لم ننجح بوضع أنفسنا في المكان المناسب، والمميّز. كان ينبغي علينا أن أكثر انتقائية بالنسبة لمجالات عملنا، وأن نتخصص في مجالات خاصة بنا. عملياً نحن نقوم بالقليل من كل شيء، وهذا على حساب العمق. في الماضي كنا ننشر الدراسات في إطار مركز دراسات السلام الذي أقامته سارة أوستسكي مع أسعد غانم، وهو اليوم بروفيسور في جامعة حيفا. عندما تركا جبعات حبيبة توقفت نشاطات المركز، واليوم ليس لدينا نشاطات بحثيّة، وبرأيي هذا ينقصنا هنا. أحياناً نسير خلف ميول المانحين فنجتر أنفسنا من جديد المرة تلو المرة، بغية تجنيد الأموال. ثمة أفضليّات كبيرة لذلك، لكنه يتضمن العديد من السلبيّات.

اعتقد أيضاً أننا لم نعمل بشكل كافٍ في الشارع اليهوديّ. سوى تعليم اللغة العربيّة وعقد اللقاءات، لم نعمل بجدية بين اليهود، وتقريبا لم نؤثر. لم نتغلغل في الأوساط التي تضع أمامنا تحديات في المجتمع الاسرائيليّ، فمثلاً، لم نعمل مع قطاع القادمين الجدد من الإتحاد السوفياتي سابقاً، والمعروفون بغالبيتهم بمواقفهم المتشددة ضد العرب. اكتفينا بالعمل بالمدارس، ومع التلاميذ والمعلمين، لكننا لم ننجح في الوصول إلى البالغين، إلى الأهل. في الواقع كان لنا تأثير اجتماعيّ كبير في الشارع العربيّ، ولكن من الناحية السياسيّة كنا دائما حذرين، كنا "لايت". أردنا الخروج سالمين مع الجميع. رغم، وربما بسبب، تماثل جبعات حبيبة مع حركة "هشومر هتسعير" وحزب "مبام" سابقاً. كنا نميل نحو الجمهور الواسع. فعملنا كل الوقت ودائماً مع مدارس من كافة

الأنواع والأجناس، من كل البلاد، وأيضًا مع المتدينين، لذلك تواضعنا بمواقفنا السياسيّة وبتبعيتنا للكيبوتس القطريّ. بالمناسبة فانه لا يتماثل اليوم مع ميرتس وهناك تعدديّة سياسية واسعة. كنت أرغب أن نكون أكثر انتقائيين في المجال المناطقيّ والجماهيريّ، كما بدأنا نعمل في السنوات الأخيرة. أرغب أيضًا ألا نخاف من اتخاذ مواقف سياسيّة، وألا نخشى من التعبير عن موقف فقط لأنه من المحتمل أن يضر الدعم الحكوميّ، أو يضر بمساق المستشرقين المدعوم بهبات من وزارة الأمن. نحن فعلا نعبر عن مواقف والتي تعتبر سياسيّة لكن لاحزبيّة. نحن نصل مباشرة إلى الأماكن التي تضررت بسبب ما يسمى "تدفيع الثمن". عندما تكون هناك مظاهرات، نحن نشارك بها. ولكن لا يسمعوننا كفاية في الشارع اليهوديّ، ولا يوجد لنا دعم هناك. مشكلة جبعات حبيبة أن اليهود يروننا يساريين، بينما يعتبرنا العرب صهاينة. لا نستطيع أن نفسر كل الوقت وأن نشرح بما نؤمن وما نفعل.

عندما عدت في العام 2009 إلى جبعات حبيبة، وجدت أن العمل هنا أصعب مما كان في الماضي. السبب الرئيسي لذلك هو النقص في المصادر المالية. خسرنا حركة الكيبوتسات، والتي كانت بالنسبة لنا الظهر السياسي والاقتصادي، "مبام" لم تعد موجودة وفي "ميرتس" لا يوجد أي ممثل عن الكيبوتسات والذي تهمه جبعات حبيبة. حكومات اليمين لا تخصص أي موارد لبرامج التعايش والسلام. مؤسسة "حفتسيلت" التي تعمل جبعات حبيبة تحت رعايتها، تواجه المشاكل المالية للكيبوتسات ونحن نشعر أن مركزنا قد ضعف قليلًا. نعتمد بشكل أساسيّ على تبرعات من خارج البلاد، وفي هذا المجال توجد منافسة صعبة، وليس هناك ضمانات للمدى البعيد. ترتبط فعّاليّاتنا بالميزانيات التي ننجح بتجنيدها وقسم من الموظفين لا يشعرون بالأمان في مكان العمل. معاشاتنا أيضًا تضررت. لكن هناك طاقم جيد ومخلص، متفهم ومليء بالدافعيّة. رغم الصعوبات أعود إلى عملي بحماس كبير. الوضع بين اليهود والعرب في البلاد متوتر ومعقد. أشعر بأن من واجب هذه المجموعة،

مجموعة الأشخاص المؤمنين مثلي بإمكانية الحياة المشتركة، الا يستسلموا، ويتنازلوا، وأن يواصلوا العمل بعناد قدر المستطاع.

ليس من أجل الحصول على جائزة

كل من يعمل في مجالنا هذا يعمل ذلك بدافع إيمان داخليّ، وشعور أنه يحمل رسالة، ولا يتوقع أن يحصل على جائزة عن جهوده. مع هذا، هنا في بلادنا، وفي العالم، هناك مؤسسات ومنظمات تعمل على دعمنا وتعترف بنا لأهمية عملنا من خلال جوائز تقدمها عادة في احتفالات علنية. تعتبر هذه إحدى الطرق لتعزيز ودعم العاملين بهذا العمل المرهق والمحبط أحيانًا. أنا شخصيًا، والمركز اليهوديّ العربيّ للسلام في جبعات حبيبة، حصلنا خلال السنين على بعض الجوائز. بعضها من باب التقدير، والتي شجعتنا على مواصلة العمل، والبعض الآخر عبارة عن هبة مادية، والتي بدورها ساعدتنا في عملنا. منذ عام 1980، سنوات قليلة بعد أن بدأت عملي في جبعات حبيبة، حصلت على جائزة من "الرابطة للتفاهم بين الاديان". القائمون على هذه المؤسسة، والتي أقيمت نهاية الخمسينيات، يؤمنون أنه من الممكن أن نجد في الأديان، وفي الكتب المقدسة، عاملا مشتركًا لصنع السلام.

حقيقة لم نركز بشكل خاص على الجوانب الدينيّة للصراع، أو كمصدر للمصالحة. مع هذا رأت الرابطة أنه من الصواب أن تقوم بتشجيعي، عربي مسلم شاب يعمل من أجل الحوار مع يهود. في تلك الفترة كانت هناك قلة من العرب الذين عملوا في هذا المجال. كان عدد المنظمات التي تعمل من أجل التعايش والسلام لا يتعدى أصابع اليد الواحدة، ولذا فقد برز نشاطي ووجدوا أنه من المناسب منحي جائزة. شعرت باحترام كبير، ولكن أيضًا بالمسؤولية.

بعد عدة سنوات، في العام1989 حصلت على جائزة من المركز الدولي! للسلام، وهي منظمة كبيرة لكن للأسف لم تعد قائمة. أقيمت هذه المنظمة في أعقاب اتفاقية السلام مع مصر، ووضعت أمامها هدف تعزيز السلام بواسطة

مشاريع اقتصاديّة وتربويّة. كانت مديرته العامة في تلك الفترة زهافا جلئون، رئيسة حزب ميرتس اليوم. كما أسلفت سابقًا كان لجبعات حبيبة تجربة غنية في العمل مع الفلسطينيين، بدأنا بها قبل اتفاقيات أوسلو بكثير، وربما من أجل ذلك رأى المركز أن يمنحني الجائزة.

الجائزة التالية كانت من اتحاد المترجمين ومنحت لي وليورم ميرون عن كتاب **حكايات الوادي**، الذي كتبناه باللغتين وتحدثت عنه في الفصل عن برطعة.

في العام 1999 تلقيت جائزة روتشيلد المعتبرة للتربية من قبل "يد هنديف"، جائزة على اسم "ماكس روئو"، الذي كان لسنوات عديدة مديراً لمؤسسة روتشيلد. المؤسسة التي أعتبرت التربية أداة رئيسيّة لتطوير المجتمع. لقد بدأوا بتوزيع الجائزة منذ عام 1987، ولم يحظى بها أي مربي عربيّ قبل ذلك. سارة، شريكتي في إدارة المركز، قررت أن ترشحني للجائزة. لم أعتقد أني سأفوز بها، فما علاقة مؤسسة روتشيلد بالعرب؟ كانت المفاجأة كبيرة ومؤثرة جدًا. وأعتقد أيضًا أن ذلك كان بمثابة نقلة في المؤسسة، ولسعادتي فهم مستمرون بذلك. مؤسسة "يد هنديف" مستمرة بدعمها السخي لمؤسسات عربيّة ومشتركة للمجتمع المدنيّ، ومنذ أن حصلت على تلك الجائزة، حصل عليها أيضًا العديد من المربين والمربيات العرب. أشعر أنني قد فتحت الطريق لهم. في أعقاب تلقي الجائزة بنيت علاقة صداقة مع موشيه رفيف، الذي كان سابقًا أحد رجالات وزارة الخارجيّة ومستشاراً لمؤسسة " يد هنايف". وهو يواصل دعم المشاريع التربويّة لجبعات حبيبة واستعنا به وبحكمته لسنوات عديدة.

بالنسبة لي، القمة كانت عامين بعد ذلك. في أحد أيام العام 2001 تلقينا رسالة بان مركزنا سيتلقى جائزة اليونسكو للثقافة والسلام. كان ذلك اعترافًا دوليا وعلى مستوى عال جداً! منظمة اليونسكو هي منظمة الثقافة، والعلوم والتربية التابعة للأمم المتحدة، وهدفها المعلن في نشراتها الرسميّة، هو المساهمة في السلام والأمن بواسطة تطوير المشاركة العالميّة في مجالات التثقيف، والعلم والتربية، على أمل أن يغرسوا مشاعر الاحترام لقيم العدل،

وسلطة القانون، وحقوق الإنسان والحريات الأساسية المعلنة في تصريح الأمم المتحدة.، في جميع أرجاء العالم. جميع دول العالم الأعضاء في الامم المتحدة، هي أعضاء في تلك المؤسسة، وهو غير معروفة بدعمها لإسرائيل. تم استقبال قرارهم بمنحنا الجائزة كتصريح سياسيّ وليس مهنيّ فقط، من خلال دعم جهود منظمة إنسانية تسعى للسلام بين إسرائيل وفلسطين، في الوقت الذي لا تتقدم الحكومات في هذه المسيرة.

إلى احتفال توزيع الجوائر، سافر وفد من أربعة اشخاص، أنا وسارة، المديران المشاركان للمركز، مريم دجان التي كانت رئيسة برنامج النساء وتتحدث الفرنسية، ومحمد دراوشة الناطق باسم جبعات حبيبة، ومدير مجال التخطيط والمساواة والحياة المشتركة في جبعات حبيبة. في تلك الفترة كان سفير إسرائيل في فرنسا، بروفسور إيلي بار نفي، وقد استقبلنا بدفء كبير ونظم لنا لقاءات مع مجموعات مختلفة، ومؤسسات تعمل في مجالنا، وسياسيين فرنسيين، وأعضاء من المجموعات اليهودية والعربيّة في باريس وآخرين. كنا ننتقل من مكان إلى آخر، وشعرنا بدعم كبير وحب. الاحتفال نفسه فاخراً وترك لدينا انطباعاً كبيراً. تجمع جمهور كبير في القاعة الكبرى في مركز اليونسكو في باريس. خصصوا لنا دقيقتين لنقدم شكرنا وأمور أخرى. قبل سفر الوفد، صغنا أنا وسارة حواراً قصيراً، تكلم كل منا من أين أتى، من هي عائلته، كيف وصل للعمل في التربية للسلام وما هو حلمنا المشترك للمستقبل. أنا العربيّ القروي! من برطعة وهي أبنة لناجين من المحرقة من تل ابيب. والدتها كانت حاضرة بين الجمهور. لا أبالغ إن قلت إن الجمهور كله وقف وحيانا ساعة كاملة، البعض بكى من الانفعال. كانت فعلا لحظة ساحرة وعجيبة لجميعنا. لقد تقاسمنا الجائزة مع رجل دين أفريقي، المطران أونونو أونونج من أوغندا، رجل مدهش عمل من أجل السلام والمصالحة في بلاده الجريحة.

الأمين العام لليونسكو في تلك الفترة كان الياباني كويشيرو ماتسورا، تحدث خلال خطابه الطويل في الاحتفال عن قرار منح الجائزة وقال أنه "رغم الحرب

العاصفة التي تحدث في المنطقة خلال عشرات السنين الأخيرة، ما زال مركز جبعات حبيبة يسهم في مهمة السلام، من خلال التثقيف، والأبحاث، والمؤتمرات والاجتماعات الدوليّة، لقاءات البحث، والمكتبة، مركز المعلومات والنشرات". في تلك الفترة، في العام 2001 لم نكن قد صحونا بعد من صدمة أحداث أكتوبر 2000 ومن انتفاضة الأقصى. أريئيل شارون كان قد أنتخب لرئاسة الحكومة عدة شهور قبل ذلك، بعد أن استقال إيهود باراك. أحداث العنف أغرقت البلاد والمناطق الفلسطينية. كان من الغريب في ظل تلك الأجواء، لكنه مشجع، أن نقف أمام العالم كله وأن نحصل على الجائزة. كان ذلك ملزم لنا. فإلى جانب الفرحة، شعرنا بالتزام كبير لمواصلة السباحة ضد التيار بكل قوتنا.

بناء مجتمع مشترك

المشروع الرئيس الجديد لجبعات حبيبة في السنوات الأخيرة، والذي أعتزّ به كثيرًا، هو "الشراكة بين المجتعمات المحليّة". لقد طرحت هذه الفكرة عندما أنهيت عملي كرئيس للمجلس وعدت لأدير المركَز. بعد سنوات عديدة من قيادة برامج تعليمية – تربوية تناولت الحوار والتعايش خصوصًا لدى الفِتيان، كان واضحًا لنا أنّ جبعات حبيبة يجب أن تطوّر مضامين وطرق عمل في هذا المجال، لتناسب، أيضًا، المتقدّمين في السنّ والشخصيات ذات التأثير في المجتمع. إنّ فكرة الوصل بين جاليات جارة ليست فكرة جديدة حتّى إنّها قد جُرّبت في الماضي، لدينا كما لدى منظّمات أخرى وجاليات بادرت إلى ذلك بنفسها. لكنّنا أردنا أن نبني نموذجًا جديدًا، يكون مؤسَّسًا على البحث والتجربة، ويحيط بمجالات واسعة من الحياة الاجتماعية. البرنامَج مؤسَّس على العمل في اتّجاهين – من أعلى إلى أسفل ومن أسفل إلى أعلى. إنّه يبدأ باجتماع طواقم توجيه مشتركة، تضمّ رؤساء السلطات وقيادة البلدات. حيث يقومون ببناء خُطّة عمل مشتركة بموجب طبيعة البلدات واحتياجاتها. وفي الوقت نفسه يجري هناك عمل تعليميّ – تربويّ واسع النطاق في المدارس وفي

الفعّاليّات الاجتماعية المشتركة للجمعيات، المنظّمات النسائية، ولدى المواطنين في عمرهم الذهبيّ، وغيرها. وإنّه بفضل العلاقات الممتازة التي تربطني برؤساء سلطات في المِنطقة، وبمساعدة ودعم حچاي هليڤي الذي كان، حينها، مدير عامّ جبعات حبيبة، وضعنا الأسس لهذا البرنامَج ثمّ تطوّر وتوسّع في عهد ينيڤ سچي، المدير العامّ الحاليّ.

واليوم، بعد ثلاث سنوات من النشاط، واضح لنا أنّه يجري الحديث عن برنامَج رياديّ وناجح، يربط بين سلطات محلّية جارة لم يكن بينها – قبل ذلك – أيّ رابط، ويُنتج حالات تواصل بين قطاعات مختلفة في المجتمع. نأمل أنّه سيستطيع تحقيق هدفه في قادم الأيّام – بناء مجتمع مشترك يهوديّ وعربيّ في دولة إسرائيل. إنّ هذا البرنامَج يعبّر عن تغيّر مفهومنا في جبعات حبيبة. لقد كانت المنظّمة – في الأساس – منظّمة تعليمية – تربوية ركّزت على إنتاج حوار وتعايش، لكن مع مرّ السنين بدأ العمل مع جاليات كاملة بكلّ مكوّناتها، لهدف التأثير على طابع المجتمع الإسرائيليّ نفسه، ليكون مجتمعًا مشتركًا وليس مجتمعين يعيشان جنبًا إلى جنب. وهكذا عرّفنا – من جديد – الهدف من وراء إنشاء المركَز كلّه: "يعمل جبعات حبيبة من أجل تطوير التفاهم المتبادل، التعاون، والمساواة بين المجموعات المختلفة في المجتمع الإسرائيليّ، كأساس لبناء مستقبل مشترك ومجتمع مشترك في إسرائيل".

في الظروف الموجودة اليوم في دولة إسرائيل، وأكثر من ذلك بعد انتخابات 2015، يبدو بناء مجتمع مشترك عملية معقّدة، حيث يبدو للمتأمّل من الخارج، أحيانًا، مستحيلًا. لكنّنا مصرّون على ذلك، ونعلّق على هذه الخطوة الأمل في مستقبل أفضل لمجمل سكان الدولة. هذا وإنّ الافتراض الأساسيّ هو أنّ وجود مجتمع مشترك متعلّق بالمبنى الاجتماعيّ الذي يوجد داخله وبسياسة الحكومة: بسياسة المؤسّسة، بتوزيع الموارد – الميزانيات، الأراضي، والموارد الأخرى، بالمساواة في التعليم. إنّ سياسة التمييز ضدّ السكان العرب تؤدّي إلى إحداث فروق اقتصادية عميقة وإلى الشعور بالغربة عن الدولة،

وإنّها من بين العوامل الرئيسية لإذكاء التوتّرات. بُغية أن ينشأ هناك مجتمع مشترك من الضروريّ التطرّق إلى جذر المشكلة وإلى إحداث تغيير في السياسة في مواضيع توزيع الأراضي والميزانيّات، الإسكان، التعليم، التمثيل الاجتماعيّ، وغيرها. إنّ ذلك يتطلّب، طبعًا، تغييراً في سياسة الحكومة، وإنّ وظيفة المنظّمات المدنية – نحن ومنظّمات أخرى – هي التأثير على الجهات صاحبة القرار ودفعها في هذا الاتّجاه. إنّ إحدى الأدوات التي نستخدمها لهذا الهدف هي إقامة مؤتمر سنويّ من أجل تأسيس مجتمع مشترك. هذا المؤتمر، الذي يُقام كلّ عام في جبعات حبيبة، يُلاقي بين جاليات جارة وهي تقوم بطرح التغييرات البنيويّة الضرورية، وتبلور خُططًا مشتركة لإخراجها إلى حيّز التنفيذ.

لا يمكن للمجتمع المشترك أن ينشأ من تلقاء نفسه. إنّ مِفتاح نجاحه هو العلاقات المتبادلة بين المجتمعات المحليّة وإنتاج توافق بينها على التكافؤيّة في كلّ شيء، بدون أن تكون هناك هيمنة لإحداها على الأخرى. ليس في الإمكان تغيير العلاقات بين العرب واليهود في إسرائيل بدون بناء جسور تفاهم، تعاون، عمل مشترك وإنتاج مشترك، تعارف، تعاطف، وتماهٍ. إنّنا مشغولون بهذه الأشياء منذ عشرات السنين، ومن مثلنا أعلم بذلك. وفي هذا المجال بالذات، هناك امتيازات للمجتمع المدنيّ وللسلطات المحلّية على الحكومة. نحنّ نركّز، الآن، أقلّ في الحديث عن الماضي وأكثر في العمل من أجل مستقبل مشترك، من قبيل المشاريع المشتركة لسلطات جارة لتحسين البيئة، للأمن الشخصيّ ومنع بؤر الأذى؛ المصانع الثقافية المشتركة، من قبيل المعارض الفنّية، المسابقات الرياضية، لقاءات النساء أو اللّقاءات لأبناء العمر الذهبيّ؛ وكذلك النضالات المشتركة لرؤساء السلطات أمام الحكومة من أجل تطوير مناطق صناعية، تحسين المواصلات، إقامة مشاريع سياحية، وغيرها وغيرها – القائمة طويلة. إنّ المبدأ هو أنّ كلّ ذلك يتمّ من خلال الموافقة المتبادلة وبتبرّع مشترك من كلا الجانبين.

ويقودني ذلك إلى الحديث عن تغيير المواقف. إنّ أيّ تغيير صعب، لكن قد يكون تغيير المواقف هو الأصعب. رأينا ذلك في انتخابات 2015، حيث إنّ الأشخاص الذين يئسوا من حكم الليكود ومن يرأسه لم ينجحوا في تغيير مواقفهم التقليدية وفي لحظة الحقيقة، عندما وقفوا أمام الصندوق، عادوا وصوّتوا للحزب نفسه الذي يتماهون مع مواقفه. وذلك رغم خيبة الأمل المتواصلة من عمله وسلوكه. وإنّنا من خلال عملنا نبتغي أن نقدّم للناس أدوات ليختبروا بشكل نقديّ الواقع ومواقفهم كذلك، ولربّما تغييرها في آخر المطاف. إنّ مظاهر العنف، العنصرية، الخوف، والكراهية، نابعة، غالبًا، من الجهل ومن قلّة الدراية والفهم؛ إنّنا نحاول إنتاج تعاطف متبادل، حساسية ومسؤولية لدى الطرفين، واحدًا تجاه الآخر. إنّه إجراء طويل الأمد، يدمج التربية والتعليم ويتطلّب، أيضًا، تغييرًا في وسائل الإعلام وفي الطريقة التي تعرض فيها الصراع والطرف الآخر. إنّنا نكثر من العمل، أيضًا، بالهُويّة – حيث هي مركّب حرج إضافيّ في الطريق إلى إنشاء مجتمع مشترك. إنّنا ننتج أدوات من أجل تطوير هويّات مشتركة وإنتاج مواطنة مشتركة، من دون مسّ الهُويّة الشخصية والجمْعيّة.

قد يبدو ذلك كرؤيا آخر الزمان، لكنّ الموقف – هنا – يتطلّب الكثير من الإيمان. إنّ اختيار العمل مع جاليات جارة ليس صدفة: إنّنا نؤمن بأنّ التغيير ممكن أوّلًا في المحيط الاجتماعيّ – السياسيّ القريب من كلّ شخص. لذلك بدأنا بإنشاء شراكات في محيط جبعات حبيبة، حيث تُحسب على من لهم يد في برنامَج المجتعمات المحليّة كفر قرع – پردس حنّا، المجلس الإقليميّ مناشّه ومدينة باقة الغربية، والمجلس الإقليميّ مجدّو مع مجلس معاليه عيرون في شِمال وادي عارة. وإنّنا نخطّط لضمّ المزيد والمزيد من المجتعمات المحليّة إلى هذه الرحلة المشتركة.

أوجز فأقول: إنّني فخور بقدرتي وبقدرة المنظّمة التي أنا شريك فيها على تجديد وملاءمة طرق عملنا لننتج في إسرائيل مجتمعًا مبنيًا على أساس قيم

العدالة والمساواة. مجتمعاً لا أشعر فيه أنا – كوني جزءاً من أقلّية قومية – بأنّني مواطن مميَّز ضدّه. إنّني أُؤمن بأنّنا سننجح في أن نكون العنصر الرائد الذي سيضمن مستقبل مجتمع مشترك وتكافؤيّ لأحفادي وللأجيال القادمة.

لست موضوعيا بالتأكيد، لكن – حسَب رأيي – كان لجبعات حبيبة – على مرّ السنين – دور مهمّ جدًا في تمكين المجتمع العربيّ في إسرائيل. إنّني أعتقد أنّه ليس هناك مؤسّسة إسرائيلية أثّرت أكثر منها على التطوّرات الاجتماعية في المجتمع العربيّ، وخصوصاً في منطقة المثلّث. لا أعرف لماذا لم يقُم أحد ببحث هذا الموضوع ولم يكتب عنه. إنّ غالبية نُخب المجتمع العربيّ خرجوا من جبعات حبيبة– منذ دورات القيادة الشابّة في سنوات الخمسين، حيث انضمّ، حينها، إلى "مپام" شباب عرب تعلّموا في جبعات حبيبة وفي الكيبوتسات؛ مروراً بـ"حركة الفتيان العرب الرائدة"، التي أنشئت في جبعات حبيبة على نمط "هشومير هتسعير"، وأنتجت طبقة من القيادات العربية في إسرائيل آمنت بالحياة المشتركة في هذه البلاد، وقد أصبح أغلب شخصيّاتها – في ما بعد – أعضاء كنيست ورؤساء سلطات؛ وانتهاء بأعضاء كثيرين في الحزب الشيوعيّ الإسرائيليّ ثمّ في القائمة الشيوعية الجديدة، الذين تعلّموا في جبعات حبيبة، وطبعاً أعضاء ومؤيّدين في أحزاب وتيّارات سياسية أخرى. منذ تلك الأيّام الأولى وحتّى اليوم، طوال عشرات السنين، فعّلنا بشكل مكثّف برامج تعليمية – تربوية، إثراء، تمكين، وزيادة دراية ووعي، شارك فيها عشرات ألوف الأشخاص، ولم نستسلم بعد لا بل نتجدّد كلّ الوقت.

خُطط للمستقبل

إنّ أحد الامتيازات الكبيرة لجبعات حبيبة هو الانفتاح والمرونة – في الإمكان، دائماً، طرح أفكار جديدة واستخدام الحرم الكبير والاستعانة بذوي الخبرة من أجل إنتاج مشاريع تلائم التغيّرات الحاصلة في فترة بعينها وفي احتياجاتها. إنّ إحدى خُططنا للمستقبل هي أن نُنشئ في جبعات حبيبة مدرسة ثانوية للعلوم والفنون، وهو ما ينقص جدًا الوسط العربيّ وخصوصاً في منطقة المثلّث. في

رأيي، في مِنطقة المثلّث الشّماليّ – من باقة – جتّ حتّى أمّ الفحم – بدل أن تقترح كلّ المدارس الثانوية مجمل مواضيع التعليم، من الأفضل أن تركّز كلّ مدرسة ثانوية على مجال معيّن: تركّز إحداها على المواضيع الإنسانية، وتختصّ الأخرى بالعلوم، وتركّز الثالثة على الموسيقى والفنون. هكذا سيكون بالإمكان التخصّص في كلّ مجال ومنح الطلّاب وأهاليهم إمكانية اختيار المسار الملائم لهم. لست أنا من يستطيع تحقيق هذه الفكرة، طبعًا، لكن في إطارها نحن نحلم في إنشاء مدرسة خاصّة في جبعات حبيبة ونبحث عن شركاء ليستثمروا هنا بالتعاون مع وزارة التربية والتعليم. القاعدة موجودة وغير مستغلّة بما فيه الكفاية، والحاجة موجودة في الميدان.

شخصيًا، سأبذل كلّ ما أستطيع لتصبح جبعات حبيبة مؤسّسة يهودية عربية مشتركة بحقّ وحقيق، لتكون عُنوانًا لجميع السكان من شتّى الأوساط، وأن تعرف كيف تتوجّه إليهم بلغتهم وأن تلبّي احتياجاتهم. إنّ ما أطمح إليه هو أن نواصل التجدّد كلّ الوقت وأن نكون روّادًا في بناء الشراكة، في التربية للتسامح، وفي السعي نحو السلام.

إن شاء الله.

رئيس المجلس 2005-2009

منذ أن توفي والدي سنةَ 1985، وتمّ اختياري لأخْلُفه كمختار، وضعت نصبَ عينيّ هدفا بأن أصبح يوما ما رئيسا لمجلس برطعة. اقتضى ذلك عشرين سنة وكثيرا من التقلبات، ولكن في النهاية أقيم مجلس محلي يشمل برطعة، عين السهلة ومعاوية. لم يكن هذا بالضبط ما أردناه، لكنه أفضل حالا من عدم الاعتراف بنا ككيان بلديّ. لم أرشح نفسي للانتخابات الأولى، ولكن في الثانية تم اختياري رئيساً للمجلس.

بدأ نضالي كما ذكر سنة 1985 حين أصبحت مختاراً. نشأ أسلوب المخترة في الفترة العثمانية؛ لم يكن للمخاتير سلطات، ولا ميزانيات ولا قدرات على التطوير العام. لقد كان تعييني كمختار القرية منطويا على مشاعر مختلطة طوال فترة توليّ المنصب من سنة 1985 وحتى 1993. من ناحية، ولم نكن أنا وعائلتي نرغب فيه. بل إن أبي المتوفى كان قد طلب بألا آخذ المنصب على عاتقي. من ناحية أخرى لم أكن أريد أن أرفض طلب الوجهاء وسكان البلدة وأخيبَ آمالهم. عرفت بأن المنصب سيجعلني أستمر على نهج والدي، أن أعقد الصلح وأطور القرية. كان والدي متفرغا للمنصب أما أنا فقد كنت أعمل بوظيفة ونصف ولم يكن لديّ ما لديه من الوقت. عدا عن ذلك، لقد تغير المجتمع وتطور: كل مواطن يمكن أن يصبح رجل صلح وكل متعلم يمكنه أن يقود، بواسطة جمعيّة، لجنة ما او حركة سياسية ما. أضف إلى ذلك أن لقب "مختار" قد تغير معناه في الضفة الغربية، لأن قسما من المخاتير قد عارض الانتفاضة وتعاون مع إسرائيل، والكثير من الناس لم يعد يفرقّ بين مخاتير الضفة ومخاتير إسرائيل.

على ضوء كل هذه الاعتبارات، وعلى ضوء فقدان صلاحية المختار كحلقة وصل بين السكان ومكاتب الحكومة والضغط عليّ لأستقيل من جانب العائلة، وخصوصا من جانب زوجتي وإخوتي، قررت أنه قد آن الأوان لتغيير الحال، أن ألغي منصب المختار في القرية وأن أجدد السلطة المحلية لدينا خاصة، ولدى العرب عامة. انطلقت في جولة إقناع، كتبت الرسائل وجندت أعضاء كنيست لإقامة مجلس محلي في قرية برطعة. جمَعت حولي مخاتير من قرى مجاورة وقمنا بالضغط على نواب الأحزاب الذين لاحقوا الصوت العربي ولِينَجحوا أخيرا في إقامة مجالس محلية في منطقتنا. أقنعت عددا من المخاتير بتقديم التماسات لوزارة الداخلية كي تنشئ في بلداتهم مجالس محلية وقمنا بطرح الموضوع، مستغلين كل فرصة سانحة، شفهيًا وكتابيًا. في نهاية المطاف وعلى ما يبدو ملّ منا بعضُ من يعمل في وزارة الداخليّة واستجيبت طلباتنا، لكنهم نجحوا في مفاجأتنا. من غير استشارتنا، من غير إعلامنا سَلفا ومن غير مشاركة السكان والقيادات المحلية، أعلنت وزارة الداخلية عن إقامة مجلس إقليمي واحد يضم كل القرى في وادي عارة والتي لم تكن فيها مجالس والتي أدارها المخاتير: برطعة، عين السهلة، معاوية، مصمص، البياضة، المشيرفة، زلفة وسالم. لم يكن بين هذه القرى أي اتصال جغرافيّ ولم يكن للمجلس الجديد أي سلطة إلا على المناطق المأهولة في القرية. كانت مكاتب المجلس في الخضيرة وتم تعيين رجل من شاس رئيسا لها. حين دخلنا مكتبه رأينا صورة الرابي عوفديا معلقة على المدخل. لم تكن له أي علاقة بمنطقتنا، بسكانها وبلداتها، أما شعورنا فكان بأنه قد عُيّن في منصبه كي يحظى براتب شهري دسم وليتحكمَ بنا.

لقد أغضبتني هذه الأمور جدا. كنا في سنة 1995، والحكم العسكري قد ولّى منذ أمد بعيد، ولم أطق أن يستهزؤوا بنا مرة أخرى بهذه الصورة. قامت سلطات الدولة ثانية بفعل ما يحلو لها من غير أن تعير اهتماما لنا ولرغباتنا. إن هذا يحصل دائما ويؤلمني جدًا. عمليًا، ألغى إنشاء المجلس منصبي

كمختار، لكن ما زلت من الشخصيات العامة الرائدة ولم أتنازل. جندت أعضاء كنيست وأقمنا لجنة جماهيرية شعبية من البلدات كي نقود النضال، وقد كنت رئيسا لها. بعد سنوات ثلاث من ذلك، سنة 1998، طُرح اقتراح كان أسوأ في نظري من الأول: فصل المجلس لمجلسين. سمي الأول "بسمة" وشملت برطعة، معاوية، وعين السهلة، وأما الثاني فسمي "معليه عيرون" أو طلعة عارة بالعربية. لم يلب هذا المجلسان احتياجات السكان. لم يشملا خططا لمسطح القرية ومناطق النفوذ ولم يكن بين البلدات أي رابط مادي بين السكان ولا أي تواصل إقليمي، وقد وقف ذلك حاجزا أمام تطوير المشاريع المشتركة، وخاصة مشاريع البنية التحتية. يمكنهم الآن أن يعينوا رجلين من شاش وموظفين يهودا كثيرين في كلا المجلسين. واستمرت وزارة الداخلية في مماطلتنا.

يضم مجلس برطعة كما هو معلوم، ثلاث بلدات وعدداً من السكان يبلغ عشرات الآلاف منهم 4200 من برطعة. حسب المقياس الاقتصاديّ الاجتماعيّ للجنة المركزية للإحصاء درجة بلدات بسمة هي 2 وهي من أدناها في الدولة. في نفس السنة أعلنت وزارة الداخلية عن إقامة مجلس محلي يهودي والتي ضم كتسير، شرقَ برطعة، وحريش، غربَ برطعة؛ وبالطبع جعلوا بينهما اتصالا جغرافيا، وقسما منه على أراضينا. كلا البلدتين جديد نسبيا. أقامهما إريك شارون حين كان وزير الإسكان في إطار مشروع "النجوم" وهي بلدات أقيمت على الخط الأخضر بين البلدات العربية، من أجل منع توسعها ومن أجل درْس ومحو الخط الأخضر على حد سواء. أقيمت حريش وكتسير على أراضي الدولة التي كانت معدّة لتطوير برطعة، وقد سُلبت من منطقة نفوذ المجلس الإقليمي منشّه وقسم منها صودر من برطعة قبل سنوات. منطقة نفوذ هذا المجلس الجديد تضم أراضيَ خاصة من برطعة، وفيما بينها قطعة أرض خاصة لعائلتي تقع في قلب كتسير تماما.

للأسف، ضعف نضالنا. يئس منا قسم، وملّ أعضاء الكنيست منا، وقعت أحداث أعظم وأهم في الدولة. وبهذا فشلنا في إقامة سلطة محلية تناسب أهل بلداتنا وأصبح هذان المجلسان واقعا جاثما إلى اليوم. ولكن السنوات قد فعلت فعلها. من ذلك الحين، أجريت انتخابات حرة وديمقراطية في كلا المجلسين وانتخب رؤساء مجلس الذين عملوا، وما زالوا، على تطوير البلدات ورفاهية أهلها. مهنية موظفي المجلس آخذة في التقدم باطّراد ويقومون بعملهم مخلصين فيه.

شخصية جماهيرية شابة

عملتُ، وحتى قبلَ النضال الذي لم ينجح، على مدار سنوات عديدة ضد إقامة المجلس الإقليمي من خلال جمعيات مختلفة لتطوير برطعة. نسبيا، كنت شابا بعمر 22 ربيعا، ومع ذلك كنت شخصية عامة معروفا في قريتي. كنا مجموعة من الشباب وأحسسنا بأنه قد آن الأوان أن نعمل في برطعة، وأن نثير حراكا ثقافيا واجتماعيا، وأن نحفز الناس ليفكروا في حياتهم. قررنا أن نصدر صحيفة محلية تعالج شئون القرية، سميت هذه الصحيفة "بالنهضة". حتى إني لأَذكرُ تاريخ إصدار أول عدد منها وهو 15 من تموزَ 1975. نجحنا في نشر الصحيفة بفضل جفعات حبيبة، حيث بدأت بالتطوع في تلك الفترة. قاموا بمنحنا ميزانية أوليّة متواضعة وكان يفترض أن نبيع النسخ ونغطي قسطا من النفقات. في نهاية المطاف، طبعا، قمنا بتوزيعها مجانا. أردنا أن يقرأ الناس ويطّلعوا.

كتبت، فيما يخص مقالي الأول، أن غايتنا هي إثارة النقاش حول المشاكل المختلفة في القرية، أن نشجع الناس على الانخراط في العمل من أجل القرية والتطوع لها. صرّحنا بأننا نطمح لتحريك الشباب، وأن ننظم لهم محاضرات ومشاريع، وأن نثير لديهم اليقظة– الحراك، كما يسمون ذلك اليوم– من خلال

حركات الشبيبة التي أقيمت في البلدات العربية. منذ 1975 كنت مدركا لهذه الظاهرة وشجعتها في برطعة. تحدثت المقالات في الصحيفة عن تاريخ برطعة؛ وصفت النظام التعليمي والفروق بين برطعة الشرقية والغربية، بل وقارنت بين عدد التلاميذ هنا وهناك؛ شجعنا إقامة لجنة آباء، والتي لم تُقم من قبل، وأوضحنا كيف يمكن لذلك أن يساعد المعلمين والتلاميذ وأن يطور قريتنا. لم ترُق هذه الخطوة بعض الأفراد. في نفس السنة أقيم فرع لعيادة الأم والطفل. دعونا النساء، في أحد مقالات الصحيفة، كي يذهبن مع أولادهن للاستشارة، الفحص وتلقي التطعيمات. شجعناهن كي يستعملن الخدمات الجديدة التي توفرت لديهن والتي لم تكن معروفة لهن من قبل. تحدثنا أيضا عن أهمية تكوين فريق كرة قدم برطعة. أنشئَ الفريق سنة 1969 وكان من الفرق الأولى في المنطقة. كنا في الدوري د وبعد ذلك ارتقينا لدوري ج ولدوري ب. طلبنا من أهل القرية دعما ماديا لصمود الفريق، لأننا عرفنا بأنه لولا الدعمُ لن يتمكن من الاستمرار والتقدم. كنت من أوائل الذين تبرعوا بالمال وشجعت الآخرين لينضموا ويتبرعوا.

بعد أن توفي والدي أنشأت على اسمه جمعية "الكامل" (وهو اسم والدي) ورصدت أموالا لكثير من المشاريع العامة: إنشاء المكتبة الأولى في القرية، تنظيم مخيمات للأولاد في عطلاتهم وفعاليات دعم للنساء (والتي أولَيناها عناية خاصة) دورات للخياطة، الأدب والطبخ بالإضافة لتعليم السياقة، الأمانة المكتبية (السكرتارية) وغيرها. نظمت الجمعية دروسَ مساعَدة، حملات نظافة في القرية، فعاليات تخص كهول البلدة والبالغين، جولات في أرجاء البلاد واستضافة بعثات من داخل البلاد وخارجها، والقائمة ما تزال طويلة. أنشأت مع بعض الأصدقاء أيضا جمعية برطعة لتطوير وتقدم القرية وقد نشطت في المجال الاجتماعي كثيرا. لذلك رأى فيّ الناس قائدا وتوقعوا مني أن أكون رئيسا للمجلس، وفي الحقيقة، طمحت كذلك لهذا المنصب وآمنت بأنه يمكنني القيام به والعطاء على أكمل وجه لأهل القرية.

الانتخابات الأولى لمجلس بسمة

سنة 2001، حين انتهت ولاية رئيس المجلس المعين من شاس، قررت وزارة الداخلية أن تعلن عن انتخابات لمجلس بسمة، والذي يتكون اسمه من الحروف الأولى لأسماء البلدات. قلت في نفسي إني سأنتظر لأرى من هي القيادة التي ستتولى مجلس برطعة، وهي القرية الكبرى والرائدة من بين القرى الثلاث، ومن سيقدم ترشحه لرئاسة المجلس. في الانتخابات الأولى فاز أحد الأقارب والذي كان أيضا صديقا لوالدي ومن نفس جيله، أحمد إبراهيم كبها، أبو إبراهيم، وهو إنسان محترم كان عضوا في لجنة التربية والتعليم حين كان أبي مختارا. بالطبع، احترمت هذا الاختيار: كان هذا اختيار أهل القرية لإنسان ناضج، محترم ومسئول، والذي كان معروفا بعطائه للمجتمع ومساعدته للناس. وعلى الرغم أنه لم يكن ذا ثقافة أكاديمية، فقد كان قائدا يدير المجلس في سنواته الأولى. في آخر فترة توليه قرر أبو إبراهيم ألّا يرشح نفسه للانتخابات مرة أخرى، على الرغم من إنجازاته، وبل وتوجه إليّ جماعة من الناس وعرضوا عليّ المنصب. في الحقيقة، ترقّبت هذه الفرصة. وكما ذكرت، منذ توفي والدي أعددت نفسي عمليا لقيادة برطعة كرئيس للمجلس منتخب لا كمختار فقط، والآن ضُمت قريتان للمجلس. قدمت ترشحي، وعلمت أن لدي دعما.

لربما يجدر بي التوقف هنا قليلا، لأشرح أهمية الانتخابات البلدية في الوسط العربي ومدى شحنها بالمشاعر. انتخاب رئيس المجلس هو انتخاب عشائري وكذلك الترشح للعضوية في جلسات المجلس أيضا مبني على التقسيم بين عائلات القرية. لدي الكثير من النقد لهذه الطريقة، والتي توصل لقيادة القرية لا لأنه يلائم المنصب وإنما لأنه ينتسب لعائلة فلان الفلاني. المجلس هو أحد أوساط التوظيف الكبرى لدينا ويرى المنتخبون في رئيس المجلس شخصا إذا ما دعموه، فسيحصّل لهم ولعائلاتهم الوظائف وسيعينهم فيها وإن لم تكن لديهم

المؤهلات. يعاني ما يقدر بثلث المجالس المحلية العربية من شح في الميزانيات وإدارة غير سليمة. في طريق كل رئيس تقف عدة حواجز وعقبات، وكتب حول ذلك الكثير من الأبحاث والتقارير الصحفية. وما بعدَ أن يُنتخب شخص فقط كممثل لعائلته من غير أي مؤهلات ملائمة ويكونَ مرغما على الوفاء لناخبيه وعائلته بالوعود أكثر مما لبلده، يمكن أن يزيد الوضعَ سوءا على سوء.

يمنح المنصب لصاحبه قوة، نعم، ولكن الوضع الاقتصادي لأغلب المجالس العربية يقف عثرة أمامه. فدفع ضريبة المسكن غير منتظم، وعلى النقيض من المجالس اليهودية، ليس للبلدات العربية مصادر ضرائب سكنية (أرنونا) وافرة النصيب من المناطق الصناعية أو المكاتب. على الأغلب، في المجالس العربية محاسب مرافق من قبل وزارة الداخلية، وفي أغلب الحالات يكون يهوديا والذي لا يعرف المجتمع ولا البلدة معرفة كافية. تقوم الداخلية بتعيينه كي يحفظ حصيلة الأموال ويمنع استعمالها لأنها خُصصت للسلطات المحلية. أضف إلى ذلك أن الصعوبات في تهيئة خطط مسطح القرية وتقليص مناطق النفوذ، والتي ستوصف تباعا، تؤدي إلى البناء غير المرخص وكل محاولة لفرض القانون تشعل حفيظة الناس والمظاهرات. أعترف بأنه ليس الذنبُ ذنبَ الحكومة وحدها، بل ومجتمعنا له في ذلك نصيب. الفرق الجوهري بيننا وبين البلدات اليهودية هو أنها مقامة على أرض حكومية بينما بلداتنا تقام على أراضي خاصة ولذلك يعسُر إنشاء منشآت جماهيرية ويعترض أصحاب الأراضي على مشاريع التطوير المختلفة للمجلس. من الأسباب المهمة الأخرى للصعوبات الناشئة أمام مسطّح القرية أنَ أغلب السكان العرب محاطون بمناطق نفوذ المجالس اليهودية حتى "خطها الأزرق" وهو حد البناء، ولذلك لا يمكنها التوسع. ليس لدينا أراض إضافية وأحيانا تنتظر سنينَ توصياتِ "لجنة الحدود" والتي يتمثل عملها بالتخفيف من الضائقة قليلا. عندما كنت رئيسا للمجلس أوصت لجنة الحدود بأن تُضمّ مناطق نفوذ إلى بلدتنا من

بلدة يهودية مجاورة، والتي وافقت على ذلك موافقة نادرة الوقوع. إلا أن وزير الداخلية رفض المصادقة على التوصيات. وهكذا، تبقى أغلب البلدات العربية في الدولة لسنوات طويلة بلا خطط مصادقة لمسطّح البلدة، وأما السكان فيضطرون للاستمرار في بناء بيوتهم "بسبب التكاثر الطبيعي" (وهو مصطلح نسمعه عندما نتحدث عن المستوطنات) ويقومون بذلك من غير ترخيص، فلا مناص.

حسب رأيي، سياسة التخطيط في الوسط العربي هي عمليا بلا تخطيط. ينبغي على رئيس المجلس الجيد أن يعمل على توسيع مسطح البلدة ومناطق نفوذها، وأن يسعى لإنشاء مناطق صناعية وأن يشجع المبادرات. لكن رؤساء السلطات منهمكون في حل المشاكل اليومية العاجلة وليس لديهم الوقت الكافي، وأحيانا يفتقرون للأدوات، للتخطيط على المدى الطويل، والتفكير في استراتيجيات للوصول إلى ما يريدون لبلدتهم. لذلك تعاني البلدات من الإهمال، البطالة، وغياب المبادرات المحلية والحكومية. بعض موظفي المجلس قد وصلوا للتآكل المهني ويفتقرون للمهارات التي تدفعهم للتطور، والقيام بوظائفهم وخدمة أهل البلد كما ينبغي. ينبغي على الرئيس الجيد أن يطور طاقمه، أن يشجع موظفيه على التعلم والاستكمال. ينبغي أن يغرس ثقافة دفع الضرائب لدى السكان، أن يجعلهم يدركون بأنه لصالحهم، وأن هذه الأموال ستجبى لخدمتهم وعائلاتهم، وبالطبع، أن يعين أناسا ملائمين مهنيا وعدم تفضيل الأقرباء. يجب أن ندمج النساء في وظائف مهمة وينبغي تشجيعهن على الانخراط في الحياة السياسية والجماهيرية. تحسين مرأى القرية ونظافتها مهمة ضرورية أيضا– فالناس الذين يحرصون على نظافة بيوتهم وحدائقهم لا يترددون في رمي القمامة في المناطق العامة وكأنها لا تخصهم؛ ينبغي رفع مستوى الوعي للمسئولية الجماهيرية بمشاركة الجماهير في القرارات المهمة وتشكيل رؤيا مشتركة للبلدة. والمهمة الأكثر أهمية اليوم في البلدات العربية

هي مجابهة العنف. لقد تضرر الأمان الشخصي وأحيانا تخشى القيادة المحلية معالجة هذا الأمر.

فقد عديد من رؤساء السلطات مركزهم كقواد جماهيريين لأنهم فشلوا في حل المشاكل المتلاحقة، وعلى رأسها العنف وخسروا بذلك ثقة الناس. لا تتورع وزارة الداخلية عن إقالة رؤساء السلطات الذين فشلوا وأن تضع لجانا معينة، لكنها عادة ما تكون منقطعة عن الناس وهذه ظاهرة مقلقة. مع ذلك أومن بأن الرئيس يمكن أن ينجح إذا كانت لديه الرؤيا والقيادة، إن كانت لديه نظرة شاملة وبنى علاقات طيبة مع أهل قريته.

الانتخابات الثانية– انتخابي

كبها هي عائلة كبيرة تعدادها عشرات الآلاف من الناس وأغلب سكان برطعة ينتسبون إليها. العائلة مقسمة لحمائل وعائلات فرعية، نعم، ولكنّي أصررت على أني مرشحُ كل القرية ولست مرشحَ عائلتي فحسْب. صرّحت بأنني مرشح سيعمل من أجل كل أهل القرية وآمنت بأن رئيس المجلس ينبغي أن ينشغل بالسياسة الكبرى لا الصغرى، أن يخطط للمدى البعيد وألا يهدر الوقت في أمور ثانوية وهامشية؛ وكذلك فعلتُ فيما بعدُ. لكن لا يمكن تغيير عادات طال عليها الأمد في يوم واحد. في البداية دعمني قليلٌ فقط من عائلات برطعة الصغيرة. كانت لدي مشكلة مع بعض الناس في القرية والذين لم ينتخبوني لأسباب مختلفة. كان هناك من سأل: "كيف سيكون هو رئيسا للبلدة لا أنا؟" هكذا هم، أناس ضيقو الأفق، وحتى إن لم يرشحوا أنفسهم، سيحسدون مرشحا متقدما على غيره ولن يصوتوا له. في الجولة الأولى كان سبعة من المرشحين. تقدمت للجولة الثانية مع مرشح من معاوية وطلب مني أن أقوم بحملة انتخابية مرة أخرى ومحاولة إقناع الناس أن يصوتوا لي. فزت بما يزيد على 70% من الأصوات، ومن بين مصوتي برطعة حظيتُ بـ 80%، على

ما يبدو، إذن، أنني نجحت في شرخ جدار الحَمائلية. أعلنت مسبقا بأنني سأتولى جولة واحدة فقط وبعد ذلك سأعود إلى جبعات حبيبة.

لقد كان شكرُ من انتخبوني أول ما قمت به عندما توليت منصب رئاسة المجلس. وفورا، اطّلعت على توقعات الناس مني، وهي ظاهرة، قد عرفت عنها من قبلُ حقّا، لكني لم أتصوّر كم ستؤثر على أدائي. لقد كان لدى الناس توقعات واسعة مني، والكثير منها، وفي مجملها توقعات خاصة. وما إن انتخبت حتى بدأت الضغوطات عليّ من طرف أقربائي، ممّن صوتوا لي، والذين كانوا متيقنين أنني مدين لهم بكل ما يريدون. حضروا إليّ وطلبوا وظائف بلا حرج: هذا يريد توظيف ابنته معلمة، وذاك يريد أن يعمل ابنه في المجلس وذلك يبغي لنفسه منصبا مرموقا، رغمَ عدم امتلاكهم لأي مؤهلات. حينئذٍ اتّضح لي لماذا لا يستطيع رئيس المجلس العربي أن ينجح حقا.

مهما يكن، لم أكن أستطيع تعيين أي شخص ولو كان عبقريا، لقد كان الوضع الاقتصادي للمجلس مزريا فقد كان لدينا مديونية ولم يتلقّ الموظفون رواتبهم منذ أشهر. كان معنا محاسب مرافق، يهودي، لا افضلية لديه للمصوتين، والذي لم يصادق على أي تعيين. قررت ألا ألبي أي طلب حينها، أن أقوم بإشفاء المجلس ثم أرى ما ينقصنا. خيّب هذا ظن العديد من الناس، لم أقم بشيء بعدُ في المجلس وقد خاب ظنّهم فيّ.

رئيس مجلس على مدار الساعة

المهمة التالية التي وضعتها لنفسي، هي تحضير برنامج عمل للمدى الطويل. كان الهدف الفوريّ تعزيز موظفي المجلس وتوسيع صلاحياتهم. في السلطات المحليّة العربيّة، رئيس السلطة هو عادة صاحب القرار الحصريّ. فهو يقرر من يكون بواب المدرسة، ومتى يبدأ التنظيف ومتى يعود إلى البيت؛ وهو يقرر من تكون المساعدة في الحضانة ومن لا؛ قلت لنفسي، لماذا ينبغي أن أتدخل

في هذه الأمور؟ لماذا لا يكون لكن موظف أو رئيس قسم صلاحية معالجة تلك القضايا ضمن مسؤولياتهم؟ هكذا سيكون لدي المزيد من الوقت للاهتمام بالشؤون الاستراتيجيّة والتخطيط، وتوثيق العلاقات مع الجهات الخارجيّة، وتكون لهم مكانة أكبر بنظر السكان. لذلك أعددت برنامج تمكين واستكمالات لكل قسم. كان هذا أمر جديد في مجلسنا، اتباع حزب شاس الذين سبقونا لم يفعلوا ذلك بطبيعة الحال، فهم لم يرغبوا بتوزيع الصلاحيات. تلقيت ردود فعل إيجابيّة من الموظفين، وشعرت أنهم يباركون الأمر، وبالفعل بدأوا العمل بأكثر رغبة وفاعليّة.

في أيام الأحد صباحًا اعتدت عقد جلسات أسبوعيّة مع جميع الموظفين ورؤساء الأقسام. كنا نناقش المشاكل، وكنت استمع إلى تقاريرهم. هكذا شعر الموظفون بوجود مراقبة على أعمالهم، وبالمساعدة المتبادلة والدعم من قبل رئيس المجلس. كنت أكرس وقتًا خاصًا لزيارة القرى الأخرى الأعضاء بمجلس بسمة، عين السهلة ومعاوية. كنت أتجول هناك، أراقب تنفيذ المشاريع والتقي مع السكان. لا يمكن لرئيس المجلس الانغلاق في مكتبه. وكنت أسافر كثيراً خارج القرية، إلى القدس وتل أبيب، مرتين في الأسبوع، أو أكثر. رئيس المجلس الذي يجلس في مكتبه طيلة الوقت لا يستطيع الحصول على الأموال. عليه أن يتنقل بين الوزارات الحكوميّة.

مكاتب المجلس كانت بداية في مدينة الخضيرة، من مخلفات اللجنة المعيّنة، كنت مصراً على نقلها إلى قريتنا لتسهيل العمل وتوفير الوقت والمال، ولتثبيت حقيقة على أرض الواقع، فعلي المجلس أن يتواجد على أرض سكانه وليس في مدينة مجاورة. بداية تم نقل المكاتب إلى كفر قرع، وبعد ستة شهور نقلتها إلى برطعة.

كنت أقوم بزيارات دائمة إلى قرى المجلس، وفي كل جولة كنت أصحب معي بعض الموظفين بغية تعزيزهم أمام السكان وتعزيز مشاعر المسؤولية لديهم. لم أرغب أن يبقوا في مكاتبهم وأن يأتي السكان إليهم، أردتهم أن يتواجدوا في الساحة وأن يشاهدوا المشاكل عن قرب وأن يبحثوا عن الحلول.

كما أسلفت، فأنّ ميزانية المجلس كانت بوضع سيء جداً. عندما تسلمت المجلس كانت سبعة أوامر حجز من قبل مقاولين ضد المجلس، الذي كان يدين لهم مبالغ كبيرة. الموظفون لم يتلقوا معاشاتهم منذ ستة شهور. بدأنا بخطة إنعاش، وبدأت أجند الأموال من المكاتب الحكوميّة وتنفيذ الخطة بالتعاون مع وزارة الداخلية. نجحت بموازنة المجلس وبدأ الموظفون يتلقون معاشاتهم. كان ذلك في فترة حكومة حزب العمل، وبفضل علاقاتي الشخصيّة مع الوزراء نجحت خلال سنتي الأولى كرئيس للمجلس بالحصول على هبة هي الأكبر مما تلقاه أي رئيس سلطة في المنطقة.

تعلمت مع الموظفين كيف نرد على "طلبات العروض" من قبل الحكومة. طلبات العروض التي تنشرها الوزارات الحكوميّة تقترح ميزانيات كبيرة جداً لمشاريع في مجالات عديدة. وهي تتضمن شروطاً واضحة ودقيقة لغايات الهبة وكيفية صرف الأموال المخصصة، وضرورة تقديم تقارير عن المصاريف. يتطلب الرد على "طلبات العروض" الدقة في التفاصيل والميزانيات، والمهارات العالية كذلك. لا تستطيع السلطة المحليّة الحصول على تلك الهبات إذا لم يتوفر لديها الموظفين الذين يعرفون كيفية تعبئة الاستمارات الخاصة وصياغة مقترحات مشاريع.

نجحنا بزيادة معدلات جبابة الضرائب ورسوم ضريبة الأرنونا. بغية عن اختلاق مواجهات مع السكان، عملت على استئجار خدمات شركة جباية خاصة، ولكن حتى قبل بدء عمل الشركة كنت أعمل على تجنيد عائلة المدان

وأخبرهم بالدين، وأقول لهم أنه في حالة عدم تسديد الدين سوف نرسل له شركة الجباية، وإذا جاء لتسديد الدين سوف نتساهل معه، نقسّط له الدين لعدة دفعات. في بعض الحالات الصعبة كنت أذهب بنفسي إلى بيت المدان وأمارس الضغوطات على النساء والأولاد. وجدت الكثير من عدم الوعي لدى السكان. العديد منهم لم يعرفوا أنهم يستحقون الحصول على تخفيض بضريبة الأملاك، وأنه يوجد موعد خاص لتقديم طلبات الإعفاء والتخفيضات. طلبت من الموظفين فحص من يستحق الحصول على التخفيض وإبلاغ السكان بذلك. السكان كانوا راضين، فلأول مرة يعرفون أنهم يستحقون الحصول على تخفيضات، ولذلك قاموا بتسديد الديون. هكذا نجحت بجعل غالبية السكان تسديد ضرائب المجلس.

إلى جانب الجباية عملنا على تعزيز خطط البناء، فعبّدنا الشوارع وحسّنا مداخل البلدات. استثمرنا الكثير في التعليم. كان لدينا طاقم مخلص من رؤساء الأقسام والموظفين والعاملين في كل مجال ومجال. أيضًا لجان الأهالي والمديرين والمفتشين العاملين في وزارة التربية والتعليم ساعدونا. تجند أعضاء المجلس والسكان لإنجاح المهمة، والتي تتعلق بكل عائلة، ونجحنا بإقامة قسم تربية من المهنين الرائعين نفتخر بهم. في عهدي جرى بناء مدرستين، ابتدائيّة واعداديّة، وقمنا بافتتاح أول مدرسة ثانوية لأولادنا. كان ذلك من المشاريع الناجحة والهامة في البلدة، فحتى تلك الفترة كان تلاميذنا يتعلمون في مدارس مختلفة في أنحاء البلاد، يضيعون الوقت في السفر ويعانون الإهمال.

في البداية رفضت وزارة التربية والتعليم افتتاح مدرسة ثانوية، فقد تسجل لها أربعين تلميذًا فقط. عملت شخصيًا على زيارة أهالي تلاميذ الصف التاسع لإقناعهم بتسجيل أولادهم في المدرسة الجديدة. توجهنا إلى كليّة سخنين التي وافقت على رعاية المدرسة. كليّة سخنين هي التي تدير المدرسة من الناحيتين المالية والإداريّة، لكنهم اشترطوا عدم تدخلهم بتعيين المعلمين. ألقينا مهمة

الإدارة على سفيان كبها، وهو شخصيّة تربويّة معروفة في المنطقة، حاصل على اللقب الثاني في الاستشارة التربويّة وصاحب تجربة طويلة في التعليم في أفضل المدارس في البلاد. تعهدت له بعدم تدخل المجلس بتعيين المعلمين. تم اختيار أفضل معلمي الثانوية في برطعة، وقام قسم التربية في المجلس بمتابعة تطوير المدرسة. منذ تلك الفترة وحتى اليوم راكمت المدرسة في برطعة النجاحات الممتازة، والعديد من خريجي المدرسة يواصلون الدراسة الأكاديميّة. في المستقبل، وعندما سيقام المجمع التعليميّ، الذي خططنا له في عهدي، فسوف يكون ذلك في برطعة. حالياً يعلم المجمع التربويّ من داخل بنايات مؤقتة.

قمنا بترميم جميع المدارس في البلدات الثلاث. احطنا المدارس بالجدران، وأقمنا ملاعب رياضيّة ومختبرات. كما استكملنا بناء مدرسة فوق ابتدائيّة في معاوية، وبنينا قسم جديد في مدرسة عين السهلة، واشترينا غرف جاهزة للصفوف للمدارس التي عانت من النقص في الصفوف التعليميّة (بعضها بمساعدة جهات محليّة والبعض الآخر بمساعدة وزارة التعليم)، وظفنا معلمين للغة الإنكليزية في إعداديّة برطعة، وزودنا المدارس والروضات بمعدات جديدة، وخاصة لصفوف الحاسوب، وأقمنا صفوف للتعليم الخاص وروضات جديدة. أقمنا صف لتلاميذ التواسع في عين السهلة، فحتى تلك الفترة كان التلاميذ يتعلمون في البلدات المجاورة، وحصلنا على مصادقة لبناء المجمع التربويّ في برطعة. المديرون جميعهم تعاونوا معنا، الأمر الذي أسهم كثيراً بتعزيز التعليم.

أود أن أؤكد مرة أخرى على ما كنت أؤمن به دائماً: رئيس السلطة الذي يريد النجاح وهو على استعداد للنضال والعمل الشاق، يمكنه الحصول على ميزانيات لكل ويحقق كل هدف يضعه لنفسه. ينبغي عليه الإكثار من زيارة المكاتب الحكوميّة وإنشاء علاقات جيدة من الناخبين، والموظفين والسكان.

وهذا ما حدث عندما أردت تطوير البنى التحتيّة. أخذت على عاتقي حل المشكلة. هذه من الأمور التي يجب على رئيس المجلس الاهتمام بها، فأهميتها عظيمة، حتى وإن بدا الأمر رماديّ وممل. في تلك الفترة كان فؤاد بن اليعزر وزير البنى التحتيّة، وهو يتحدث اللغة العربيّة وقدم العديد من المساعدات للبلدات العربيّة من خلال توليه مناصب مختلفة في الحكومة. استطعت عن طريقه الحصول على مبلغ من المال نصفه هبة والنصف الآخر قرض لبرطعة. هكذا بدأت بإنشاء شبكة مجاري جديدة، وتم ربط برطعة الشرقيّة أيضًا بخط المجاري، الأمر الذي شجعهم على استثمار الأموال التي حصلوا عليها من السلطة الفلسطينيّة ومن متبرعين خارجيين، ولديهم اليوم شبكة مجاري متطورة أكثر مما لدينا. المياه، الصرف الصحيّ والهواء – جميعها لا تعرف الحدود ولا تهتم بالسياسة. يعلم الجميع أنه حتى لو كانت لدينا شبكة للصرف الصحيّ، بينما تسيّل المجاري عندهم في الشوارع، فسوف يعاني الجميع. عملت على استغلال العلاقات الجيدة بين الطرفين بغية التغلب على الصراع السياسيّ والتعاون في قضايا البيئة. هكذا أصبحت برطعة أو بلد في المثلث التي تم ربط جميع البيوت فيها بشبكة الصرف الصحيّ.

أقمنا بالتعاون مع أصدقاء من المنطقة منتدى لرؤساء سلطات محليّة عربية ويهوديّة في وادي عارة. وأقمنا بجانب عين شيمر مركزًا مشتركًا لتطهير مياه الصرف لجميع البلدات. وأقمنا اتحاد سياحة مشترك، ومحطة إطفائيّة للمنطقة في الخضيرة، كما خططنا لإقامة منطقة صناعيّة مشتركة. بفضل تجربتي الغنيّة كنت العامل المحرّك في المنتدى، وإلى جانبي كان الشيخ هاشم عبد الرحمن، من الحركة الإسلاميّة، ورئيس بلدية أم الفحم في حينه، وإيلان سادية، رئيس المجلس الإقليميّ منشه. الشيخ عبد الرحمن هو شخص عمليّ وكان عضو لجان الصلح وعمل الكثير من أجل أم الفحم والمنطقة كلها. عرفتهما منذ سنوات طويلة خلال عملهما لتعزيز العلاقات اليهوديّة العربيّة في المنطقة، وتعزيز المساواة المدنيّة. بفضل علاقاتي نجحت بتقديم المساعدة

أيضًا لبرطعة الشرقية، التي انتعشت خلال فترة ولايتي. واستطعت منع إقامة جدار الفصل بين القريتين، كما أسهمت بإقامة السوق في برطعة، وساعدت في منع هدم بيوت في برطعة الغربيّة وفي برطعة الشرقيّة من قبل السلطات الإسرائيليّة. للأسف، وبعد انتهاء ولايتي قام الجيش الإسرائيليّ بهدم بيوت في برطعة الشرقيّة، لأنها أقيمت خارج حدود الخارطة الهيكليّة في منطقة C. كما في جميع المدن في الضفة الغربيّة، فإن البناء مسموح في المنطقة B الواقعة تحت سيطرة السلطة الفلسطينيّة، لكن المناطق الواقعة في المنطقة C في تحت السيطرة الإسرائيليّة. ما زالت لي علاقات طيبة جدًا مع رئيس المجلس المحليّ في برطعة الشرقيّة، غسان كبها، الذي تحدثت عنه سابقًا، وأحاول مساعدتي قدر استطاعتي.

بدأنا التحضيرات لشق شوارع جديدة في عين السهلة ومعاوية، وأقمنا دوّرات جديدة وحديثة لتسهيل حركة السير. قسم الهندسة أشرف على جميع تنفيذ جميع الأعمال هذه؛ قسم الصحة اهتم ببناء عيادات وتنظيف الوديان، والشوارع والمساحات العامة؛ موظف مهنيّ من القرية عمل على تطوير منظومة الحوسبة ولاحقًا أصبح مسؤولًا عن أعمال الكهرباء. حظيت بالتعاون مع طاقم متفاني من موظفي المجلس في جميع المجالات ومن جميع الأقسام. مسؤولو الخزنة وقسم الضرائب البلديّة مارسوا أسلوب عمل جديد أدى إلى زيادة نسبة الجباية، الأمر الذي تطلب حساسيّة عالية، وأسهم في نجاح القسم في جميع المجالات. كما اذكر قسم الحسابات والمحاسبين المرافقين الذين أصبحوا من أصدقائي، والمستشارين القانونيين والسكرتارية المخلصين. بفضل طاقم قسم الشبيبة والرياضة نجحنا بتأسيس فريق كرة قدم وبناء ملعب لائق. وفي قسم الرفاه ازداد عدد الملكات من اثنين إلى خمسة، وبضمنهم عاملة اجتماعيّة رائعة، التي بادرت إلى ادخال مشروع "شميدت" من أجل الشباب في ضائقة، والعديد من النشاطات لرفاهيّة السكان.

رغم الضغوطات المترتبة عن المنصب، لم أهمل واجباتي الاجتماعيّة، فهي جزء من التزامات كل قائد جماهيريّ. شاركت في المناسبات المحليّة والقطريّة الخاصة في السلطات المحليّة العربيّة ونضالنا الاقتصاديّ وضد عدم المساواة في الميزانيات والاستثمارات في البلدات العربيّة. بعد شهرين من انتخابي لرئاسة المجلس انضممت لخيمة اعتصام رؤساء السلطات المحليّة العربيّة أمام مكتب رئيس الحكومة. كان ذلك أحد أطول الإضرابات وأصعبها؟ نمت هناك بضعة ليالي، في البرد القدسيّ والمطر مع الشيخ هاشم عبد الرحمن، وشوقي خطيب ورؤساء سلطات محليّة آخرين. كنت ناشطًا في لجنة رؤساء السلطات المحليّة العربيّة، وهي هيئة تنسيق بين السلطات وهامة على الصعيدين القوميّ والسياسيّ. كما كنت ناشطًا في مركز الحكم المحليّ الإسرائيليّ وفي منتدى الزملاء التابع له، وشاركت في جولات تعليميّة في البلاد وخارجها. زرت الكنيست عدة مرات وشاركت في معظم الأحداث السياسيّة التي نظمها النواب العرب ومؤسسات المجتمع المدنيّ. حرصت على التزام بالإضرابات ودعوة السكان إلى الإضراب في كل مرة كانت لجنة المتابعة تعلن فيها عن إضراب احتجاجيّ بعد هدم منازل، أو كرد على خطوات أخرى اتخذتها الحكومة ضد المواطنين العرب.

لحسن حظي ساد الهدوء خلال فترة رئاستي للمجلس، فقد أقمنا ائتلافا واسعًا بمشاركة الجميع وتمت المصداقة على المشاريع بسهولة. أعضاء المجلس ساعدوني وساهموا طيلة الوقت، وكل شيء تم بالتشاور معهم ومع الجمهور. لم يكن لي أن أحقق ما حققته لولا تفاني عمال المجلس والأعضاء، ولولا ثقة السكان ودعمهم. موظفو المجلس جميعهم يستحقون الشكر والتقدير على مساهمتهم بالنجاح.

برامج لم تُستكمل

في فترة رئاستي مثلت أمامي العديد من التحدّيات. في تلك الفترة كانت حرب لبنان وغزة أيضًا، وتم تقليص الميزانيّات، وبطبيعة الحال كان لدى الوزارات الحكوميّة أولويات أخرى. أستطيع أن أذكر خطط لم أنجح بتنفيذها خلال فترة رئاستي للمجلس: لم أنجح بالانتهاء من الخارطة الهيكليّة للبلدات التابعة للمجلس، والتي بدأها من سبقني في الرئاسة. كما أشرت سابقًا في هذا الفصل، فإن قضية الخرائط الهيكليّة في البلدات العربيّة هي قضية مؤلمة ومشحونة، تُجسّد بعدًا هامًا في التمييز ضد المواطنين العرب في دولة إسرائيل. حاولت كل استطاعتي إنهاء الخارطة الهيكليّة، واستثمرت فيها الأيام والليالي، لكنني لم أقبل بما اقترحته وزارة الداخلية. على الأقل اتفقنا بعدم هدم أي بيت في برطعة حتى المصادقة على الخارطة الهيكلية؛ وفعلًا، خلال فترة رئاستي لم يتم هدم أي بيت في برطعة، ولكن هذا لم يكن كافيًا. واجهنا مشكلة وكأنها مأخوذة من قصة كفكائية: الخارطة الهيكليّة لبرطعة التي صودق عليها عام 1975 تشمل مئة وعشرة دونمات كانت أرض دولة؛ في سنوات الستينيات نقلت دائرة أراضي إسرائيل هذه الأراضي إلى الصندوق القوميّ اليهوديّ، وهي تابعة اليوم لشركة "هيمنوتا"، وهي شركة تابعة للصندوق القوميّ ولا تبيع الأراضي للعرب. نعم هكذا تمامًا. تلك الأراضي تقع مقابل بيتي، وهي مساحات فارغة كان يمكن أن تحل العديد من المشاكل لدينا، ولكنها تابعة للصندوق القومي اليهوديّ ولا يمكن لأي رئيس سلطة محليّة البناء عليها. قسم التخطيط في وزارة الداخليّة لدولة إسرائيل يدعي أنه يوجد لدينا مساحة فارغة يمكننا البناء عليها، لكن شركة "هيمنوتا" – التي تمثل "الشعب اليهوديّ" وليس جميع مواطني إسرائيل – ترفض بيع هذه الأرض لنا، وهكذا ما زلنا عالقون في هذا الوضع حتى اليوم.

يسمح القانون للسلطة المحليّة بمصادرة حتى 40% من أرض خاصة للصالح العام. رئيس المجلس الذي سبقني، أحمد إبراهيم كبها، نجح ضد كل الاحتمالات بمصادرة جزء بسيط من الأرض المذكورة، وأقام عليها ملعبًا لكرة القدم ومقبرة. لا أعرف هل كان سينجح بذلك اليوم. عندما بدأنا التخطيط للمجمع التربويّ على تلك الأرض، أردت أن استغل صلاحياتي بمصادرة جزء من تلك الأرض لكنني لم أنجح. حتى اليوم ما زالت تلك الأراضي فارغة بينما نحن نعاني من نقص خطير في أراضي البناء. مرت منذ تلك الفترة أكثر من خمس سنوات وما زلت آمل أن يتم بناء المجمع التربويّ والمركز الجماهيريّ المخطط لهما هناك. حاليًا تعمل مدرستنا الثانويّة في مبانٍ مؤقتة، وهو أمر غير سليم وخطير. لدينا مئات أبناء الشبيبة الذين ليس لديهم مكانًا لقضاء أوقات من بعد الظهر فيه، ورغم نجاحي بتجنيد الأموال لإقامة المركز الجماهيريّ، لا يوجد لدينا أرضٍ لبناء هذا المركز. مشكلة أخرى أعاقت عملية التخطيط هي "أملاك الغائبين" التابعة لأقارب من برطعة الشرقيّة. هذه الأراضي مشمولة في الخارطة الهيكليّة، لكننا نرفض استغلالها. ربما سيأتي يومًا وتعاد هذه الأرض لأصحابها.

كلي أمل أن ينجح رؤساء المجلس الحاليين أو المستقبليين بحل طلاسم هذه المشكلة المصيريّة بغية تطوير برطعة. أملي أن يتم بناء المجمع التربويّ والمركز الجماهيريّ لرفاهيّة شبابنا. فهم يستحقون ما يستحقه كل شاب وشابة في دولة إسرائيل.

مع ذلك يمكننا النجاح

لست ممن يتهمون التمييز السلطويّ والحكومة بكل شيء. هذا لا يعني عدم وجود تمييز ضد المواطنين العرب والسلطات المحليّة العربيّة، لكنني أستطيع وفق تجربتي أن أقول ملء فمي أن رئيس السلطة الذي يعمل على نحو سليم،

ويزور كل أسبوع المكاتب الحكوميّة، يستطيع أن يحصل على أكثر مما يتوقعه. فإذا كان لديك خطة مهنيّة وتعرف كيف تستجيب ل"طلبات العطاء" والإعلانات الحكوميّة، فسوف تحصل على ما تريد. مثال واحد على ذلك، من ضمن أمثلة كثيرة، هو الدوّار الرئيسيّ في برطعة. في عام 2007، في الأسابيع الأخيرة من ذلك العام، كنت في الكنيست. كان ذلك في 26 كانون الأول. التقيت مع شاؤول موفاز، وزير المواصلات في حينه. قلت له: "حضرة الوزير، تنقصنا الأموال لبناء الدوّار وأنتم وتعهدتم لي بإقامة الدوّر في مركز برطعة. أنت شخصياً زرت القرية وتعهدت بذلك. صحيح أنني حصلت على جزء من المال، لكنني في نهاية العام الآن، فهل لديك ميزانية تسمح لي باستكمال العمل". قال موفاز: "اسمع، لدي سبعة ملايين شاقلًا. فإذا لديك مخطط تعال عندي غداً الساعة العاشرة وسأعطيك النقود". قلت: "لدينا خطة متكاملة، سآخذها من مهندس البلدة وسأجلبها لك غداً". عدت إلى البيت وأخذت المخطط من المهندس، وفي الغد سافرت ثانية إلى القدس. استقبلني موفاز، نظر في المخطط، وقال: "رياض، أصادق لك على ذلك"، واستدعى موظف من مكتبه، فقال له الموظف: "لكنك أوعدت سلطة أخرى بهذه النقود، مجلس يهوديّ، لا أستطيع أن أعطيها له". قال موفاز: أنا وعدت رياض. لديه خطة جاهزة، ولا يوجد لكل رئيس مجلس خطة ناجزة. لقد عمل جيداً وأنا سأعيطه هذه النقود". هكذا أقمنا الدوّار الرئيسيّ في برطعة، لمفخرة سكان شطري القرية.

أدرك جيداً مشاكلنا الداخلية في بلداتنا، ولا أتردد في التحدث عنها علانية. السكان لا يهتمون بالمشاريع التي أقمتها لتعزيز القرية وسكانها، بل بالسؤال هل يستحقون تخفيضاً بضريبة الأرنونا، أو هل عينت قريباً لهم في وظيفة ما. وهم غير مستعدين حتى للحد الأدنى من المساس بأراضيهم أو راحتهم، ومن الصعوبة بمكان لرئيس مجلس هو من عائلتهم مواجهتهم. صحيح أن مسألة ملكية الأراضي في إسرائيل هي من القضايا الأكثر حساسيّة وقابلية للتفجير.

الدولة هي المسؤولة عن الخرائط الهيكليّة، وعن مناطق النفوذ والأراضي، وتحاول أن تنقل تحت ملكيتها أكثر ما يمكن من الأراضي، ومصادرتها من أصحابها العرب وشرائها لسلطه "أراضي دولة". لا يمكننا التأثير كثيراً على هذا أو تغييره، لكن رئيس السلطة المحليّة يستطيع العمل كثيراً في جميع المسائل اليوميّة ضمن صلاحياته كرئيس للسلطة، شرط أن يكون مهنياُ ويعرف من هي حقوقه ويجيد التنقل في أروقة الحكومة.

التردد والقرار

مع اقتراب موعد انتخابات المجلس الثانية، ولدهشتي طلب مني سكان برطعة والعديد من سكان القريتين الآخرتين، ترشيح نفسي، رغم أنني، كما ذكرت، امتنعت عن توظيف الأقارب. بدأ السكان يأتون إلى بيتي ويحاولون اقناعي خوض الانتخابات. توقفت لأعيد حساباتي مع نفسي. وقلت لنفسي ولمن معي أنني سأترشح لولاية واحدة بغية تحقيق حلم ولأفحص هل يمكنني القيام بهذا الدور على أفضل وجه. اكتشفت أنني أحببت ذلك رغم الصعاب، لكنني كنت افتقد العمل العربيّ اليهوديّ والنشاطات في جبعات حبيبة. لقد عملت الكثير من أجل القرية ولم أقدم للأقارب الوظائف والمكافآت. شعرت بالإحباط لأنني لم أنجح باستكمال الخارطة الهيكليّة. كان ذلك يتطلب المس بالعديد من السكان، وإبقاء بعض البيوت خارج الخارطة الهيكليّة. الخارطة الهيكليّة القائمة لم تعد تكفي للسكان، والأراضي المقترحة لم تف بالحاجة. أدركت أن التخطيط غير عادل ولم أتمكن من تغيير ذلك. كنت أعرف أن موافقتي على ذلك سوف تسيء لي على نحو غير قابل للإصلاح. كما أسلفت، من الصعب لرئيس المجلس تغيير القرارات المتعلقة بالأراضي، بل مستحيل.

زوجتي والأسرة شاهدوا العمل الشاق الذي قمت به، الوقت الذي استثمرته، ورغم ذلك لم أحقق ما أردت. بيتي كان مفتوحًا على مدار 24 ساعة يومياً. كان السكان يتصلون بي حتى في منتصف الليل ويشتكون من فيضان مياه الصرف الصحيّ، ويتهمونني بعدم حصولهم على ترخيص للبناء. فقدت

أسرتي خصوصيتها ومع ذلك شجعتني على مواصلة الدرب. أولادي حساسين جدًا، فيكفي أن يلتقيهم أحد في الشارع ويقول لهم: "والدك لم يمنحني تخفيضًا، وفي المرة القادمة لن أصوت له"، فكانوا يأتون إلى والدموع في عيونهم: "لماذا يتحدث الناس عنك هكذا رغم العمل الشاق الذي تقوم به من أجلهم؟". في إحدى المرات، وعندما قمنا بتعبيد شارع في إحدى البلدات، جاء أحد السكان وطلب أن نعبد له طريق خاص يصل إلى بيته. رفضت، فبدأ يصرخ ويشتمني. شعرت بالمرارة. أولادي قالوا لي: "لماذا تحتاج أن يشتموك؟ لم يفعلوا ذلك في السابق". كنت مرة جالسًا مع ابنتي في مقهى أروما في مفرق كفر قرع بانتظار شخص ما. فجأة مر هناك أحد سكان قرى المجلس. قلت له: "تفضل، اجلس واشرب القهوة معنا". نظر إلى وقال: "اشرب أنت على حساب الضرائب التي ادفعها. اشرب، اشرب"، ثم استدار وذهب. هذه القصص تثير الغضب، وأنا لا أحب المشاجرات، ولست عصبيّ. لم أرغب بالحصول على نوبة قلبيّة.

لتجسيد حكم الاستثمارات التي استجوبتها الوظيفة مني، سأصف فيما يلي باختصار، يوم عادي في حياة رئيس المجلس. تعهدت لنفسي بالوصول إلى مكاتب المجلس قبل الموظفين. المجلس كان يفتح أبوابه الساعة الثامنة صباحًا، وعادة كنت أصل المجلس قبل ذلك بعشر دقائق، أقوم بجولة في البناية وانتظر وصول الموظفين، ثم أذهب إلى مكتبي، أراجع الرسائل، أرد على الرسائل الإلكترونيّة وأراجع جدول عمل ذلك اليوم. الساعة التاسعة أقوم بزيارة للأقسام، استفسر عن الأوضاع والعمل. لم أحدد جلسات قبل العاشرة صباحًا، حتى أستطيع تبادل الحديث الغير الرسميّ مع الجميع. من الساعة العاشرة كنت أبدأ اللقاءات اليوميّة، لكن باب مكتبي كان مفتوحًا دائمًا، لم أغلقه بالمرة. كل واحد كان يمكنه القدوم، حتى بدون تحديد موعد، وإذا كنت متفرغًا كنت استقبلهم. هذا النهج ليس ناجعًا دائمًا؛ فكل واحد يعتقد أن مشكلته هي الأهم وتحتاج إلى حل فوريّ، وكان الناس يسمحون لأنفسهم الدخول

خلال لقاءاتي مع آخرين. أردت أن يشعر السكان بأنني أصغي لهم وأن بابي مفتوح أمامهم. في نهاية المطاف تفاهمت مع الجميع. اعتدت البقاء في المجلس حتى الرابعة، بعدها أعود إلى البيت لتناول الطعام. في كل مساء برنامج آخر: زيارات الضيوف، أو سكان يريدون خدمات ما من المجلس ولم يتمكنوا من مقابلتي خلال اليوم، أو كنت أذهب للمشاركة بعرس أو مناسبة أخرى.

كنت أعمل على مدار الساعة. في بعض الأحيان كان الناس يأتون للشكوى والطلبات. في الشتاء، في ليلة شديدة المطر، نحو منتصف الليل، رن الهاتف في البيت، ومن الطرف الآخر كانت امرأة تصرخ وتقول أن المياه غمرت بيتها. ما الذي يمكن أن أفعله في منتصف الليل؟ ذهبت إلي بيتها واستدعيت سائق تراكتور ليقم سد ترابي لمنع المياه من دخول البيت. كنت هناك تحت المطر إلى أن انتهى من عمله. طلب سبع مئة شاقلًا مقابل عمله. في الغد ذهبت إلى المحاسب المرافق في المجلس، أخبرته بما حدث، لكنه رفض المصادقة على الدفع. لماذا؟ لأنك لم تطلب تصريحًا مني. قلت له: "هل أتصل بك منتصف الليل للحصول على تصريح"؟ فقال نعم، وأصر على عدم الدفع. طبعًا دفعت أنا المبلغ من نقودي الخاصة. كانت عدة حلات كهذه. أحيانًا كان يأتي زوار إلى برطعة، وكنت استضيفهم ولكن المحاسب لا يصادق على شراء التضييفات، فكنت استضيفهم على حسابي. الأمر محبط، فهل أنا كرئيس مجلس احتاج إلى رعاية المحاسب طيلة الوقت؟

كي أتجنب ضغوطات أصحاب المهن المحليين، لم أوكل المشاريع الكبيرة لمقاولين محليين. جميع المشاريع التي تكلّف أكثر من نصف مليون تم تنفيذها من قبل "شركة الخدمات الاقتصاديّة"، وهي شركة تابعة لمركز الحكم المحليّ. فهي كانت مسؤولة عن العطاءات، وعن اختبار المقاولين والتعامل معهم. المشاكل كثيرة وتحدث دائمًا ولم أريد التورط بها. عندما خصصت وزارة التربية

والتعليم مبلغ خمسة مليون شاقلّا لبناء المدرسة، توجهت إلى شركة الخدمات الاقتصادية، عرضت عليهم المصادقة، والميزانية والخطة، وهي قامت بإعلان العطاء، وأشرفت على المشروع وكانت مسؤولة عنه. هكذا قمت بهذا المشروع بنجاح كبير جداً.

أستطيع القول بكل تواضع أن فترة رئاستي للمجلس ساهمت كثيراً للقرية، وعندما أفكر بذلك أنفعل، وأتحمس وأشعر بالفخر بما فعلت وما حققته للسكان. يتذكر السكان نجاحاتي، يلتقون بي في الشارع ويقولون كم كنت إنسانياً وكيف حافظت على علاقات طيبة مع الجميع، وأحياناً يطلبون مني الترشح ثانية للرئاسة. سوف أواصل مساهماتي بطرق أخرى، لكنني أريد اليوم تكريس المزيد من الوقت للأسرة. وظيفة رئيس المجلس كانت عبئًا كبيراً علي وعلي أسرتي، حتى من الناحية الاقتصاديّة. صحيح أن معاش رئيس المجلس كبير نسبياً، لكن المصاريف هائلة. فيجب المشاركة في كل عرس وخطوبة، تقديم الهدايا للمواليد الجدد، تجهيز المنزل لاستقبال الضيوف على مدار 24 ساعة في اليوم. نعم قمت بكل ذلك بمتعة، لكنني اكتفي بدورة واحدة، وبعد أربع سنوات من العمل والجهد اليوميّ قررت عدم الترشح ثانية. عدت إلى عملي، إلى المركز اليهوديّ العربيّ.

هذه هي مهام رئيس المجلس – الاهتمام بالتعليم، تنظيف البلدة، أمن السكان، تعبيد الشوارع والنمو الاقتصاديّ. يبدو هذا مملاً، لكن هذا هو العمل. عندما أسمع عن الفساد في السلطات المحليّة في أنحاء الدولة، وعن الصفقات في الوزارات الحكوميّة، أفكر مدى سهولة الوقوع في هذا الفخ، وسهولة إغراء النقود، ومدى النزاهة والصدقية التي يجب أن يتحلى بها منتخب الجمهور، وأن يفهم أنه مجرد رسول وأن جل عمله هو خدمة السكان الذين انتخبوه، وليس نفسه. أنا سعيد أنني نجحت في هذا الامتحان.

مستمر في دربي

المعوقات الماثلة أمام السلطات المحليّة العربيّة أكبر بكثير من تلك الماثلة أمام السلطات اليهوديّة، وقد كتب عن ذلك العديد من الأبحاث والمقالات. بعد أن أنهيت وظيفتي كرئيس للسلطة المحليّة، أردت أن أشارك الآخرين تجربتي ومعلوماتي. ساعدت على تأسيس جمعيّة انجاز برئاسة شوقي خطيب، رئيس مجلس يافة الناصرة سابقًا، والذي ترأس خلال عدة سنوات اللجنة القطريّة لرؤساء السلطات المحليّة العربيّة وكان رئيساً للجنة المتابعة العليا. بعض رؤساء سلطات محليّه سابقين وحاليين أعضاء في الجمعيّة، إضافة إلى شخصيات جماهيريّة بارزة. ما زلت حتى اليوم عضو إدارة الجمعيّة وأشارك بنشاطاتها. خلال سنوات عملها القليلة، نجحت الجمعيّة بتعزيز وتدعيم العديد من السلطات المحليّة ورؤسائها، بشكل ملحوظ ويدعو إلى الفخر، علاوة على عملها من الجهات المهنيّة في تلك السلطات. تدار الجمعيّة اليوم بنجاح كبير من قبل غيداء زعبي ريناوي، التي لا تخشى التحدث عن الإخفاقات الداخليّة في مجتمعنا، الماثلة أمام السلطات المحليّة وانتقاد سياسات الوزارات الحكوميّة والتمييز البنيويّ ضد السلطات المحليّة العربيّة.

مثل الكثيرين الذين التقيتهم في محطات مختلفة من حياتي، أيضًا غيداء بدأت سيرتها المهنيّة في جبعات حبيبة. فكانت مرشدة في برنامج "يامي – أولاد يعلمون أولاد". في الحقيقة أنّ غالبية القيادات العربيّة الجماهيريّة في إسرائيل، في الجمعيّات، والسلطات المحليّة ومديري المدارس، والكثير من أصحاب المناصب الرفيعة، عملوا أو تعلموا في جبعات حبيبة، ويعرفوني شخصيًا. هذه ميزة إيجابيّة، وجعلت التواصل معهم سهلًا، فالعلاقات معهم كانت شخصيّة وليست رسميّة أو مهنيّة فقط.

رئاستي للمجلس المحلي ومشاركتي في تلك الأطر، جعلتني شخصيّة معروفة ومحترمة لدى جميع الفئات المجتمعيّة والسياسيّة في البلاد؛ العلاقات التي أقمتها خلال تلك الفترة تساعدني اليوم في عملي كمدير للمركز اليهوديّ العربيّ للسلام في جبعات حبيبة. كل رئيس مجلس محليّ يريد النجاح بعمله، وأنا قدمت أفضل ما أملك للعمل والقيادة، لكن حان الوقت للاعتزال. انهيت وظيفتي في المجلس بعلاقات طيبة مع الجميع، وميزانية معتدلة نسبيًا، وتركت هناك طاقمًا مهنيًا منظمًا. وأنا أفتخر بذلك.

من برطعة إلى العالم الكبير

في الماضي لم يكن متبعاً السفر من برطعة إلى خارج البلاد. صحيح أنّ البعض سافر في الستينيات والسبعينيات إلى خارج البلاد للدراسة، وخاصة من قبل الحزب الشيوعيّ وعلى حساب الدول الاشتراكيّة، وعادوا كأكاديميين وأطباء؛ ولكن فقط قلة قليلة كانوا يسافرون على حسابهم الخاص للسياحة. المرة الأولى التي سافرت فيها إلى خارج البلاد كانت عام 1982 في إطار عملي في جبعات حبيبة، حين سافرت إلى مصر، بعد سنتين أو ثلاثة من توقيع اتفاقيّة السلام. سافرنا في الباص وعبرنا قناة السويس. كانت تلك تجربة ممتعة: فهذه أول مرة أسافر فيها إلى خارج البلاد، وإلى أكبر وأهم دولة عربية، ورحلة منظمة مع أشخاص أعرفهم وبرفقة مرشد. اللقاء مع أكبر عاصمة عربيّة، مركز حضارة العالم العربيّ، كان مثيراً. حتى تلك الفترة لم تكن لنا علاقات مع الفضاء العربيّ. حاولنا خلال ثمانية أيام الرحلة أن نشاهد أكثر ما يمكن. ذهبنا إلى السينما، والمسرح، وذهبنا إلى الجنوب، إلى أسوان في الباصات وعدنا في الطائرة إلى القاهرة. كانت رحلتي الأولى في الطائرة، وهذا ما شعرت به. نظرت من أعلى إلى النيل، كان يبدو كطريق طويل ملتوي. زوجتي سلمى كانت برفقتي، وانفعلنا كثيراً مثل الأطفال. استغربت المجموعة اليهوديّة المرافقة، فبالنسبة لهم هذا أمر طبيعيّ.

الرحلة الثانية، الأطول، كانت إلى الولايات المتحدة. أعتقد أنني أول واحد من برطعة يقطع المحيط ويسافر إلى الولايات المتحدة. كان ذلك في صيف 1988، سافرت مع أثنين من أصدقائي في جبعات حبيبة، سارة أوستسكي وستنلي رينغلز، في جولة لتجنيد الأموال لنشاطات المركز اليهوديّ العربيّ للسلام. الرحلة كانت طويلة جداً، لكنها لم تكن مملة. أخذت معي كتباً، قرأت وأكلت ونمت، تحدثت مع الزملاء ومر الوقت دون أن نشعر به. خلال هذه الرحلة سافرنا ثمان مرات في رحلات جويّة داخليّة. ستنلي، وهو رابي إصلاحي، نظم لنا لقاءات في الكنس، حيث استقبلونا بحرارة. في البداية

استغربت من الحديث داخل الكنيس، لكنني تعوّدت وتعلمت أن أقدّر هؤلاء الذين استقبلوني بحرارة.

كابن لقرية صغيرة نائية، تجولت في منهاتن مليئًا بالانفعال والتعجب. كل شيء كان كبيرًا، ضخمًا، بأحجام لم أعرفها من قبل. دهشت بالمدينة في المساء وفي الليل! الشوارع تعج بالسيارات، والرصيف مكتظ، أناس من كل الألوان والأجناس، الكل يركض ويركض، وبين الحين والحين يتوقفون للحديث من شخص ما. كان ذلك مذهلًا. في الليلة الأولى أختنا ليندا، مديرة مكتب جبعات حبيبة في نيويورك، لتناول العشاء. قررت أن تأخذنا إلى مطعم نباتيّ، فلم تعرف بعد ماذا آكل. جلسنا وبدأوا يقدمون لنا الوجبة تلو الوجبة، همبورغر نباتي، سجق نباتي، تشكيلة من الخضار والطبائخ التي لم أعرفها، ومذاقها ليس له طعم. منذ الأمسية الأولى بدأت اشتاق إلى أكلات زوجتي. في نهاية الوجبة طلبت ليندا الحساب وكذلك doggy bag. لغتي الإنكليزيّة لم تسعفني. فكرت أنه يوجد لديها كلب وتريد أن تأخذ له ما تبقى من الطعام، لكننا لم نأكل اللحوم، ولا توجد عظام. عندما عادت النادلة ومعها كيس فيه كل ما تبقى من الطعام تفاجأت. كانت هذه أول صدمة حضاريّة، ولكن ليس الأخيرة. أخذت ليندا الكيس وقالت: رائع، هذا سيكون فطوري في الصباح! فقلت لنفسي: ماذا حدث لهؤلاء الأمريكان؟ ألا يوجد لديهم نقودًا لشراء الطعام؟ لم أستطيع أن أفهم هذه الثقافة. عندنا حتى لو بقيت كميات كبيرة من الطعام نرميها وفي الغد نطبخ من جديد. لا أدري ما هو الأفضل. الآن دخلت هذه العادة عندنا، فأحيانًا أشاهد عربًا يخرجون من المطاعم ومعهم doggy bags، تمامًا مثل الأمريكان.

زرنا العديد من المدن في أرجاء الولايات المتحدة، من الشاطئ الشرقيّ وحتى الشاطئ الغربيّ. نيويورك، واشنطن، فيلادلفيا، ميامي، سان فرانسسكو، لوس أنجلس، سياتل وشيكاغو. في الغالب كنا نزور مؤسسات يهوديّة، الكنس والمدارس والمراكز الجماهيريّة. كما زرنا بعض الأشخاص المانحين. قبل

الرحلة كنت قد حضّرت مع سارة خطاباً طويلًا بالإنكليزيّة عن سيرة حياتي، وعن المعضلات التي أعيشها، وعن عملي في جبعات حبيبة وأهدافنا. حتى اليوم يمكنني تكرار ذلك الخطاب شفوياً. في تلك الرحلة لاقت أقوالي الكثير من اهتمام اليهود هناك. فهم لم يعرفوا الكثير عن العرب في إسرائيل، وكنت بنظرهم كائناً غريباً لم يعرفوا كيف يهضمونه. قلة فقط من بينهم فهموا وضعنا. كان ذلك بداية الانتفاضة وقبل انتخابات الكنيست. في البداية وجدت صعوبة بتفسير التناقضات الداخليّة التي أعيشها، ثم وجد حلًا مريحًا ما زلت استخدمه حتى اليوم: طلبت منهم مقارنة وضعي بوضعهم، فهم أيضًا يعيشون كأقليّة في الولايات المتحدة، مختلفون بديانتهم وتاريخهم، ومع ذلك فهم مواطنون متساوون في كل شيء. يشاركون في الانتخابات مثلنا، لكن على النقيض منا لديهم حقوق مواطن كاملة وينتخبون لمناصب رفيعة. صحيح أنه لا يوجد رئيس يهودي في الولايات المتحدة، لكن كان هناك يهوديّ نائب للرئيس، وفي تلك الفترة تنافس يهوديّ من الحزب الديمقراطيّ على منصب الرئيس. يشغل اليهود هناك مناصب رفيعة في الحكومة ولا أحد يستغرب من ذلك. وعندما يحتفلون بعيد استقلال إسرائيل ويرفعون العلم الإسرائيليّ مع العلم الأمريكيّ، فهذا مقبول ولا يعتبر عدم ولاء. طلبت من جمهوري أن يحالوا تخيّل وضعنا كعرب في إسرائيل مقابل وضعهم كيهود في الولايات المتحدة، وسألتهم: لماذا لا نحصل نحن على الحقوق نفسها مثلهم؟ طبعًا دائمًا كان هناك شخص ليقول: لكننا لا نحارب الأمريكان، ونحن لسنا بصراع معهم، نحن لا ننافسهم على الأرض والسيادة، ولا يوجد لدينا دولًا يهوديّة تعادي الولايات المتحدة، ولا يوجد حرب، فالوضع يختلف كليًا. "صحيح"، قلت لهم، وهذا ما أعتقده اليوم ايضًا؛ لا يمكن المقارنة بين الوضعين من جميع النواحي، لكن من الناحية المبدئيّة، وعند الحديث عن المواطنة، وحقوق الإنسان والمواطن في دولة تعتبر نفسها ديمقراطيّة، فالمقارنة ممكنة حقًا. شعرت أن هذه المقارنة تلامس قلوبهم، وأنهم يفهمونني أكثر. منذ تلك اللحظة وأنا أستخدم هذه المقارنة في

اللقاءات مع اليهود من الدول الغربيّة، وهي تثير دائمًا النقاش، والصراخ أحيانًا.

بين النقاشات واللقاءات تجولنا قليلًا في المدن التي زرناها، ورغبت بشراء كل ما رأيته. واجهات الحوانيت البرّاقة، والوفرة التي لم اعتاد عليها، وكل شيء رخيص جدًا وبجودة عالية. عرفت أنهم في البيت يتوقعون أن أجلب معي الهدايات من أمريكا، العائلة كلها، وربما كل القرية. فهل يمكن لأول عم يزور الولايات المتحدة أن يعود فارغ اليدين؟ ساعدتني سارة بالمشتريات، وكانت تضحك مني طيلة الوقت. إذا رأيت قميصًا أعجبني اشتريت منه عشرة. اشتريت عشرين ولّاعة، العابًا للأطفال بلا نهاية، ملابس للناس بأعداد كبيرة. في نهاية المطاف عدت ومعي ثلاث أو أربع حقائب سفر مليئة، ولا أدري كيف سمحوا لي بصعود الطائرة بدون دفع الجمرك. وما زلت أعتقد أن البعض زعل مني لأنني لم أجب كفاية من الهدايا.

خلال جولاتي في الولايات المتحدة تعلمت كيف يتنظم اليهود هناك في مؤسساتهم وتنظيماتهم، ويهتمون بمجتمعاتهم وحاضرون في المواقع المركزيّة للنظام الأمريكي. ربما لأننا زرنا أساسًا المؤسسات اليهوديّة، ولمست النظام هناك، والتنظيم والاهتمام بالمجتمع، والكنس الكبيرة. فلقد التقينا بشكل خاص مع الأغنياء، فهم الذين يتبرعون لجبعات حبيبة. قبل ذلك لم أعرف الكثير عن اليهود هناك، وهذا كان انطباعي الأولي. كان من الغريب الوقوف على المنصة في الكنيس ومشاهدة تلك الفخامة، لكن الأشخاص هناك منحوني الشعور بأنني في بيتني واستقبلوني بشكل جيد. لا أذكر أي حادث سلبي. مرة، ونحن في جامعة سياتل، وقفت طالبة فلسطينيّة وصرخت في وجه سارة وستنلي شعارات ضد الاحتلال الإسرائيليّ. لكن ذلك كان في حدود اللياقة ولم يتطور إلى شجار. في مثل تلك الحالات حاولنا أن نعرّف الجمهور على الواقع الآخر الذي لم يسمعوا عنه في الصحف، وأنه توجد مواقع للتعاون

والعلاقات الطيبة بين إسرائيليين وفلسطينيين، وأنه يوجد في كلا الشعبين من يسعى إلى السلام والتصالح ويناضلون معًا ضد الاحتلال.

منذ تلك الرحلة بدأت أسافر كثيرًا من قبل جبعات حبيبة، ضمن مجموعات منظمة أو مع شريك أو شريكة من المركز اليهوديّ العربيّ، وخاصة في إطار برامج تعليم المعلمين في سنة التفرغ التي تحدثت عنها سابقًا.

في إطار عملي سافرت إلى مكانيين آخرين مثيرين، ريو دي جانيرو في البرازيل وبانكوك في تايلند. سافرت مع جيورا أفراهام، الذي كان مسؤول عن المالية في المركز اليهوديّ العربيّ. في ريو دعونا إلى المشاركة في مؤتمر عالميّ للسلام، ولم نكن نعلم ما هو موضوع المؤتمر. فقط عندما وصلنا فهمت أن الحديث عن الكرنفال السنوي لمدارس السامبا المشهورة في البرازيل. كان احتفالًا ضخمًا. في بانكوك شاركنا في مؤتمر المؤسسات المدنيّة ضد العولمة. كان هناك ممثلين من جميع الدول، وجيورا وأنا كنا ممثلين عن إسرائيل وفلسطين. في نهاية المؤتمر رفع هو علم إسرائيل وأنا رفعت العلم الفلسطينيّ وحظينا بالتصفيق الشديد.

في مثل تلك المؤتمرات، الأمور الهامة لا تحدث على المنصة أو في قاعة النقاشات، بل العلاقات الشخصيّة التي ننسجها، والتعارف والمحادثات مع أشخاص من أرجاء العالم. في مثل تلك المناسبات اهتممت بلقاء شخصيّات من العالم العربيّ لم يكن لي أن التقي بهم بمكان آخر، والمحادثات معهم كانت دائمًا مثيرة وهامة. كنت دائمًا أستغرب أنهم لا يعرفون عنا الكثير، نحن الفلسطينيون في إسرائيل، ويفكّرون فقط في الفلسطينيين في المناطق المحتلة. ففي تراتيبية الشعب الفلسطينيّ كنا على مدار سنين طويلة في أسفل القائمة، وفي الخمسينيات والستينيات اعتقدوا أننا خونة لأننا بقينا تحت الحكم

الإسرائيليّ. لكن هذا التعامل تغيّر ونحن الآن في المركز. فهم يعتبروننا الآن أبطالاً لأننا بقينا على أرضنا ويريدون دعمنا.

في عام 1993، قبل اتفاقيات أوسلو، دُعيت إلى جنيف لمؤتمر المنظمات غير الحكوميّة ومؤسسات المجتمع المدنيّ من إسرائيل وفلسطين. شارك في المؤتمر قيادات سياسيّة عربيّة من إسرائيل وبضمنهم المرحوم توفيق زيّاد، النائب عن الجبهة الديمقراطيّة للسلام والمساواة، ورؤساء جمعيّات راديكاليّة فلسطينيّة عربيّة. التقينا هناك مع ممثلين عن منظمة التحرير الفلسطينيّة، كان يحظر على الإسرائيليين اللقاء والحديث معهم. لكن الامتناع عن لقائهم غير ممكن. كنا معًا في المؤتمر نفسه، وأردنا الاستماع إليهم والحديث معهم. في إحدى الليالي سافرت مع بعض الإسرائيليين سرًا، إلى بيت السفير الفلسطينيّ في جنيف، وهناك التقينا مع ياسر عرفات. كانت هذه أول مرة التقي به. عندما عدت كنت أتوقع أن يعتقلوني بسبب ذلك اللقاء. بعد اتفاقيات أوسلو تغير كل شيء. زرنا المقاطعة في رام الله عدة مرات، والتقينا مع عرفات وقيادات فلسطينيّة أخرى. دائمًا كانوا يباركون لنا عملنا ويشجعون التعاون مع مؤسسات إسرائيليّة. كما زرت الملك حسين ضمن وفد عربيّ من البلاد، عندما عاد من الولايات المتحدة بعد إجراء عمليّة له. صورتي معه معلقة في مكتبي. عندما توفي ذهبنا لتعزية ابنه الملك عبدالله.

رحلة من نوع آخر، كانت رحلتي إلى باريس عام 2001 للحصول على جائزة اليونسكو للتربية على السلام. تحدثت عن ذلك في الفصل عن جبعات حبيبة. كان ذلك حدثًا مؤثرًا جدًا؛ حظينا باعتراف عالميّ من قبل هيئة معروفة بتحفظها من إسرائيل. الجمهور هناك انفعلوا معنا، لكن الحدث لم يحظى بأصداء داخل إسرائيل. من الصعب شرح الفجوة بين عدم المبالاة التي حظينا بها هنا والحفاوة التي استقبلونا بها في خارج البلاد، في مؤسسة عالميّة مثل اليونسكو. بشكل طبيعيّ اعتقدنا أن الحصول على هذه الجائزة هو حدث

يستحق الاحتفال به، وخاصة أن إسرائيل تشكو دائمًا بأن مؤسسات الأمم المتحدة معادية لها. لكن وسائل الإعلام المحليّة لم تُغَطِ الحدث ولم تنشر عن الجائزة، ووزيرة التربية والتعليم في حينه، ليمور لفنات، والممثلة الرسميّة لليونسكو في إسرائيل، لم تبارك لنا حتى، على خلاف المعتاد حين يفوز لاعب تنس أو سباق قوارب بميدالية. لم تكن لدينا توقعات كبيرة، لكن تلك التصرفات أضرت بمشاعر الإنجاز. على كل، كانت تلك من أيام الذروة بالنسبة لجبعات حبيبة. آلاف التلاميذ شاركوا في برامجنا التربويّة رغم اندلاع الانتفاضة الثانية، انتفاضة الأقصى، وكنا متفائلين وواثقين من أنفسنا وأهدافنا.

من برطعة إلى خارج البلاد والعودة

كما فهمتم، فأنا أحب السفر. نقلت هذه العدوى إلى زوجتي، ونحن نسافر معاً مرتين في السنة على الأقل، علاوة على الزيارات إلى الأردن بالطبع. الأردن قريبة ومريحة، وهي جيدة للاستجمام، فيها الطعام الطيب والفنادق الممتازة والمشتريات الرخيصة، فماذا نريد أكثر من ذلك؟ هناك يشعر العرب أنهم في بيتهم، فيسافرون إليها في الأعياد والمناسبات المختلفة للراحة، ولقاء الأصدقاء والمتعة.

سافرت بضع مرات إلى ألمانيا في إطار العلاقات المتشكلة بين حبعات حبيبة وبعض الولايات الألمانية التي تدعمنا. في ولاية راينلند بالاتينات، على سبيل المثال، استقبلونا أنا زوجتي استقبال الملوك لدى كورت باك، رئيس الحكومة السابق، وكنا قد استضفناه عدة مرات في برطعة. خلال زياراتي إلى ألمانيا التقيت قريباً لي كان قد هاجر إلى هناك، ابن عمتي الدكتور غسان كبها، الذي درس الطب وبقي هناك، واقنعته بالعودة إلى القرية ومساعدة السكان، وأنا فخور بذلك. وبالفعل، فقد عاد غسان وتزوج، وعمل طبيباً وقدم الكثير من أجل المجتمع. قريب آخر لي التقيته، وهو شخص محترم جداً من برطعة الشرقيّة اسمه سعيد محمود. سافر إلى ألمانيا في الخمسينيات، وكان لي شرف زيارته عدة مرات والتجول معه ومع أفراد عائلته في أوروبا. بعد غياب طال خمسون سنة عاد سعيد إلى برطعة، لكن في نهاية الأمر فضّل الانتقال إلى الأردن، وهناك توفي قبل عامين. للأسف عادت زوجته الإيطاليّة وولديهما إلى ألمانيا.

كان لدي حلم أن أكون سفيراً. بعد اتفاقيات أوسلو قررت وزارة الخارجية تعيين بعض الوزراء والقناصل العرب. دعوني لمقابلة، واقترحوا علي السفر إلى ايسلندا، وعندها اندلعت الانتفاضة الثانية. فكرت في الاقتراح ثم تملصت

بلباقة من المهمة. لم أشأ أن أدافع عن دولة إسرائيل في مكان غريب بينما يعاني سكان القرية وأبناء عائلتي. المشكلة ليست فقط في السلك الخارجي. يعرف الجميع بمدى صعوبة أن تكون عربيًا في المطارات، وخاصة في مطار بن غوريون. شخصيًا لم أواجه أية مشكلة. في عام 2008 تم تعييني في اللجنة التي فحصت موضوع عبور المواطنين العرب في المطارات بهدف تقديم اقتراحات لتحسين الوضع. التقيت مدير عام المطار وضباط الأمن، وأجرينا إرشادات لطاقم موظفي الأمن هناك، ونظمنا لهم جولات في البلدات العربيّة ليتعرفوا على المواطنين العرب ويعترفوا بمواطنتنا المتساوية. أعتقد أن الأمور تحسنت منذ تلك الفترة، وأيضًا بسبب تغيير طريقة فحص حقائب السفر، والتي أصبحت اليوم متساوية للجميع. لكن ما زلت أسمع عن المشاكل التي يواجهها المسافر العربي لدى عودته من خارج البلاد. شركة العال هي الأكثر تشددًا، لذلك يفضل العرب عدم استخدام طائراتها، بل طائرات شركات أجنبية.

أحب أن أرى كيف يعيش الناس في أماكن بعيدة، وأحاول التواصل معهم، تبادل الحديث والإصغاء. هناك العديد من الأماكن التي أرغب بزيارتها، مثل جنوب أفريقيا، الدولة التي مرت بثورة تاريخيّة هائلة ما زالت تثير الخيال، وهنالك الكثير لنتعلمه منهم.

أسرتي: زوجتي، أولادي وأحفادي

رغم الأهميّة التي ما زالت للحمولة والعائلة الموسّعة، فإن الأسرة العربيّة تتميّز اليوم بالسكن المنفصل وإدارة الاقتصاد المنزليّ على نحو منفصل عن العائلة الموسّعة. وهكذا هو الأمر لدينا. بوركت بأسرة رائعة: زوجتي سلمى، التي ترافق خطواتي منذ أكثر من ثلاثين سنة، أولادي محمود وليلى وأحمد وأمير، وأحفادي الثمانية. أرغب هنا بالحديث عنهم، فهم جزء مني، جزء هام مما أنا عليه. هم مصدر قوتي وسعادتي، هم الأشخاص الهامين بالنسبة لي والمحبوبين عليّ أكثر من كل شيء. من أجلهم أفعل ما أقوم به، من أجل مستقبلهم، كي تكون لهم حياة أفضل ومستقرة.

زوجتي سلمى

مثل أي فتى عربي في عصري، في المرحلتين الابتدائيّة والثانويّة لم أفكّر في البنات وفي الحب. لم يكن هذا قائم في مجتمعنا، ولا في المجتمع القرويّ الصغير المحافظ الذي أعيش به بالطبع. والدتي كانت تقول لي: لديك أخوات، فلا تفعل مع بنات الآخرين ما لا ترغب بأن يفعله الآخرون مع أخواتك. لم أتجرأ يومًا بالقول أنني أفكّر بهذه الفتاة أو تلك. كان واضحًا لي بأن التفكير بفتاة ما، فهذا بهدف الزواج فقط.

سلمى كانت تسكن مع والديها في حارتنا. كانت قريبة العائلة من جهة الأب والأم، وأهلها كانوا أصدقاؤنا. والدي ووالدها، أبو نايف، كانا أصدقاء منذ الطفولة، مثل الأخوة. عمي أبو نايف، محمد حسين، كان من وجهاء القرية، رجل شجاع، كاريزماتيّ وشجاع، وعضو لجنة التعليم في القرية. كان له ثمانية أطفال، وسلمى هي الثالثة من بينهم. سادت علاقات طيبة بين العائلتين،

وكنت أزورهم وهم يزورننا. عرفت سلمى منذ الصغر، مثلما عرفت بقية أطفال العائلة.

سلمى كانت من أوائل الفتيات في برطعة اللواتي تعلمن في مدرسة ثانويّة يهوديّة. بعض زميلاتها من المدرسة الابتدائيّة في عرعرة قررن مواصلة التعليم في الثانويّة المهنيّة التابعة لحركة نعمات في الخضيرة. هناك كان يمكن تعلم الخياطة، والتفصيل، وتصفيف الشعر وغيرها من المهن "النسائيّة". أقنعت سلمى والدها فوافق على تعلمها هناك. أنا ذهبت للدراسة في تل أبيب، وأحيانًا كنت أراها في القرية، لكن لم تكن بيننا علاقة خاصة. عندما حان الوقت لاختيار عروس، اخترت سلمى. في البداية ذهبت لوحدي إلى والدها، لأعرف رد فعله، والأهم معرفة رد فعل سلمى على اقتراحي المباشر بدون ضغوط خارجيّة. بالطبع حدثت والدي، اللذين فرحا كثيرًا. بعد أسبوع قال والدها لوالدي: "تفضل، أهلًا وسهلًا". عزم والدي أعمامي وأخوالي وذهبنا لطلب يدها. خطبنا بمباركة العائلتين لمدة سنة واحدة. خلال فترة الخطوبة خططت هي البيت الذي سنبنيه. كانت تأتي لزيارتنا في البيت، وكنت أذهب إلى بيتهم، فتعرفنا أكثر على بعضنا. في عام 1979 تزوجنا وأقمنا حفل زفاف كبير جدًا، ومنذ تلك الفترة ونحن نعيش معًا بسعادة ومحبة.

شهر بعد زواجنا بدأت سلمى تعمل كمعلمة. بعد شهر قالت: لا أريد الاستمرار بهذا. أفضل أن أبقى في البيت. وافقت على طلبها، ففي تلك الفترة كان يأتي إلينا العديد من الضيوف، وكان ينبغي استقبالهم. أردت أن تكون في البيت وأن تستقبلهم. شعرت أن وظيفة المعلمة غير مناسبة لها، فلم تحب العمل، واتفقنا على ألا تستمر بهذا العمل. منذ ذلك اليوم وحتى اليوم لم تعمل سلمى خارج البيت. هذا كان خيارها وأنا وافقت معها. لقد استثمرت الكثير في أولادنا، ربتهم واهتمت أن يتعلموا جيدًا. خلال التعليم كان يسمح لهم باللعب فقط بعد أن قاموا بواجباتهم المدرسيّة وحصلوا على الإذن منها. احفادنا يأتون إليها كل

يوم من الحضانة والمدرسة، يتناولون وجبة الغداء معًا. نور الصغيرة تربت عندها وتلقت الحب والدفء والكثير من المعرفة.

كانت سلمى تستقبل جميع ضيوفي من جميع أنحاء العالم. وهي تحب السفر وترافقني معظم رحلاتي. وهي من أول الفتيات في القرية اللواتي تعلمن السياقة. وهي تحترم عائلتي، وكانت تحترم والدي كثيرًا في حياته وتحترم والدتي. ومثلما كنت أنا الأمير، هي أيضًا كانت الأميرة؛ والدتي تقول دائمًا أن سلمى ابنتها السابعة. عندما تزوجنا لم تكن سلمى تعرف الطبخ، أو كما كانت هي تقول، لم أعرف حتى كيف أعدّ كأس شاي. تعلمت كل شيء من والدتي، وهي معروفة اليوم بالطعام الطيب الذي تعدّه للجميع. هي امرأة عاملة. في موسم الزيتون تذهب مع والدتي لقطف الزيتون. كانت اليد اليمنى لأبي وأمي، وهما أحباها كثيرًا. بعدما تزوجنا هي التي ربت أخواتي الصغار، رغم أنها كانت قريبة من عمرهن، وبقين على علاقة طيبة بعد أن كبرن وتزوجن.

سلمى هي من النوع الذي يعرف جميع التفاصيل الصغيرة. تهتم بسماع جميع التفاصيل، وأحيانًا أتضايق من ذلك، لكن لا مفر وأحدثها بكل شيء. هي شريكة في القرارات. عندما كنت رئيسًا للمجلس دعمتني كثيرًا، وكنت بحاجة إلى هذا الدعم. كانت تساعد بكل شيء. جاءت سلمى من بيت سياسيّ، والدها كان ممثل عن حزب مباي، ثم حزب المعراخ، وبعد ذلك حزب العمل، وكان يزوره الكثير من الضيوف. عندما كان يأتي الضيوف لزيارتنا لم يكن ذلك جديدًا عليها. استقبلتهم بشكل طبيعيّ وشاركت في الحديث معهم.

وهي تتصرف اليوم مع الأحفاد بشكل متساوٍ أكثر مني، تحبهم جميعًا، وكذلك الأبناء وزوجاتهم. لم تتدخل في اختيار زوجات أولادنا، كل واحد اختار وفق رغبته هو. طبعًا كانوا يسألونها، ودائمًا كانت توافق على خياراتهم. سلمى

ليست زوجتي فحسب، هي صديقتي، وصاحبة سري، وأنا أعتمد عليها في جميع الأمور.

أولادي – الجيل المنتصب

ما يميّزنا أننا نعيش جميعنا بجوار بعضنا البعض. حتى ابنتنا، والتي من المفروض وفق التقاليد العربيّة أن تنتقل للعيش في بلد زوجها، تزوجت وفق خيارها وقرارها من ابن عمها حسني قصي كبها، ابن برطعة، وأحد أقاربنا، وهما يعيشان بالقرب منا. وكما أحرص على رؤية أمي يوميًا، هكذا أحرص يوميًا على التقاء أولادي وأحفادي طبعًا. إلى جانب القرب من بعضنا في السكن، فإن لكل واحد وواحدة منهم حياة مستقلة، وعملاً، وسيرة مهنيّة، ومشاريع شخصيّة. دائمًا يتشاورون معنا، ويشاركونا، والعلاقات بيننا رائعة. أعلم أن هذه الأمور ليست مفهومة ضمنًا، لذلك أعتبر نفسي محظوظًا.

ولكن لا بد أن لي ولسلمى قسط بذلك. منذ ولادتهم حاولنا تربيتهم كبشر واحترام كل ما يحيط بهم. ربيتهم بروح الديمقراطيّة. لا أدري هل هذا أفضل في مجتمعنا أم لا، لكنهم تربوا على التفكير، والخيار وعمل ما هو مريح لهم وما يرغبون به. سلمى كانت دائمًا موجودة في البيت من أجلهم، وحرصت على قيامهم بواجباتهم المدرسيّة قبل خروجهم للعب، اهتمت باحترامهم للطاعة والسلوك الحسن. أنا كنت أكثر تسامحًا معهم، وهي كانت أشدّ مني، فربتهم بعناية. كنا دائمًا نثق بهم واتحنا لهم المضي بطريقهم، واختيار شريكات وشركاء حياتهم، وأن يختاروا ما يتعلمون وبما يعملون، ساعدناهم، وقدمنا لهم المشورة، وفي النهاية القرار كان لهم.

محمود، على سبيل المثال، بدأ العمل في مجال التمريض مباشرة بعد إنهاء التعليم الثانويّ. ليلى، درست التعليم وبدأت تعمل كمعلمة، وقررت مواصلة

تعليمها. حصلت على اللقب الثاني في التربية، ولقب آخر في التقويم والقياس، وهي تفكر بمواصلة تعليمها لدرجة الدكتوراه بعد أن يكبر الأولاد. أحمد اختار أن يكون متديناً، فأطلق لحيته وغيّر نهج حياته. تعلم في كليّة القاسمي، وحصل على اللقب الأول في اللغة العربيّة وتدريس الدين الإسلاميّ، وكما قلت فهو معلم في المدرسة الاعداديّة في برطعة. أمير تعلم القانون، وهو محامي مستقل وله مكتبه الخاص في القرية.

أيضًا في طفولتهم اختاروا بأنفسهم الدورات التي رغبوا بها ومسار تعليمهم. ليلى اختارت دورة الكاراتيه وشاركت في المسابقات، مع أن ذلك لم يكن متبعاً لدى الفتيات. محمود كان يحب كرة القدم. لكل واحد كانت هوايته الخاصة. أيضًا اختيار شريك الحياة كان وفق ميولهم هم. ليلى وحسني عرفا منذ جيل مبكر أنهما سيتزوجان. حسني هو ابن ابن عمي المحبوب قصي، الذي شهد عرسهما قبل وفاته. هو مهندس ومفتش بناء مطلوب في البلاد. لليلى وحسني ابنين وبنت. محمد اختار شيماء، وحينما أخبرنا أنه يرغب بالزواج منها، ذهبنا بعدها بساعة إلى والديها واتفقنا على الخطوبة. تزوجا ولديها أربعة أبناء. لأحمد قصة مختلفة. بعد أن أنهى دراسة اللغة العربيّة والإسلام في كلية القاسمي، جاء إلى والدته وقالFنه يرغب بالزواج، وطلب منها أن تجد له شابة متديّنه، تلبس الجلباب وتضع الحجاب على رأسها، فلقد كان متديناً. عرفناه على بشرى ابنت أختي افتخار التي كانت تسكن مع أسرتها في الأردن لفترة ما، ثم عادت إلى برطعة. بشرى شابه طيبة وموهوبة، درست للقب الثاني في اللغة الإنكليزيّة في كليّة القاسمي، وهي متديّنة كما طلب هو. خطبا، وتزوجا بعرس دينيّ ولهما اليوم ثلاثة أطفال.

ساعدت أولادي الأربعة في تعليمهم وفي بناء بيوتهم. لكل واحد منهم بيت جميل ومريح في حارتنا. أمير بنى بيته في الطابق الثاني فوق منزلنا، وحتى كتابة هذه السطور هو الوحيد من بين أولادنا الذي لم يتزوج بعد. أنا منفتح

جدًا مع أولادي وهم منفتحون معي. لأنني احترمتهم فهم يحترمونني، وأعتقد أنهم عندما شاهدوا كيف أتعامل مع والدتهم، ووالدتي، وأعمامي وجميع الأقارب، تعلموا هم أيضًا التعامل بالمثل مع الآخرين. أستطيع القول بقلبٍ صافٍ أنهم يسيرون بدربي بالنسبة للعلاقات مع الناس، وهذا برأي كنز ثمين في عالمنا. وهم يعرفون مواقفي السياسيّة. بيتنا مفتوح دائمًا أمام اليهود والعرب وتعلم أولادي احترام الجميع. يعرفون أنني متفائل واعتقد أنني أورثت لهم هذا التفاؤل الذي يرافق حياتي كلها. التفاؤل هو أمر مركزيّ في حياتي رغم كل ما يحدث في المنطقة.

ثمة مسألة رئيسيّة ومُركّبًا آخر في حياتي، هو الحياة المشتركة. دائمًا كنت أدعو الناس إلى المضيّ في طريقي ودعم الحياة المشتركة، ليس كلامًا فقط، بل بالأعمال. هكذا ربيت أولادي، ربيتهم على التسامح، والإصغاء، وسماع الآخرين، وفهم كل شيء وموضوع جيدًا قبل اتخاذ القرار، والتفكير ألف مرة قبل اتخاذ موقف. حذرتهم من التعجرف وعلمتهم التساؤل والتقصي والإصغاء قبل النطق بموقف حاسم.

عندما كان عمر محمود ثلاثة عشر سنة شارك في فيلم حول بلوغ صبي يهودي سن التكليف (13 سنة) كان قد جاء إلى قريتنا. في مقابله معه للتحضير للفيلم تحدث محمود عن الحياة المشتركة وعن أهمية فهم الآخر. عندما كان أولادي صغار حاولت دائمًا إشراكهم بالحديث مع ضيوفي اليهود، وأن يتعلموا تقبل الآخر. ربيتهم على القيم الإنسانيّة، واحترام الغير، والحق في الحياة الكريمة. في بيتنا لم نتحدث عن فلان اليهودي، ودائمًا كنا نذكر اسم الشخص، أو نقول "موشيه من بيتاح تكفا" أو "أحمد من كفر قرع" أو "شلومو من بردس حنا". شجعت أولادي على التواصل مع أطفال يهود وكنت أشركهم أحيانًا في مشاريع جبعات حبيبة. حتى اليوم لديهم أصدقاء يهود يزورونهم.

زيارات مجموعات السواح من خارج البلاد جسّدت هي الأخرى لأولادي مشاعر الجيرة، الآخر. كانوا يعملون مع يهود ويتعاملون معهم باحترام، يتقنون اللغة العبريّة، يعرفون عقليّة الآخر وعاداتهم. لا يوجد حواجز بيننا وبين اليهود، بين أولادي وأصدقائهم. القيمة العليا التي تربوا عليها هي القيمة الإنسانيّة واحترام الإنسان. دائمًا كنا نحافظ على حسن الجوار، ليس مع الجيران الأقارب فحسب، أخي أو ابن عمي، بل جميع الجيران بكل مفهوم الكلمة، وكذلك مع الأصدقاء والبلدات اليهوديّة، الجيرة القائمة على الاحترام المتبادل والانفتاح.

بالطبع، كنت دائمًا أؤكد أمام أولادي أننا جزء من الشعب الفلسطينيّ، وأننا شعب واحد نحن وأخوتنا في الضفة الغربيّة، وضرورة مساعدتهم. لدينا أقارب هناك ونحن على علاقات طيبة معهم. في الماضي كان بالإمكان تبادل الزيارات أكثر، أما اليوم فهذا صعب. كل زيارة إلى الضفة تتطلب المرور عبر الحواجز، تفتيش السيارات والأسئلة المنتهكة للخصوصيّة، بينما يمر المستوطنون، ذهابًا وإيابًا، بدون تفتيش. أقاربنا خلف جدار الفصل لا يستطيعون الوصول إلينا ويحتاجون إلى تصاريح وتنسيقات تأخذ وقتًا طويلًا، وعادة يتم رفضها. هذا وضع غير طبيعيّ بنظري، وغير سليم، وأنتظر يومًا تزال فيه جميع الأسوار والجدار والمعوقات، وتحقيق اتفاق سياسيّ.

أنا سعيد وفرح أنني استطعت إكساب أولادنا نهجي في الحياة، ومعتقداتي، وأنهم يورثون أولادهم التربية نفسها وينقلون لهم موروث العائلة. لكن ينبغي أن أقول ملء فمي: الذي طلبته لنفسي فترة شبابي لم يعد كافيًا لهم اليوم. فهم يريدون أكثر من ذلك. تطلعاتهم كمواطنين أكبر من تطلعاتي أنا. أنا اكتفيت بما حصلت عليه. صحيح أن أبناء جيلي ناضلوا من أجل حقوقهم، لكنهم قالوا شكرًا على كل شيء حصلوا عليه. أبناء الجيل الجديد يريدون أن يكونوا جزءًا من الأكثريّة، يريدون المساواة الفعليّة وليس مجرد الكلام عنها أو بعض

اللفتات الصغيرة أمير يريد الذهاب إلى السينما مثل كل يهوديّ، والعمل، والتعلم، وشراء سيارة والتجول في أنحاء البلاد دون اعتراض. هو يريد أن يكون جزءاً عضوياً من الدولة وليس أقلية مضطهدة. هذا الجيل غير متسامح مع التشريعات التي ترمي إلى تقييد العرب، ولا مع التصريحات العنصريّة والإقصاء. ابنتي ليلى وصلت إلى مكانة محترمة في وزارة التعليم، وأنا على يقين أن طموحاتها في التقدم تستند قبل كل شيء على مؤهلاتها وقدراتها. فهي لن تقبل بتعيينها لمنصب رفيع فقط لأنها عربيّة. إذا منحتنا الدولة المساواة فسوف يعزز ذلك من هويّتنا الإسرائيليّة. لذلك فنحن دائماً نؤكد على استعدادنا للعيش مع الطرف الآخر. هذا الجيل منتصب وفخور بعروبته وانتمائه للشعب الفلسطينيّ ووعيه للحقوق المشتقة من مواطنته الإسرائيليّة. أبناء هذا الجيل لن يتنازلوا بسهوله، ولن يساوموا مثلنا.

تلخيص مرحلي

انتخابات 2015 والقائمة المشتركة

أكتب هذا الفصل الأخير من الكتاب بعد الانتخابات الفجائيّة التي فرضت علينا في شهر أذار 2015. تلك الانتخابات كانت ربما الأكثر أهمية للمواطنين العرب في إسرائيل. لأول مرة تتوحد جميع التيارات والقوى الرئيسيّة في قائمة مشتركة واحدة، ليصبح العرب قوة هامة في السياسة الإسرائيليّة لا يمكن تجاهلها. أتمنى أن يعرف النواب العرب استغلال هذه القوة لمصلحة جميع السكان. صحيح أن هذه الوحدة هي نتاج رفع نسبة الحسم، لكنه أثمر عن ظاهرة جديدة مباركة من وحدة الصف. شراكة بين الحركة الإسلاميّة الجنوبيّة صاحبة الأيديولوجية الدينيّة، والتجمع الوطنيّ الديمقراطيّ وهي حركة قوميّة علمانية، والجبهة الديمقراطيّة للسلام والمساواة التي تؤمن بالشراكة اليهوديّة العربيّة. والمشترك بين جميع المركّبات أنها غير صهيونيّة. وتجدر الإشارة إلى أنه لا توجد فروقات سياسيّة كبيرة بين تلك الأحزاب، وأنها تتعاون مع بعضها دائمًا، وهناك توافق عريض بخصوص القضايا المطروحة في الكنيست. وفي معظم الحالات فهي تصوّت بنفس الطريقة. الجبهة وبقيّة الأحزاب لم تشارك في أي ائتلاف حكوميّ ولم يجري أصلًا دعوتها للانضمام. الفترة الوحيدة التي كان لهذه الأحزاب قوة فعليّة، كان في عهد حكومة رابين عام 1992 إلى حين اغتياله. حيث شكلت في تلك الفترة كتلة مانعة خارج الائتلاف وأتاحت لرابين التوقيع على اتفاق تاريخيّ مع الفلسطينيين. قبل الانتخابات الأخيرة، أعلنت مركبات القائمة المشتركة أنها لن تشارك في الحكومة، حتى لو كانت حكومة يسار، لأنها غير مستعدة أن تكون شريكة في حكومة تسيّطر على المناطق الفلسطينيّة، لكنها سوف تدعم من خارج الائتلاف كل خطوة سياسيّة هدفها التقدم في العمليّة السلميّة، كما فعلت في فترة رابين. لكن هذا الامتحان لم يعرض على أرض الواقع.

ساهمت وحدة القوائم العربيّة في رفع نسبة مشاركة العرب في انتخابات 2015. وهو انجاز هام، ولكنه غير كافٍ برأيي. خلال المفاوضات حول تشكيل القائمة

المشتركة، ركّز ممثلو القوائم للأسف على ترتيب ممثليهم في القائمة، وليس على المواقف الأيديولوجيّة. أتمنى الآن، وبعد أن أصبحوا القوة السياسيّة الثالثة في الكنيست، أن يترفعوا عن الخلافات، ويهتموا بالعمل لمصلحة ناخبيهم وتحقيق أهدافنا جميعًا، رغم وجود حكومة يمين. ينبغي لهذا الوحدة أن تُحرّك التغيير في سياسات وطرق عمل الأحزاب العربيّة. فلا يمكن الاستمرار بنفس طرق العمل القديمة. أود أن يعمل نوابنا بجد من أجل المساواة المدنيّة في الدولة، ومن أجل السلام مع العالم العربي، ومن أجل إقامة الدولة الفلسطينيّة. أعتبر هذه الشراكة الرد المناسب على اليمين الإسرائيليّ والقوانين العنصريّة التي صادقت عليها الكنيست، وهي نزعة سوف تزداد بالطبع في الكنيست القادمة. ومن المتوقع أن يكون النضال أصعب من الماضي، ولذلك ينبغي على المُنتخبين الوفاء لرسالتهم الجماهيريّة.

شخصيًا، أنا فرح جدًا بهذه الوحدة، وآمل أن تجلب معها روح التجدد والإصغاء الحقيقي للمواطنين واحتياجاتهم. ولا يقل أهميّة، الحاجة إلى انتاج لغة جديدة وخطابًا جديدًا مع الجمهور اليهوديّ، والسعي إلى بناء الشراكة من أجل تحقيق السلام والمساواة. وآمل أن تتحول إلى قائمة عربيّة يهوديّة حقًا، وأن ينضم إليها الكثير من اليهود الذين يؤمنون بالمساواة المدنيّة. أتوقع أن تعمل القائمة المشتركة وفق رؤية مشتركة، وبرنامج عمل واضح وصريح، يمكن متابعة تنفيذه. للأسف، لم تنجح القائمة المشتركة في أول امتحان لها، وهو توقيع اتفاقية فائض أصوات مع ميرتس، بحجة أن الوقت المتوافر في حينه لم يسمح بإجراء نقاش وافٍ واتخاذ قرار بموافقة الأغلبيّة. في نهاية المطاف أتضح أن فائض الأصوات لم يكن ليغيّر نتيجة توزيع المقاعد. علينا الآن منح أعضاء الكنيست الجدد الفرصة لإثبات نفسهم، والأيام القادمة ستخبرنا هل ستنجح القائمة المشتركة بالحفاظ على التفويض الذي حصلت عليها من جمهور ناخبيها.

حالة هشّة

نحن نعيش في السنوات الأخيرة في أوضاع قاسية وهشّة. الجماهير العربيّة تشعر بالغضب، وخاصة تجاه كبار السياسيين اليهود بسبب تصريحاتهم ضد العرب، تصريحات لها تأثير فوريّ على ما يحدث في الشارع. ولقد شاهدنا أوج هذه البشاعة يوم الانتخابات، عندما حرّض رئيس الحكومة علانيّة ضد العرب وحقهم الديمقراطيّ في المشاركة في الانتخابات. حيث "حذّر" من الحافلات "المليئة بالعرب" الذين يتزاحمون على صناديق الاقتراع، ودعا مؤيديه إلى "وقف هذا التدفق" والخروج للتصويت لليمين. أعتقد أن هذا التحريض جلب له بعض المقاعد، وهو ما أكده معظم المحللون. وهذا ما يؤكد أن التحريض على العرب هو أداة فاعلة لدى اليمين الإسرائيليّ. كما أن صرخات "الموت للعرب" أصبحت أمرًا روتينيًا، لا أحد في الحكم ينفعل منها أو يشجبها. واليهود الذين يصرخون بهذه العبارات يُسمون "متظاهرين" و "محتجين"، بينما العرب المتظاهرون والمحتجون يسمون دائمًا "مشاغبون". وهناك مشاريع قوانين في الكنيست معادية للعرب، وقوانين أخرى تمت المصادقة عليها وتهددنا، بل وتهدد مجرد وجود النظام الديمقراطيّ في إسرائيل. ولا أرى أية حركة احتجاج ضد هذه التوجهات؛ بل ما يحدث أحيانًا هو العكس تمامًا.

بعد الحرب على غزة في صيف 2014 تأزمت العلاقات المتوترة أصلًا بين اليهود والعرب. لكن هذه المرة، وعلى خلاف أحداث أكتوبر 2000، شهدنا ظاهرتين جديدتين. الأولى، تجند قيادات عربيّة محليّة وبلديّة ضد الاعتداء على الممتلكات في البلدات العربيّة والمواجهات مع الشرطة. وقف رؤساء سلطات محليّة عربيّة بين الشرطة والشباب والجماهير الغاضبة بحق بسبب قصف المدنيين في غزة، ومنعوا بذلك وقوع كارثة. ودعوا المتظاهرين إلى عدم إغلاق الشوارع أو الاعتداء على محطات الباصات، أو فروع البريد والبنوك

في البلدات العربيّة، مثلما كان خلال أحداث أكتوبر في الماضي. في هذا المرة لم يتم تقريبًا أي اعتداء على الممتلكات.

الظاهرة الثانية المباركة: في هذه المرة شهدنا تقاربًا يهوديًا عربيًا ومظاهرات مشتركة. ففي منطقتنا على سبيل المثال، كانت تظاهرتان ناجحتان، في بردس حنا، حين تظاهر السكان ضد اعتداء أشخاص من اليمين على العمال العرب في المراكز التجاريّة، وأخرى على مفترق كفر قرع، حيث جرت سلسلة من التظاهرات الهادئة التي نظمها سكان المنطقة تحت شعار "جيران السلام". كنت شريكًا في تلك التنظيمات وشاركت في جميع الأحداث في وادي عارة من أجل الشراكة بين اليهود والعرب. في أحداث أكتوبر 2000، ادعى اليهود أن العرب خانوهم وانفصلوا عنهم؛ في الأحداث الأخيرة لم نشهد نهجًا مماثلًا. بل العكس، جاء اليهود للدعم، وقدموا المساعدات وتظاهرنا سويّة. كما كانت تنظيمات مماثلة في جميع أنحاء البلاد. وهذا يدل على اهتمام السكان رغم التوترات القائمة في الطرفين، فهم غير معنيين بالتصعيد، ولا بحدوث شرخ. أيضًا في جبعات حبيبة واصلنا في تلك الفترة نشاطنا الاعتيادي، وعقدنا المؤتمرات واللقاءات المشتركة للعرب واليهود من جميع الأعمار. العقلاء يريدون بث رسالة بأن السياسة في الخارج لم تمنعنا من الالتقاء والمحادثة.

أنا أؤمن

أنا أؤمن إيمانًا كاملًا بالحياة المشتركة لليهود والعرب. أنا أؤمن أنه لا يمكن القضاء على دولة إسرائيل، ولا يمكن طردنا من وطننا. كلنا سنبقى هنا ونعيش معًا، رغم أنف الجهات من الطرفين التي تحلم بالتخلص من الطرف الثاني. والسؤال الكبير هو كيف نعيش معًا وما مغزى الحياة المشتركة. كأقلية، ينبغي أن يكون نضالنا في هذه الدولة من أجل المساواة الحقيقيّة كمواطنين، ومن أجل السلام والحل العادل لأخوتنا الفلسطينيين، الذين ما زالوا يقبعون تحت

الاحتلال الإسرائيليّ، الأمر الذي لا يمكن تخيّله في القرن الحادي والعشرين. علينا أن نناضل من أجل الشراكة في جميع مجالات الحياة في الدولة، ومن أجل التقسيم العادل للموارد. علينا القيام بذلك عبر الوسائل المتوفرة لدينا، الكنيست، التي ضاعفنا قوتنا فيها؛ القانون والقضاء؛ والوسائل الشرعيّة الممنوحة لكل مواطن، مثل الاحتجاج، والتظاهر، والتصويت ونشاط المؤسسات المدنيّة.

كثيراً ما يسألوني كيف أنجح بالعيش في هذين العالمين، فلسطين وإسرائيل، وهما عندنا في برطعة متلاصقين فعلًا. يسألوني كيف أستطيع العيش بسلام مع الجانب الفلسطينيّ والجانب الإسرائيليّ، وهل توجد هنا أزمة ما. يعود الرد دائمًا إلى نهج حياتي ومعتقداتي. منذ أكثر من ثلاثين سنة وأنا أعمل في القضية اليهوديّة العربيّة. دائمًا كنت أبحث عن الوسط، التسوية، الطريق التي تضمن مصلحة الطرفين، وأنني لا أحيد عن دربي حتى في المناسبات الأشد صعوبة. فأنا أسير دائمًا على الخط نفسه، دون المساس بأحد الطرفين. ولا أملك حق الانكسار، لا يمكنني هذا. ينبغي على القائد الجماهيريّ الوقوف بحزم والصمود في الأزمات بالذات. وهذا ما حدث خلال الانتفاضة الأولى، وخلال أحداث أكتوبر، وهذا ما يحدث اليوم أيضًا. وهكذا سوف أستمر بالتصرف، فلا طريق آخر لدي. وأنا على يقين أن طريقي سوف تنتصر، فهي الطريق الصحية: البحث عن الاندماج في الدولة، وكيفية بناء بلدتي والنهوض بمجتمعي، ولا أنسى للحظة انتمائي للشعب الفلسطينيّ والتزامي العميق تجاهه.

على مدار السنين أنشأت علاقات طيبة مع السلطة الفلسطينيّة وسكانها. تعرّفت على بعضهم قبل قيام السلطة. أعمل على تعزيز مصلحتهم من أجل إقامة دولة مستقلة، وبرأيي هذه مصلحة دولة إسرائيل أيضًا. أحاول أن أساعدهم اقتصاديًا، وأحاول منذ سنين إسماع صوتهم في الشارع اليهوديّ. أؤمن باللقاء وجهًا إلى وجه؛ فهو أفضل من ألف تصريح من السياسيين. بعد

الحرب على غزة، عندما بدا أن أحداً لا يريد الاستماع إلى الطرف الآخر، عقدنا في جبعات حبيبة مؤتمراً مشتركاً. شارك في المؤتمر محمد المدني، المسؤول في السلطة الفلسطينيّة عن العلاقات مع إسرائيل، والذي تحدث بشكل مقنع أمام جمهور كبير. وكنا قد عقدنا مؤتمراً مماثلًا قبل خمسة وعشرين سنة. فلقد اختار المرحوم فيصل الحسيني، من القيادات البارزة في منظمة التحرير الفلسطينيّة، زيارة جبعات حبيبة مباشرة بعد إطلاق سراحه من المعتقل الإسرائيليّ خلال الانتفاضة الأولى، وبضعة أشهر قبل وفاته المفاجئة. تحدث أمام مئات الحضور ودعا الفلسطينيين في إسرائيل للنضال من أجل اخوتهم بطرق سلميّة. كان زعيماً كبيراً، ولو كان حيّا اليوم ربما كان سينجح حيث فشل الجميع.

سندي هو الدعم الذي أحصل عليه من أهالي برطعة الشرقيّة أبناء عائلتي الذين يشغلون مناصب رفيعة في السلطة الفلسطينيّة. وأنا لا أنكر، أنني أشعر أحياناً بأنهم يمتحنون أفعالي وأقوالي، يحاولون في كل مرة الفحص هل خنت قضيتهم. دائماً أثبت لهم أنني مخلص لهم ولأهدافهم ولا أعمل ضدهم، ولذلك فهم يدعمونني ويحترمونني. يدعمون تأثيري الجماهيري، قوتي، وصوتي الذي ينادي بالسلام والمساواة المدنيّة.

والأمر نفسه بالنسبة للجماهير العربيّة في إسرائيل. رغم عدم اتفاقي مع بعض أعضاء الكنيست، لكن الاحترام المتبادل يسود بيننا. أصغي إليهم، ونتجادل، وأُسمع صوتي، ودائماً من خلال الاحترام والتقدير. هذه مشاعر متبادلة، وأنا على علاقة طيبة معهم، مع الجميع – رؤساء المجالس، والشخصيّات الجماهيريّة من أنحاء البلاد. أيضاً مع قيادات الحركة الإسلاميّة الشماليّة، والتي أشاركها بعض مواقفها، لدي علاقات صداقة شخصيّة. عندما كنت مرشحاً لرئاسة المجلس، دعمني أعضاء الحركة في برطعة. صداقتي مع الشيخ هاشم عبد الرحمن، عضو الحركة الإسلاميّة، والذي كان رئيس بلدية أم

الفحم، دفعتنا إلى التعاون في منطقة وادي عارة مع رؤساء سلطات يهوديّة. لا أذكر أنني سمعت انتقادات من أي عضو في الحركة الإسلاميّة الشماليّة؛ في الماضي كانت انتقادات على نشاطات جبعات حبيبة، ولكن ليس ضدي شخصيًا، وفي السنوات الأخيرة تراجعت هذه الانتقادات كثيرًا.

حقيقة أن معظم نشاطاتي على مدار سنين طويلة هي إلى جانب أشخاص يؤمنون بطريقي، ساعدتني كثيرًا. أقصد أنهم يؤمنون بدولتين لشعبين، والعدالة والمساواة. أغلبهم من أبناء الكيبوتسات وأنا أحب توجهاتهم، تعلمت لغتهم وطريقة تفكيرهم. في البداية، العمل مع اليهود كان صعبًا جدًا. تطلب مني الكثير من التفكير والحذر. كان عليّ التفكير بكل كلمة اقولها، حتى لا يفهمونني خطأ أو يتضايق أحدهم من أقوالي. فأنا من خلفيّة مختلفة كثيرًا، واستغرق معي الكثير من الوقت لأفهم أسلوب تفكير اليهود، وكان عليّ التفكير كيف أعيش بينهم وفي الوقت نفسه أحقق الإنجازات. وعندما نجحت بذلك واصلت عملي معهم، وأعتقد أنني نجحت بالتأثير عليهم، وجعلهم يرون وجهة نظري.

أعتبر نفسي قوميًا فلسطينيًا وعربيًا مواطن دولة إسرائيل، مثقفًا أعلم إلى أين واجهتي. أؤيد تعزيز مجتمعنا وأعمل من أجل ذلك، من أجل إثراء الثروة البشريّة الهائلة بالمعرفة والقيم. رؤيتي واضحة وصريحة: أريد الحصول على حقوق الإنسان، وحرية الدين والضمير، دون التمييز ضد إنسان بسبب جنسيته أو دينه. أنا أدعم الديمقراطيّة، والسلام، والعدل، والمساواة والشراكة، ليس ككلمات وشعارات جميلة، بل على نحو جوهريّ وعميق. وأنا على استعداد للعمل سوية مع كل يهوديّ يؤمن بهذه القيم مثلي. "الآخر" و"المختلف" ليسوا أعدائي. فأنا أريدهم شركاء درب، وأنا على يقين أننا نستطيع معًا تحقيق حياة أفضل للجميع. يحكى عن طفل شقي أصطاد فراشة وحبسها داخل يده. ذهب الطفل إلى رجل حكيم وسأله: هل الفراشة التي داخل يدي حية أم ميتة؟ وفي

سريرته قال: إذا قال الحكيم أنها ميتة، سوف أريه أنها حية، وإذا قال أنها حية فسوف أقتلها وأريه أنها ميتة. نظر الحكيم إلى الطفل وقال له: مصير الفراشة بين يديك. وهكذا هو مصيرنا في هذه البلاد: قدرنا في الحياة أو الموت يتعلق بنا نحن.

أفضل أم أسوأ؟

هل وضع العرب في إسرائيل أفضل مما كان عليه قبل ثلاثين سنة، أم أسوأ؟ الجواب عن هذا السؤال معقد، كما كل شيء آخر يتعلق بنا. جيلي وُلد مباشرة بعد النكبة، وبدأ حياته تحت الحكم العسّكريّ، وعاش في ظل التمييز المتواصل؛ هذا الجيل، وأنا شخصيًا، كنا نؤكد دائمًا على النضال من أجل الحقوق والمساواة. لا شك أننا حققنا بعض الإنجازات. لكن العام تطور، وكذلك الناس. قبل ثلاثين سنة كان والدي يكتفي بمصباح واحد في البيت ويشكر ذلك؛ اليوم أنا لا أكتفي بالطبع بذلك، وأبني لا يكتفي بالطبع بما حققته أنا. فهذه قضية أجيال. كما ذكرت سابقًا، أولادنا يريدون أن يكونوا في مواقع التأثير والقرار، ولديهم ما يقولونه في كل موضوع يتعلق بحياتهم وحياة الدولة. فهم لن يكتفوا بمكانة الأقليّة الدونيّة، ومواطنين من الدرجة الثانية. فهم مثقفون، وحازمين وغير خنوعين.

لكن وللأسف، في الطرف اليهودي تتطور نزعة معاكسة. الجمهور اليهوديّ في إسرائيل اليوم أكثر يمينيًا بغالبيته. الكل يصرح أنه يريد السلام، لكنهم غير مستعدين لدفع الثمن المطلوب من أجل السلام. هذا شعب خائف رغم قوته العسكريّة وانجازاته الكبيرة. لذلك فأنا أشجع اللقاءات مع اليمينيين. وأنا أشارك في العديد من المؤتمرات والندوات، وأتحدث مع أشخاص من اليمين، التقي موظفين من الحكومة وأناقشهم، وأحاول أن أبيّن لهم الجانب الشخصيّ

الإنسانيّ، وأجعلهم يفكّرون في الصراع من وجهة نظر إنسانيّة بدون تعميم ومزاودات.

في عام 2008 سافرت مع وفد رؤساء السلطات المحليّة. كنا ثلاثة عشر شخصًا، عربيان وأحد عشر يهوديًا. كان معنا رئيس سلطة محليّة من المستوطنين، وقد جلس بالصدفة بجانبي في الطائرة، وبدأنا نتحدث. قلت له: اسمع، هذه أول مرة أجلس بجانب مستوطن، وهذا أمر غريب بالنسبة لي، فلست مرتاحًا. ردًا على ذلك بدأ يتحدث عن نفسه، وقال دعنا نترك السياسة. تناقشنا، وحاولت إقناعه بأن إقامة دولة فلسطينيّة هي في نهاية الأمر مصلحة إسرائيليّة، ولا يمكن الاستمرار بالسيطرة على شعب كامل بدون استقلال وحريّة. لم يقتنع، وأنا لم اقتنع بمواقفه بالضبط، لكن على المستوى الإنساني تشكلت بيننا علاقة. صحيح أنها علاقة مع التحفظ، وعينيّة، نعايد بعضنا في الأعياد. لكن حتى وإن لم يقتنع بأقوالي، فمنذ التقينا بدأ يستخدم العمال العرب في بلدته، كما بدأ بتعليم الأولاد هناك اللغة العربيّة. لا أعلم هل كان ذلك بفضلي أم لا، لكنني شعرت أنه طرأ لديه بعض التغيير، ربما تغيير بسيط، لكنه تغيير رغم ذلك. ربما لن نستطيع تغيير اليمين الإسرائيليّ سياسيًا، لكن من خلال مثل هذه اللقاءات الإنسانيّة، ومع الكثير من الصبر، ربما نستطيع تحريك شيئًا ما. أن نحاول تغيير تفكير الجيل اليهوديّ الجديد. التغيير الحقيقي في إسرائيل سيحدث عندما يأتي زعيم بقامة رابين، قائد شجاع، قوي وريادي يسير الجمهور خلفه. لكنني غير متفائل، ولا أعتقد أن هذا سيحدث قريبًا، وخاصة بعد إعادة انتخاب نتنياهو رغم أنه لم يفعل شيئًا من أجل التقدم بالعمليّة السلميّة.

للأسف، فإن الدولة تخسر في هذه الفترة العرب المعتدلين. فبدل أن تُشجّع الاعتدال، فهي تسهم في سيطرة المتطرفين على الشارع اليهودي، الأمر الذي ينتج في المقابل التطرف العربيّ. يحاول العرب في هذا الأيام تعزيز ذاتهم؛

أعتقد أن الخلاص سيأتي من الشباب، وهم سيجلبون التغيير. ينبغي الاستثمار بهم وبالتعليم والتشغيل، وخاصة النساء العربيّات، حيث أن معظمهن يرغبن بالخروج إلى العمل، لكن لا تتوافر لهن الفرص المناسبة. لقد فهمت الحكومة هذا الأمر، وذلك بفضل تقارير منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية (OECD)، ورغم مواقفها المتطرفة ضد العرب، هنالك خطط شاملة لتشجيع التعليم والتشغيل، التي تسهم في تحسين حياة آلاف الشبان.

واضح أنه ينبغي أن نسهم بقسطنا في التغيير. لقد ولت الأيام التي كان فيها العرب سلبيون ويردون فقط على السياسات الموجهة ضدهم ولا يبادرون. اليوم لدينا قيادة شابة، ومتعلمة وحازمة، والجماهير تعي حقوقها والإمكانيات المتوفرة لديها. تطوير رؤية وقيادة سيقود المجتمع كله نحو النجاح. علينا وضع تحسين التربية والتعليم على رأس الأجندة، وبناء بلداتنا وتنميتها وتعزيز المجتمع لكل واحدة وواحد منا الحق في التطور والحياة السويّة. بعد سنين عملي في جهاز التعليم، أؤمن أن كل شيء يبدأ من هناك. علينا أن نمنح المعلمين والتلاميذ التعليم العصريّ، ونعلمهم البحث، والتحليل، وطرح الأسئلة والبحث عن الأجوبة. أن نوفر لهم التعليم التكنولوجيّ الذي يتيح لهم الاندماج في العالم الحديث المتقدم. تحقيق المساواة المدنيّة الكاملة يتطلب الكثير من العمل. أنا أؤمن بنهج التربية: تربية أولادي للمضي في طريقي، وتربية الأولاد اليهود على معرفة الآخر وقبوله كإنسان متساوٍ، وتشكيل منظومة مشتركة من القيم، والاعتراف باختلاف كل مجموعة، وليس فقط اختلاف المجموعة العربيّة؛ في إسرائيل مجموعات أخرى مضطهدة، وأود أن نناضل مع بعضنا كي نكون جزءاً من الاجماع الإسرائيليّ.

المواطنة الإسرائيليّة هامة بالنسبة لي. فأنا شريك في السياسة الإسرائيليّة وأؤثر عليها. وأنا أسافر في أرجاء العالم بجواز سفر إسرائيليّ. المواطنة الإسرائيليّة تسمح لي بالتظاهر، والاحتجاج، والمساهمة أيضا. صحيح، هنالك أهميّة

للجانب الاقتصاديّ، ولا أخجل بذلك. لنا دور في تنمية الاقتصاد في الدولة، ونحن نساهم في ذلك كثيرًا. الدولة لا تبني المصانع في البلدات العربيّة، لكننا نواصل العمل في المصانع المُربحة في أرجاء الدولة. العرب يبنون البيوت والمدن اليهوديّة، ويواصلون العمل في الزراعة وتزويد الغذاء لجميع السكان. لا أقبل بمقارنة حياتي هنا بحياة المواطنين في الدول العربيّة. هذه المقارنة خاطئة من أصلها. فأنا مواطن إسرائيليّ.

الماضي والمستقبل

عندما أنظر إلى الوراء في محاولة لتلخيص حياتي، تلخيص مرحلي طبعًا، فما زلت في منتصف الطريق، أجد الإنجازات. لقد حقق العرب، على سبيل المثال، تحسن هام في جهاز التعليم. صحيح أنه لا يوجد حتى اليوم مساواة من ناحية الميزانيات، وبناء الصفوف، وعدد التلاميذ في كل صف، والمواد المساعدة في التعليم، والمختبرات، ومنشآت الرياضة وغيرها. لكننا رغم ذلك استطعنا من الارتقاء. آلاف التلاميذ يواصلون التعليم الأكاديميّ العالي، المئات منهم يدرسون خارج البلاد ويعودون. فهذا جيل آخر، أكثر تعليمًا ووعيًا، وهو سيطور المجتمع في جميع المجالات. أبناؤنا وبناتنا منخرطون في جهاز الطب الإسرائيليّ، ولا يوجد اليوم مستشفى، أو عيادة، أو صيدليّة بدون موظفين عرب؛ الشبان العرب يندمجون أكثر في مجال الهايتك، والهندسة والمهن الحرة بالطبع. نحن جزء لا يتجزأ من الاقتصاد الإسرائيليّ، ولا يمكن تجاهل ذلك. كما نجحنا في تطوير أعمال تجارية صغيرة في البلدات العربيّة. لدينا الكثير من قصص النجاح، وأيضًا قصص نجاح نساء اخترقن الحواجز الاجتماعيّة ومنخرطات في جميع المجالات. نجحنا في نضالات قوميّة عينيّة. يوم الأرض 1976 كان منعطفًا في موضوع مصادرة الأراضي، فاليوم لا تتجرأ الدولة بمصادرة الأراضي العربيّة بسهولة، مثلما كانت تفعل في

الماضي. حتى الآن لم ننجح في إقامة بلدة عربيّة جديدة، لكنه يجري الحديث عن إقامة مدينة في الجليل.

كثيراً ما أسأل نفسي: ما الذي يريده اليهود في الواقع؟ هل يتطلعون إلى العيش في حرب متواصلة؟ هل يستمتعون في العيش في دولة يسودها التمييز والعنصريّة؟ هل حقًا يريدون دولة يهوديّة وديمقراطيّة لليهود فقط؟ أم يريدون دولة ثنائيّة القوميّة، دولة بدون حدود؟ للأسف ليس لديهم رؤية أو نظر بعيد. يستطيع الإسرائيليون والفلسطينيون، برأيي، العيش في دولتين متجاورتين وأن يكونوا نموذجًا تفتخر به البشريّة. المرونة هي الكلمة الأساسيّة ومفتاح حل المشاكل والنزاعات الشخصيّة والقوميّة. المرونة والتسوية تجلبان في نهاية الأمر السعادة لكل إنسان وكل مجتمع. أرى أن من واجبي اقناع الجهور اليهوديّ بوجود فرصة للسلام، وأنه لا ينبغي اليأس أو الخوف من الحسم.

على الصعيد الشخصيّ فإني أشعر بالرضا والاكتفاء من حياتي، وأسرتي، وأولادي الذين ربيتهم على العيش كبشر متفائلين فرحين، فخورين، أقوياء، شجعان، متعلمين ومؤدبين. أفتخر باحترامهم للغير، وفضولهم للمعرفة والإصغاء، وطموحاتهم للقيام بكل عمل على أحسن ما يكون، وتفانيهم، وثقتهم بأنفسهم. أنا راضٍ عن المشوار الطويل الذي قمنا به، أسرتي، وأنا والمجتمع الذي أنتمي إليه، منذ طفولتي التي تطرقت إليها في بداية الكتاب، طفولة بلا كهرباء أو مياه في البيوت، بدون شوارع تصلنا مع العالم، مع مدرسة من صفين للبنين فقط. مرّ منذ تلك الفترة نحو خمسين سنة وحياتنا تغيّرت إلى حد كبير. نحن جزء من ثورة كونيّة، جزء من عالم متطور ومتقدم. نحن نواصل القيام بثوراتنا الصغيرة التي تبدأ من القلب، وتستمر إلى الأسرة، والمجتمع كله. أفتخر أنني جزء من هذه السيرورة وآمل أن أواصل ذلك في السنوات القادمة أيضًا.

سيرة ذاتيّة: رياض كامل كبها، برطعة

المؤهلات العلميّة:

1974: اللقب الأول من جامعة تل أبيب في تاريخ الشرق الأوسط واللغة والأدب العربي وشهادة تدريس

1974 وحتى اليوم: استكمالات مختلفة في مواضيع: المواطنة، العلوم السلوكية، التربية للتعايش، العلاقات الإنسانية، العلاقات اليهودية العربية، ارشاد مجموعات، الصراع العربي الإسرائيلي، إضافة إلى استكمالات في موضوعات السلطات المحلية.

العمل:

1974– 2005: مُدرّس ومربي في إعدادية كفرقرع

1980– 2001: مدير مشاريع في جبعات جبيبة

2001– 2005: مدير المركز اليهودي العربي للسلام في جبعات حبيبة

2005– 2009: رئيس المجلس المحلي بسمة

2009 – 2010: مدير مركز النور للرعاية الصحية، جلجولية

2010 وحتى اليوم: مدير المركز اليهودي العربي، جبعات حبيبة

إصدارات:

- كتاب عن برطعة، إصدار جبعات حبيبة، 1987
- مؤلف مشارك لكتاب "حكايات الوادي"
- مؤلف مشارك لكتاب "حكايات الجليل"
- مؤلف مشارك لكتاب جديد عن قرى المرج في منطقة الناصرة

- كتاب ضفتا الوادي – سيرة حياتي، إصدار هكيبوتس همئوحاد، 2016

الجوائز:

- 2001: جائزة منظمة اليونسكو للتربية للسلام
- 1999: جائزة روتشيلد للتربية
- 1995: جائزة رابطة المترجمين في البلاد
- 1991: جائزة المركز الدولي للسلام
- 1980: جائزة رابطة التفاهم بين الأديان

عضوية في مؤسسات وجمعيات:

- مدير الجمعية لتعزيز الديمقراطية في إسرائيل
- عضو إدارة مركز التطوير والابحاث، المثلث
- عضو إدارة مركز انجاز لتطوير الحكم المحلي للسطات المحلية العربية
- عضو جمعية تعزيز مكانة المعلم في المثلث
- عضو لجنة مؤسسات السلام في إسرائيل
- عضو سابق في مجلس المتاحف في إسرائيل
- عضو سابق في جمعية "كلنا"
- عضو سابق في اللجنة للحياة المشتركة في الحكم المحلي

مؤتمرات دولية:

شارك في العديد من المؤتمرات الدولية في ألمانيا، الولايات المتحدة، الدنمارك، إنكلترا، اسبانيا، إيطاليا، فرنسا، تركيا، الأردن، المغرب، مصر، تايلند والبرازيل.

شكر وتقدير من المؤلف للذين ساهموا بإصدار الكتاب:
المركز اليهودي العربي جامعة حيفا، البروفيسور راسم خمايسي، المركز اليهودي العربي للسلام حفتسلت جبعات حبيبه، عائلة كبها، صندوق فريدرخ ايبرت، صندوق هنري اوسبرغ ، صندوق هاري غروس، السيد سامي دراوشة، المهندس مصطفى ابو رومي، السيد زياد عمري، عائلة عليمي كفرقرع، السيد محمود فريد عثامنه، السيد احمد عزب، السيد فتحي محاميد، السيد احمد بدارنه، السيد فراس مصاروه، السيد محمود جبارين، السيد جميل غنايم، السيد عبد الرحيم عوده ، السيد مناحم هرباز، السيد موشه تسفرير، السيدة رونه نفتالي. وشكر خاص لمترجم الكتاب من العبرية للعربية الاستاذ نواف عثامنة.

رياض شخص مريح، ومرن، ومتواضع يملك قدرات رائعة للتواصل مع الناس على مختلف أنواعهم وآرائهم وميولهم السياسيّة والاجتماعيّة. ولديه قدرة استثنائيّة على تحريك الأمور بهدوء وحكمة.

بروفيسور مصطفى كبها - رئيس معهد العلاقات بين اليهود والمسلمين والمسيحيّين، الجامعة المفتوحة.

تصنع حياة المجتمعات من خلال جهد وعمل أفراد رياديين يؤدون ادوار ووظائف متعددة خلال سيرة حياتهم المستمرة. كما ان مكانة، وضع، سياق والظرفية الزمنكانية تشكل عوامل مؤثرة على أداء الشخص وسلوكه. وان قدرة الشخص على التكيف من جهة، وإنتاج ادوات لتغيير الواقع والحضور فيه من جهة أخرى، لخلق بيئة أخرى تلبي احتياجاته الشخصية، الأسرية والمجتمعية، هي تحديات كُثر هم الذين لا يتمكنون من مواجهتها وتحويلها إلي فرص. إن قصص وسرديات الشعوب هي تراكم لقصص أفراد المجتمع.

رصد ووصف التحولات التي جرت في مجتمعات تعيش على طرفي "ضفتا الوادي" بعد تقسيم قرية برطعه، مكان ولادة الأستاذ رياض كبها ومركز حياته على الضفة الغربية للوادي، بها عاش وعايش النمط الوظائفي الليبرالي المدني الغربي ممزوجا ومتكيفا مع العيش والمعايشة في بيئة قروية تقليدية شرقية محافظه. ما يرصده الأستاذ رياض في كتابة هذا هو أحد النماذج التي يعيشها ويتعايش معها عدد كبير من أبناء المجتمع العربي الفلسطيني القرويين والمتمدنين في إسرائيل.

يسر المركز اليهودي العربي في جامعة حيفا أن يصدر هذا الكتاب باللغة العربية كجزء من نشاط المركز البحثي والمجتمعي لخلق حياة مشتركة وتوافقات في الحيز العام لدعم وتمكين الأفراد والمجموعات العاملة الهادفة إلى خلق وعي ومعرفه ومناقشة مجدية ومثمرة بين السياسيين وقادة المجتمع المدني اليهود والعرب في إسرائيل، وفي الجدال الدائر بين الإسرائيليين والفلسطينيين والعالم العربي.

ISBN 978-965-92351-9-3

بروفيسور راسم خمايسي

رئيس المركز اليهودي-العربي